الشعر الجاهلي

بقلم

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
تلغرافيا ، كتالبان — بيروت
ص ب . ٣١٧٦
بيروت ـ لبنان

الطبعة الثانية منقحة ومزيدة
١٩٧٣

الشعر الجاهلي

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

(١)

هذا الكتاب من أدق ما كتب عن الشعر الجاهلي من دراسات ، وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٩ ، فأحدثت اهتماماً كبيراً ..

واليوم تصدر هذه الطبعة الثانية عن دار الكتاب اللبناني ببيروت لصاحبها الأستاذ حسن الزين

(٢)

ودراساتي عن الأدب الجاهلية معروفة في مختلف البيئات العلمية ، ومن بينها :

١ — الحيـــاة الأدبية في العصر الجاهلي وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٣٦٨هـ : ١٩٤٩م في ٣٧٦ صفحة — وصدرت طبعته الثانية عام ١٩٥٨ في ٥٠٤ صفحات — وسوف تصدر طبعة ثالثة له في حـــوالي التسعمائة صفحة بعون الله تعالى ..

٢ — قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي ويقع في نحو ٨٠٠ صفحة — وهو بالاشتراك مع الاديب العربي الكبير عبد الله عبد الجبار .

٣ — أعلام الشعر الجاهلي — بالاشتراك .

٤ — الشعراء الجاهليون — وقد صدر في مائتي صفحة ، وقد أعددت طبعة ثانية له تقع في حوالي الخمسمائة صفحة .

٥ — الأدب العربي بين الجاهلية والاسلام — بالاشتراك .

٦ — شرح أشعار الشعراء الستة الجاهليين — في جزءين كبيرين

٧ — شرح ديوان عنترة .

٨ — موقف النقاد من الشعر الجاهلي .

٩ — أعلام الشعر العـــربي — بالاشتراك وفيه تراجم مفصلة للكثير من الشعراء الجاهليين .

(٣)

وهـذا الكتاب « الشعر الجـاهلي » يمتاز بتعمقه واستقصائه في البحث ، وتنوّعه وشموله لكثير من جوانب الدراسات العلمية للشعر الجاهلي .

وإني لأقدمه اليوم إلى القارىء العربي في كل مكان ، معتزاً بتقديره وثقته واهتمامه بالبحوث الجادة ..

وبالله التوفيق ...

الرياض في ربيع الأول ١٣٩٣هـ – مايو ١٩٧٣ م

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

القِسمُ الأوّل

مقدّمات

البابُ الأول

أصُول الأدبِ ومذاهبه

الفصل الأول

رسالة الأدب

الأدب فن الإبانة عما في النفس ، والتعبير الجميل عن مكنون الحس ، والتصوير الناطق للطبيعة ، والتسجيل الصادق لصور الحياة ومظاهر الكون ومشاهد الوجود .

وهو من الفنون الرفيعة التي يعبر كل منها بطريقته الخاصة عن مظاهر الحياة وخوالج النفوس ، فيهز المشاعر بجماله وروعته . ولكنه يمتاز بأنه يجمع بين اللحن والموسيقى ، والفكرة في النحت ، والجمال في الرسم ، ويزيد عن هذه الفنون بالإفصاح والإبانة ، والنهوض بأكثر مهام الحياة الثقافية والاجتماعية والتهذيبية .

فهو يصور ما في النفس من فكرة أو عاطفة تصويراً جميلا ، ثم ينقل هذا التصوير إلى نفوس القراء وآذان السامعين ، فيؤثر فيهم ، ويهز خواطرهم ، ويوقظ مشاعرهم ، ويعينهم على فهم الحياة ، ويوجههم إلى أرفع المثل وأنبل الغايات ؛ ولذلك كان الوسيلة المثلى التي نهضت بعبء الثقافة

العامة ، يؤديها بشتى الطرق ومختلف الألوان ؛ والأداة القوية التي اصطنعها الرسل والحكماء والمصلحون . فلقد بلغ رسالة الدين على ألسنة الأنبياء ، وشع بنور الحكمة على أفواه الحكماء ، وسن طريق الكمال للمصلحين . وكان بعد هذا عماد النهضات السياسية والاجتماعية والفكرية يسجلها ويسايرها ويغذيها .

والأدب يصور جمال الحياة ، ومباهج الطبيعة ، ومشاهد الجمال ، ومفاتن الحسن ، ومجالي الأنس ؛ ويجمل ما قبح من الحياة ، ويبنير ما ادلهم من الخطوب ، ويهدهد ما فدح من الآلام ، وينقل ذلك إلى النفوس ، فتستروح له الخواطر المكدودة ، وتخف إليه القلوب اليائسة ، وتحيا عليه الآمال المحتضرة ؛ فيحيل اليأس أملا ، والوحشة أنساً ، والحزن مسرة ، والضيق انطلاقاً .

فالأدب تسجيل وتوجيه : يسجل مظاهر الحياة وخواطر النفوس ومشاعر المجتمع ، لأنه شعاع الحس المرهف ، وعبير النفس الصافية ، والقبس الالهي في كل قلب ، والجانب الروحي من كل إنسان ، وهو في كل أمة دليل على سمو روحها ، وقوة إنسانيتها ؛ وكل أمة حرمت منه تبلدت مشاعرها ، وأجدب خيالها ، واستبدت بها المادية التي تلحقها بعالم الحيوان . وهو وسيلة الاستمتاع بجمال الحياة والطبيعة ، لأنه مسرة النفس ، ومتنفس الحزين . يهدهد آلام الحياة بأنغامه ، ويرسم المثل العليا ويوجه إليها بأحلامه :

ولولا سبيل سنها الشعر ما درى ... بناة المعالي كيف تُبنى المكارم

وإذن فالأدب للأدب ، والأدب للحياة ، الأدب للحياة يعيش فيها ، ويندمج في واقعها ، ويكون صورة حقيقية لمظاهرها ونوازعها ، وفي خدمة مجتمعه ، يتفاعل معه ، ويكون صدى لمشاعره وآلامه ، وتعبيراً صادقاً

لخواطره وآلامه وآماله ، وتصويراً صحيحاً واقياً لسعادته وشقائه .. يتناول المجتمع الفاسد المنحل الذي يشقى أهله بالظلم والانحلال ، ويضيقون بالعسف والحرمان ، فيصوره في صورته الحقيقية القاتمة ، لينبه إلى مفاسده ، ويضع يده على عيوبه ، ويوقظ الهمم لإصلاحه ... والأدب للأدب : يجمل الحياة القاتمة ، وينهنه العبرات الحزينة ، ويرسم المثل العليـــا ، ويصور الأحلام السعيدة ، وينير السبل المظلمة ، وينهج للحائرين مناهج الرشد والصواب .

وكذلك كانت رسالة الادب العربي في كل عصر من عصوره ؛ تجاوب مع البيئة البدوية فكان أصدق صورة لها ، وأجمـــل نفحة استروحت لها خواطرها ؛ وتفاعل مع الحضارة في ظلال العصور الإسلامية ، فكان صدى لمدنياتها ، وانعكاساً لثقافاتها ، ومجالاً لأحلامها ووساوسها .

فما أغنانا عن هذا الصخب الذي تتجاوب به بعض أندية الأدب حول « الفن للفن والفن للحياة » ، وما أجـــدرنا بالإغضاء عما يصيح به بعض المسرفين والمخدوعين ، من اتهام أدبنا العربي بالعقم ، ورميه بالفساد ، والدعوة إلى التحلل منه ، والتخلص من آثاره ، لأنه – فيما يزعم – لا يتصل بالحياة بسبب ، ولا يمت إلى المجتمع بنسب ، وهو في زعمه أدب متخلف لا يمثل حياتنا من قريب أو بعيد .

إن حرصنا على أدبنا العربي ، واعتزازنا به ، واستمدادنا منه ، حرص على تاريخنا ، لأنه صلة ماضينا بحاضرنا ، وأفكار آبائنا وأجدادنا تسري في دمائنا وأعصابنا ، واعتزاز بقوميتنا التي تعد اللغة وما فيها من ثمار العقل والقلب من أعظم أسسها . ولولا محافظتنا على أدبنا ، واعتدادنا بتاريخه لامحت لغتنا ، وتقوضت قوميتنا ، وتسلطت علينا لغة أخرى ، فاستعبدت عقولنا وأفكارنا ، وصيرتنا جسما بلا روح ، وقلباً بلا عاطفة ، وعبودية العقول والأفكار أشد خطراً من عبودية الاجسام والحطام ، لأنها عبودية لا يرجى لها دواء ، ولا يبرأ لها داء .



الفصل الثاني

ما هو الأدب ؟

وهكذا نرى مدلول كلمة (أدب) يتسع ويضيق تبعاً لاختلاف الظروف والعصور ، وتبعاً لمعنييها الخاص والعام ، يتسع فيشمل كل ألوان المعرفة . ويضيق فيقف عند الكلام الجيد من مأثور الشعر والنثر وما يتصل به وترى كلا من هذين المعنيين يتسع حيناً ويضيق حيناً كذلك . وقد لوحظ مثل هذا في الأدب الأوربي ، فإن لكلمة (لتيراتور) عند الفرنج معنيين : معنى عام ومعنى خاص ، فالمعنى العام دلالتها على كل ما صنف في أي لغة من الأبحاث العلمية والفنون الأدبية . أما المعنى الخاص فيراد بها التعبير عن مكنون الضمائر ومشوب العواطف بأسلوب إنشائي أنيق مع الإلمام بالقواعد التي تعين على ذلك [1] .

ومن هنا نرى اختلاف الكتاب الغربيين في تعريف الأدب ، فهذا

(١) الزيات ص ١٢ .

(إمرسن) الأمريكي يقول : الأدب سجل لخير الأفكار ، وهـــو تعريف للأدب بالمعنى العـــام . ويقول (برك) : « نريد بالأدب أفكار الأذكياء ومشاعرهم مكتوبة بأسلوب يلذ القارىء » وهو على عنايته بجمال الأداء يسمح للنظريات العلمية أن تطرق باب الأدب . أما (سانت بيف) الناقد الفرنسي فالأدب عنده هو الأسلوب الجميل الذي يصور الحقائق الإنسانية [1] وهذا هو الأدب بالمعنى الخاص .

وإذن فلكلمة الأدب معنيان : المعنى العام وهو كل ما أنتجه العقل من أنواع المعرفة حتى الطبيعة والنحو ، سواء أثار شعورك وأحدث في نفسك لذة فنية أو لم يثر ولم يحدث ...

والمعنى الخاص وهو الكلام الجيد من الشعر أو النثر الذي يثير شعور القارىء أو السامع ويحدث في نفسه لذة فنيـــة كاللذة التي يحسها عند سماع الغناء أو توقيع الموسيقى أو رؤية الجمال ؛ هو التعبير الجميل عن معاني الحياة وصورها ، هو مأثور الشعر الجميـــل أو النثر البليغ المؤثر في النفس المثير للعواطف ؛ فلا بد فيه من معان تثير العواطف وصياغة جميـلة تؤدى بها هذه المعاني .

وهذا الأدب بالمعنى الخاص هو الذي نعنى بدراسته والتوفر عليه ، وهو الأدب الحـــق الذي يتصل بالنفس ويلذ المشاعر ويخاطب العاطفة . أما النظريات العلمية فحقائق مجردة لا تستثير عاطفة ولا تلذ شعوراً ، لأنها تخاطب العقل وحده .

---

(١) أصول النقد الأدبي للشايب ص ١٧ .

عناصر الادب

ويظهر أن هـذا المعنى الذي انتهينا اليه في تفسير الأدب لا يزال يستثير فضول القارىء ويتطلب شيئاً من الإيضاح والتفصيل . فقد كان الأدب في أخص معانيه يطلق على المأثور من الشعر والنثر وما يتصل بها ، فما شأن هذه اللذة الفنية ؟ وما شأن هذه المعاني التي تثير العواطف وتهز المشاعر ؟ .

والواقع أن نظر النقاد العرب في مزايا الأدب وخصائصه إنمـــا كان ينصرف إلى اللفظ والمعنى ، فهما عنصرا الادب وعموداه ، وبلاغة الكلام عندهم في لفظه أو معناه أو كليهما ، وتستطيع أن ترجع إلى ما كتبه ابن قتيبة في مقدمة كتابه عن ضروب الشعر مما حسن لفظه أو جـــاد معناه أو جمع بينهما أو خلا منهما .

وربما كان عبد القاهر أوسع هؤلاء النقاد مدى وأبعدهم نظراً وأوفرهم ذوقاً وأدقهم ملاحظة ، وبحسبك أن تقرأ ما كتبه ابن قتيبة هذا في موضوعه المذكور عن قول الشاعر :

ولما قضينا من مِنًى كل حاجة

ومسح بالأركان من هو ماسح الخ ..

ثم تقرأ ما كتبه عبد القاهر عن هذه الابيات [1] ، لتعرف إلى أي حد استطاع أن يحللها إلى العناصر الادبية التي حددها وسماها النقاد المحدثون في الامم الغربية .

---

(١) أسرار البلاغة (١٤ – ١٧) طبعة المنار .

أما هـــذه العناصر أو الاركان أو المقومات في رأي النقاد المحدثين فأربعة :

أولاً : العاطفة أو التجربة الشعرية :

وهي الحالة التي تتشبع فيها نفس الاديب بموضوع أو مشاهدة وتؤثر فيها تأثيراً قوياً يدفعه الى الإعراب عما يحس به .. وهي من أهم عناصر النص الادبي التي تميزه من النصوص العلمية وغيرها من الاخبار العادية أو الصحافية ، بما تظهر من شخصية الاديب ، وتصور من ذوقه ومزاجه وفكره وروحه ، وبما تكسبه الادب من صفة الخلود .

فالنص الادبي يمتاز بترد الناس على قراءته وحرص القارىء على الرجوع إليه ليغذي فكره وشعوره ، تقرأ مثلا مرثية أبي العلاء :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شـــاد

فتثير في نفسك عاطفة الاسى والحـــزن ، وتنقل إليك إحساس الشاعر وتأثره الذي تشبعت به نفسه ومزاجه وروحه وتفكيره ونحوذلك من عناصر شخصيته ، ثم تترك القصيدة إلى أن تدعوك الدواعي لإثارة هذه العاطفة في نفسك بوفاة صديق مثلا فتعود إلى مبعثها عند أبي العلاء المعري فتقرأ قصيدته لتظفر مرة ثانية بهذه اللذة النفسية وهكذا دواليك .

وأما النظريات والمسائل العلمية فإنها على ما تحوي من حقائق خالدة قابلة للنسخ في صور وأساليب أخرى أو الإعراض عنها ونسيانها ، كما أن الشخصية معدومة فيها وإن ظهرت فليست في قوة الشخصية الادبية ووضوحها .

ونقاد الادب المثالي يشترطون في العاطفة الصدق ، فالغـزل المصطنع في شعر البحتري وأبي تمـام والمتنبي مثلا حسن الرصف والوصف ، ولكنه دون

غزل جميل والعباس بن الأحنف وابن زيدون وسواهم من الشعراء المحبين ، لأنه خال من العاطفة الصادقة التي تمس القلب وتلذه ، إذ تثير فيه شعور المحبين . وكذلك يشترطون استواءهـا في النشاط ، قالوا إن شاعراً رثى المتوكل بقوله : (مات الخليفة أيها الثقلان) فقالوا : جيد ، نعى الخليفة إلى الجن والإنس في نصف بيت ، ثم قال : (فكأنني أفطرت في رمضان) فضحكوا منه ، لانقطاع عاطفته وعدم استوائها في الشاعرية .

ثانياً : الحقيقة أو الفكرة :

وهي عماد العاطفة ، فهي لا تحيا دون الاعتماد على حقيقة من الحقائق . وإلا فكيف نأسى ونحزن إذا لم تكن هناك حقيقة مرة هي فكرة الموت وسلطانه ، وعظمة البلى وآثاره ، وعناء الحياة ومهزلتها في مرثية أبي العلاء . وكيف نتلظى حسرة وأسفاً إذا لم نستشعر الحقيقة الواقعة في أن الأيام تعبث بنا وتفقدنا حياتنا فلا نستردها ولا نعود إليها في قوله :

ضحكنا وكان الضحكُ منا سفاهةً
وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا
زجاجٌ ولكن لا يُعاد له سَبْك

إن الأدب الذي يخلو من الحقائق سخف وعبث لا يليق بالعقلاء .

ثالثاً : الخيال :

وهو الأداة اللازمة لإثارة العاطفة : وإنما يمتاز الأدب بقدرته على عرض الأشياء بأشكالها وألوانها كالرسم والتصوير ، ليثير العاطفة ويلهبها ، وقد

رأيت خيـــال المعري في تصويرنا بالزجاج الذي لا يعاد له سبك . وتصوير الأيام في صورة المحطمة العابثة . وإن شئت فاقـرأ قـول البحتري في رثاء المتوكل :

ولم أنس وحش القصر إذ ريع سِرْبُهُ
وإذ ذُعِرتْ أطلاؤُه وجـــآذره[1]
وإذ صِيحَ فيه بالرحيل فَهُتِّكَتْ
على عَجَـــلٍ أســـتاره وســـتائره

إنه لا يأمر بالحـزن والغضب ، ولا يجلجل بفداحة الخطب وهـــوله ، ولكنه يسلك طريق التصوير المؤثر ، فيعرض علينا صوراً أليمة تثير غضبنا فنغضب كا غضب ، وتهز مشاعرنا فنحزن كا حزن ، وكذلك فعـل المعري في مرثيته من عرض صور الأصوات والأجسام والقبور والنجوم وغيرها حتى أبكى الناس .

رابعاً : العبارة أو الصورة أو الأسلوب :

وهي الأداة التي تنقل ما في نفس الأديب إلى غيره ليشعر بمـــا شعر . ويحس بما أحس : في نفسه الحقيقة تسيطر عليها العاطفة وبصورها الخيـــال ، فما الذي ينقل هذه العناصر النفسية ويذيعها غير العبارة أو (نظم الكلام) ؟ والعبارة عنصر هام من عناصر الأدب بل هو أهمهـــا في رأي بعض النقـــاد ، لأن القدرة على إثارة العواطف — التي هي وظيفة الأدب — إنما تعتمد اعتماداً

(١) السرب : الجمـــاعة من الطير أو الوحش أو الإنسـان . الأطلاء : جمع طلا وهـــو ولد الظبية ساعة يولد . الجــآذر . جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . ذعر : ريـع وأخيف . والمراد نساء القصر .

قوياً على جمال العبارة ووفائها بحق الخيال والعاطفة والحقيقة ، بحسن سبكها وتأليفها وكونها مرآة صافية أمينة لما في نفس الأديب ، تلائم موضوعه رقة وعذوبة ، أو ضخامة وفخامة .. ويعتمد الشعر بنوع خاص على الموسيقى الداخلية التي مصدرها الألفاظ ، إلى جانب موسيقى الوزن والقافية ، وهي موسيقى لايمكن تحديدها ، لأنها تعتمد على الذوق الفني الرفيع .. ولا شك أن الصياغة بمثابة الجسم والعاطفة بمثابة الروح ؛ فإذا كان الجسم قوياً أضفى على الروح قوة وجمالاً .

هذه هي عناصر الأدب عند المحدثين [1] ... اقرأ قول المتنبي :

طلبتَهمو على الأمْوَاهِ حتى تخوَّفَ أن تُفتِّشَه السحاب

يهزُّ الجيشُ حولَكَ جانبيه كما نفضت جناحيها العُقَابُ

فقد امتلأت نفسه بعاطفة الهيبة والإجلال نحو ممدوحه ، فأراد أن ينقل هذا الإحساس إلى نفوس السامعين بتصوير عظمته وهيبته ، فاعتمد على الخيال في تلوين الفكرة لإثارة النفوس ، وإلهاب العواطف حتى تستشعر سلطانه وبأسه على الأعداء فالسحاب ، يخشى أن يفتشه ، وهو يمشي كالعقاب في وسط جيشه الذي يهتز جانباه من حوله قوة وبأساً كجناحي العقاب . وأدى ذلك في لفظ قوي ضخم يلائم العظمة والقوة والإرهاب .

واقرأ قول أبي العتاهية :

أتته الخلافة منقادةً إليه تُجَرِّرُ أذيالها

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

---

(١) راجع كتاب أصول النقد الأدبي للشايب .

لتجد الخليفة الجدير بالخلافة ، وقد طلبته الخلافة وسعت إليه ، تجرر أذيالها في اختيال ، وتسرع إليه في انقياد ، وهكذا يعمل الخيال عمله في تصوير الحقائق ، وتلوين الأفكار .

واقرأ للبحتري :

شواجرُ أرماح تقطِّعُ بينَها شواجرُ أرحام مَلُومٌ قطوعها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

فقد استطاع أن يشعرنا بالحسرة التي استولت على نفسه من قتال ينشب بين الأقارب قد يعقب الندامة والأسف . فهذا هو عنصر العاطفة ، وقد أثارتها في نفوسنا تلك الصورة المحزنة لهذه الرماح المشتجرة التي تقطع الأرحام ، وهذه الدماء التي تريقها الحرب والدموع التي تسكبها الندامة . وهذا هو عنصر الخيال الذي يقوم على الفنون البيانية من تشبيه واستعارة ونحوهما ، أما عنصر الحقيقة فهو القتال الذي وقع بين حيين متقاربين . . وأخيراً هذا الأسلوب الجميل الذي عرض فيه البحتري خواطره وصوره هذا العرض البديع ، وهو العنصر الرابع .

وتستطيع أن تتناول حقيقة مصلوب معلق في الهواء فتتخيل في هذه الحقيقة ما تخيله الأنباري في رثاء مصلوب . فتثير ما شئت من عاطفة الرثاء أو الإعجاب كما أثارها وتقول معه :

ولما ضاق بطن الأرض عن أن يضمّ عُلاك من بعد الوفاةِ
أصاروا الجوَّ قبرَك واستعاضوا عن الأكفان ثوبَ السافياتِ

وبعد فهذا هو الأدب : فن الإبانة عما في النفس من أحاسيس وانفعالات وتسجيل صور الحياة ومظاهر الكون تسجيلا يثير في نفوس الناس لذة فنية ومتعة شعورية .. وهذه هي مقاييسه في نظر النقاد المحدثين على ضوء مذاهب النقد الحديثة التي سنتعرض لها قريباً . . ويقول الرافعي :« ففي عمل الاديب تخرج الحقيقة مضافاً إليها الفن ، ويجيء التعبير مزيداً فيه الجمال ، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حية ، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها ورنها الموسيقي ، وتلبس الشهوات الإنسانية شكلها المهذب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى الذي هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معاً . وبهذا يهب لك الادب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارة من خلال نفسك ، وتحس الاشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها . . »

الفصل الثالث

كلمة أدب ومادتها

وإذن فما هذا الأدب الذي تلك وظيفته ، وهذه رسالته ؟ وقبل أن نجيب على ذلك ينبغي أن نبحث أولاً في مادة الكلمة ونشأتها وأطوارها التاريخية :

فالأدب — بسكون الدال — الدعاء ومنه (المأدبة) بضم الدال وفتحها ، وفي الحديث عن ابن مسعود : إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض فتعلموا من مأدبته . والمأدبة والأدبة صنيع الدعوة أو العرس يدعى إليه الناس ، كما يقول له (مدعاة) .

وأدب يأدب أدباً — من باب ضرب — دعا إلى الطعام ، فهو آدب كما قال طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى — لاترى الآدب منا ينتقر (١)

(١) الجفلى محركة : الدعوة العامة . النقرى كجمزى الدعوة الخاصة .

والجمع أدبة ككاتب وكتبة ، قال عليّ كرّم الله وجهه : أما إخواننا بنو أمية فقادة أدبة . وأدب القوم على الأمر جمعهم عليه ، وفي الجمع دعوة . قال أبو ذؤيب الهذلي :

وكيف قتالي معشراً يأدِبُونَكم على الحق ألا تأشِبُوه بباطل (١)

والادْب كذلك الامر العجيب كالادبة .

قال الاصمعي : جاء فلان بأمر أدْب أي عجيب مدهش ، أو هو العجب والدهشة كقول منظور بن حبة الاسدي يصف أُزبيّ الناقة أي سرعتها ونشاطها : (حتى أتى أُزبيُّها بالادْبِ) أي بالعجب .

أما الادب — بفتح الدال ، فهو الذي يتأدب به الاديب من الناس ، أو هو الظرف وحسن التناول ، أو هو كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل. ويقال أدب وأرب فهوأديب أريب ، وتأدب واستأدب، والبعير المذلل أديب (٢) .

متى وكيف نشأت :

لم ترد كلمة أدب — بفتح الدال — في القرآن الكريم ، على الرغم من خفتها . وعلى الرغم من ورود كثير من آيه في معناها ، وشدة اتصالها بأغراضه وموضوعاته ، ولم ترد كذلك في اللغات السامية الاخرى كالسريانية والعبرية التي تعد من اخوات العربية ، فيما يقرره الباحثون (٣) .

ولكنها ترددت بنصها أو مادتها في بعض ما نقل إلينا من آثار الجاهلية ، كما في حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند ، وكانت قد شرطت عليه ألا يزوجها من أحد حتى يصفه من غير أن يسميه ، فكان مما وصف به أبا سفيان بن حرب

(١) تأشبوه : تخلطوه .
(٢) راجع هذه المواد في الأساس للزمخشري واللسان والقاموس وشرحه ، مادة « أدب »
(٣) الأدب الجاهلي لطه حسين ص ٢٠ .

حين خطبها قوله : « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » ، وكان مما ردت به قولها : « وسآخذه بأدب البعل مع لزوم قبتي وقـلة تلفتي » [1] . وفي كتاب النعمان ابن المنذر إلى كسرى مع وفد العرب : « وقد أوفدت أيها الملك رهطـاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم » ، وفي كلام علقمة ابن علاثة أمام كسرى : « فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك ، بل لو قسمت كل رجل منهم ، وعلمت منهم ما علمنا لوجـدت له في آبائه أنداداً وأكفاء كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف وبالرأي الفاضل والادب معروف » [2] . وقال الاعشى :

جرَوْا على أدَبٍ مني بـلا نزق   ولا إذا شمَّرتْ حـربٌ بأغمار

وهي في هذه النصوص مستعملة في المعنى الخلقي من تهذيب النفس وترقيق الطبع وتحلية الخلق ، واتباع الطريقة المحمودة والعادة الحسنة وكريم الاخلاق وموروث الشمائل .

وجاء الإسلام فاطردت الكلمة في مجراها ، ترددت في كثير من النصوص على لسان النبي ﷺ وصحابته . فقد ورد أن الرسول ﷺ كان يخاطب وفود العرب على اختلاف لهجاتهم التي لا يتهدى إلى معرفتها بعض العرب ، فيفهم عنهم ويفهمهم ، حتى قال له علي رضي الله عنه : يا رسول الله نحن بنـو أب واحد ، ونراك تكلم الوفود بما لا نفهم أكثره ، فقال الرسول : « أدبني ربي فأحسن تأديبي وربِّيتُ في بني سعد » . والتأديب هنا معناه التعليم .

ونظراً لأن الكلمة لم ترد في القرآن الكريم ، ولندرة ورودها في الادب

(١) الأمالي ١٠٤ ج ٢ .
(٢) العقد الفريد ٩٩ ج ١ .

الجاهلي ، وعدم وجودها فيا عرف من اللغات السامية . كانت هذه النصوص الجاهلية موضع شك وارتياب عند كثير من اللغويين والباحثين والمستشرقين .

كما كان الحديث النبوي « أدبني ربي فأحسن تأديبي » موضع التردد وعدم الاطمئنان عند بعضهم [1] .

وقد حدا هذا بهم إلى أن يلتمسوا للكلمة أصلاً بالتمحل أو الفرض ، لأنها لم تنبغ في رأيهم إلا في العصر الاموي .

يقول بعضهم إنها أخذت من الادب بمعنى الدعاء إلى الطعام ، لأن الادب يأدب الناس ويدعوهم إلى المحامد ، أو من الادب بمعنى العجب ، لأن الادب يعجب منه لحسنه ، ويعجب من صاحبه لفضله[2] : وهذا رأي يعوزه الدليل القاطع ، فضلا عن أن المعهود عند العرب استعمال الكلمة بنصها عند استعمالها في معنى آخر ، فلماذا فتحت الدال ؟ .

ويرى الدكتور نلينو المستشرق الإيطالي أن بين الادب والدأب اتفاقاً في المعنى الاصلي وهو السنة والعادة ، فظن أن العرب جمعوا دأباً على آداب بالقلب كما جمعوا بئراً على آبار ، ثم اشتقوا من هذا الجمع على توالي الحقب مفرداً جديداً هو الادب . ولكن في رأي الاستاذ حلقة مفقودة ، وهي أن جمع دأب على آداب لم يرد في أثر ولم ير في معجم [3] .

وقد احتال الاب أنستاس الكرملي في أن يجعل للكلمة أصلاً يونانياً ، ولكنه انتهى برأيه إلى الظن والتخمين . فإنه يرى أن الادب صنعة الاديب

(١) طه حسين في الأدب الجاهلي ١٩ .

(٢) اللسان وشرح الكاتب للجواليقي ١٣ ، ١٤ .

(٣) أصول الأدب للزيات ص ٨ .

الوارد في اللغة اليونانية باللفظ والمعنى فمن معاني الاديب عندهم الحسن الغناء اللذيذ المحادثة والمنادمة والمجالسة المثير لهـوى جلسائه بأنغامه الشجية وحديثه الريّق .

ويرى بعضهم أنهـا نقلت عن بعض العرب من غير القرشيين في العصر الإسلامي ثم ذاعت ونقلت من المعنى الخلقي إلى المعنى الاصطلاحي في العصر الاموي [1] .

وهناك من يفرض أنها دخلت العربية من لغـة الشومريين الذين عمروا جنوبي العراق من أقدم العصور ، وأخذها عنهم الساميون الطارئون عليهم ، إذ كان معنى (أديب) عندهم (إنسان) ثم نقلت عندهم من أديب إلى آدم ، واحتفظت العربية بالاصل الشومري واستعملته فيما يؤدي معنى الإنسانية أو الآدمية من كرم الخلال وما يتصل به [2] .

هذه آراء الباحثين في تاريخ كلمة (أدب) ، وهو كما ترى إنما تضرب في مجاهل الحدس والتخمين ، وليس فيها دليل قاطع أو سند صحيح يدعوهم إلى الشك فيما حمل على الجاهليين من نصوص ، وما نسب الى الرسول من حديث.

ونحب أن نقول لهم : إذا كانت المسألة مسألة احتمال وظن ، فما الذي يمنع احتمال صحة هذه النصوص الجاهلية ؟ وهـل يدفع الاحتمال باحتمال ؟ وينقض الظن بالظن ؟ وإذا كانت ندرة هذه النصوص هي التي حملتكم على الشك فيها ، فلم لا تجوز أن تكون هـذه الكلمة وردت في نصوص كثيرة أصابها ما أصاب الادب الجاهلي من الضياع والتحريف ؟ أما القرآن الكريم فإنه لم يستوعب ألفاظ اللغة القرشية جميعاً ، وأما الحديث الشريف فإنه ليس بذي

(١) الأدب الجاهلي ص ٢٠ .

(٢) أصول الأدب للزيات ص ٩ وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ١٢ جـ ١ .

الطول الذي يلتبس لفظه على الحافظين حتى يشك فيه . فوجـود الكلمة فيه دليل على وجودها في الجاهلية ، لأن الرسول لم يرتجلها ارتجالاً ، وإنما استعملها استعمالاً بدليل فهم الامام علي لها دون سؤال أو مراجعة .

كيف نشك في هذه النصوص إذن وندفعها برأي محتمل غير قاطع ، أو وجه مخترع غير ثابت ؟ وإذا كان كل نص منها لا يفيد الرجحان أفلا يكون في مجموعها ما يفيده إن لم يفد اليقين ؟ على أن هذه النصوص ونحوها إذا سلم انتحالها ، تبين لنا على الاقل رأي المنتحلين في عرب الجاهلية ، وكيف كانوا يتصورون حياتهم الاجتماعية والأدبية والسياسية ، وهذه الصورة تشير إلى أن معنى كلمة أدب من الناحية التهذيبية كان معروفاً قبل الاسلام ، ألا يدل هذا على أن كلمة الادب عرفت في الجاهلية لأداء هذا المعنى ؟ .

وأخيراً فإن وجود أخواتها المشتركات معها في المادة والقريبات معها في المعنى مثل بدأو أبد ودأب ، يدل على أن كلمة أدب — ويندر أن ترد هذه الكلمات بدونها لخفتها — دارت معها في الحياة العربية الجاهلية [1] .

---

(١) أصول النقد الأدبي للشايب ص ٣ ، ٥ .

الاطوار التاريخية لمدلول كلمة أدب

(١)

كانت هذه الكلمة تدل في أول أمرها – كما رأينا – على رياضة النفس وتمرينها على ما يستحسن من السيرة والخلق . وعلى اكتساب الاخـــلاق الكريمة ، واصطناع السيرة الحميدة ، ولهذا يقـول الجواليقي في شرح أدب الكاتب : « والادب الذي كانت تعرفه العرب هـــو ما يحسن من الاخلاق وفعل المكارم » . وكذلك كانت في الجاهلية ، فلما كان صدر الاسلام أضيف إلى مدلولها تعليم المرء ما أثر من المحامد والمعارف . وصارت تدور حول المعنى التعليمي – كما في حديث الرسول – إلى جانب دورانها حول المعنى الخلقي والنفسي .

(٢)

فلما كان العصر الأموي شاع استعمالها ، وأخذت مشتقاتها تتعدد ، ومعانيها تتمايز ، وأصبحت عنواناً جديداً على التعليم الفـذ والتربية الممتازة ، ونشأت مهنة جديدة لجماعة من الأساتذة الممتازين الذين ينشئون الطبقة العليا وينهضون

بتعليم أبناء الخلفاء والامراء وكانوا يسمون (المؤدبين) ، وهؤلاء يدرسون لتلاميذهم الشعر وما يتصل به من نسب وأيام وأخبار ونحو ذلك من المعارف التي تكون الثقافة الادبية ، وهي غير المعارف التي كانت قوام الثقافة الدينية للمسلمين في ذلك الحين وهي القرآن والحديث وما يتصل بها من تفسير وفقه وفتاوى . وعلى هذا دخل في مدلول كلمة أدب ما يلقيه المعلم (المؤدب) إلى تلميذه من كل ما يمنحه حظاً من المعرفة والثقافة الادبية [1] .

وإذن فقد صارت كلمة أدب في ذلك العهد تؤدي معنيين ممتازين :

أحدهما : هذا المعنى الخلقي التهذيبي وهو أخذ النفس بالمرانة على الفضائل وكريم الشيم ، ثم التأثر بهذه المرانة لاكتساب الاخلاق الفاضلة والسيرة الحميدة . ومن هذا تسمية عبد الله بن المقفع كتابيه الأدب الصغير والأدب الكبير . لاشتمالها على قوانين وأصول من تمسك بها صار أديباً أي فاضلاً مؤدباً مهذباً . ومنه قول زياد في خطبته البتراء : « أما والله لأؤدبنكم غير هذا الادب أو لتستقيمن لي قناتكم [2] » ، وقول بعض الفزاريين من شعراء الحماسة :

أُكْنيهِ حين أناديه لأكرمَه ... ولا ألقِّبه ، والسوأةُ اللقبُ

كذاك أُدِّبتُ حتى صار من خلقي ... أني وجدت مِلاكُ الشيمة الأدبُ

---

(١) ويلاحظ أن لفظ (الأدباء) ظل يطلق على العلماء المؤدبين حتى أواخر القرن الثالث الهجري حين استقلت العلوم ، وضعفت الرواية ، وغلبت العجمة ولهذا قالوا : ختم تاريخ الأدباء بالمبرد وثعلب ، وانفرد الشعراء والكتاب بمزية اللقب (معجم الأدباء طبعة فريد رفاعي ١٢٢ ج ٥) .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ٥٨ ج ٢ .

وما أنشده الجاحظ :

وإني على ماكان من عنجهيتي ولُوثَةِ أعرابيتي لأديبُ [1]

وقول سالم بن وابصة :

إذا شئت أن تُدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حرا
إذا ما أتت من صاحب لك زَلَةٌ فكن أنت مُحْتَالاً لزلته عذرا

والثاني : المعنى التعليمي القائم على رواية الشعر والنثر وما يتصل بها من نسب وخبر ومثل ونحو ذلك من المعارف غير الشرعية ، التي كان يقوم بتدريسها المؤدبون المعلمون . ومن ذلك قول عبد الملك لمؤدب ولده « أدبهم برواية شعر الأعشى » وقول عمر بن عبد العزيز لمؤدبه : كيف كانت طاعتي لك وأنت تؤدبني ؟ قال : أحسن طاعة . قال : فأطعني الآن كما كنت أطيعك [2] .

وقد بقيت مادة الأدب تدل على هذين المعنيين منذ القرن الأول الهجري الى الآن مع تعديل بسيط يتناولها ضيقاً وسعة خلال القرون التالية ، حتى أثر قولهم : الأدب أدبان . أدب النفس وأدب الدرس [3] .

---

(١) العنجهية الحمق والجهل ، واللوثة الهيج والحمق ، والمراد بذلك كله جفاء الأخلاق .
(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٠١ جـ ١ .
(٣) لسان العرب مادة أدب .

(٣)

ولما نشأت بعض العلوم العربية كاللغة والنحو والصرف في منتصف القرن الثاني ؛ دخل ما وضع من هذه الاصول في مدلول الأدب ، إلى أن ازدهرت الحضارة العباسية وصحبتها النهضة العلمية وقويت حركة التأليف والترجمة ، تلك الحركة التي انتهت فيما بعد باستقلال هـــذه العلوم بأسمائها ، باستيفاء عناصرها وقواعدها ، واتساع حركة التأليف فيها .

حتى إذا كان القرن الثالث رأينا مادة الأدب تؤدي المعاني الآتية :

أولاً : المعنى الخاص وهو الشعر والنثر وما يتصل بهما من أخبار وأنساب وأيام وأحكام نقدية ثم النثر الفني الذي جوده الكتاب . وظهرت بهذا المعنى كتب معروفة كالبيان والتبيين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٦ هـ والكامل للمبرد ٢٨٥ هـ وطبقـــات الشعراء لمحمد بن سلام ٢٣١ هـ وغيرها مما نجد فيه الأدب الخالص مع مسائل لغـوية ونحوية وآراء في النقد الادبي ، ومعارف قصصية .

ثانياً : المعنى العـام الذي يتناول المعـارف الإنسانية ، وأنواع الفنون الجميلة والرياضة ونحو ذلك من كل ما يوسع الثقافة ، ويكسب الشخص ظرفاً وأناقة . فأطلق الادب على الغناء . قال ابن خلدون : « وكان الغناء في الصدر الاول من أجزاء هـذا الفن (الادب) لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنمـــا هو تلحينه » ... وكان من أثر تقلب العرب في أعطاف النعيم ، لما ورفت ظلال العيش في مدن العراق والجزيرة ، أن أولعـــوا بالمنادمة والتأنق . فأطلقوا الادب على الاناقة في اللباس والطعام ، واللباقة في الحديث والكلام ، وحسن التناول والمنادمة ، وخدمة الملوك والامراء ، والبراعة في الصيد أو اللعب ، وكل ما من شأنه تكوين الرجـل المستنير ، وبهـذا صار لفظ الاديب يرادف

لفظ الظريف ، أو المثقف أو المستنير . ولهذا يقول التبريزي في شرح الحماسة : « وكان الادب اسماً لما يفعله الانسان فيتزين به في الناس » ويقـــول صاحب اللسان : « الادب الظرف وحسن التناول » .

ويدلنا على أن الادب كان يطلق على جميع ما ترجم من العلوم ونقل من الالعـاب والفنون ما روي عن الحسن بن سهل الوزير العباسي أنه قال : « الادب عشرة ، فثلاثة شهر جانية ، وثلاثة أنو شروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن . فأما العود والشطرنج ولعب الصوالج فشهر جانية ، وأمـــا الانوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحـدة فمقطعات الحـديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس[1] » وقد بقي هذا المعنى العام وزاد اتساعاً في القرن الرابع كما سيأتي :

ثالثاً : هـذه العلوم الادبية اللازمة لاستكمال ثقافة الاديب ، والاستعانة بها على إنشاء الادب وفهمه وتذوقه ونقده ، كاللغة والنحو والنسب والاخبار والنقد وهي العلوم التي كانت عماد الثقافة العربية .

رابعاً : أدب النفس . وقد اتسع هذا المعنى فتناول كل أسلوب مستحسن في علم أو عمل من خلق فاضل ، وسيرة محمودة ، وقوانين يلزمها كل ذي حرفة أو منصب . ومن الكتب في هـــذا المعنى أدب القراءة لابن قتيبة ، وباب الادب في صحيح البخاري ، وفي حماسة أبي تمام ، وأدب النفس لأبي العباس السرخسي . ويستمر التأليف في هـــذا النوع من أدب السلوك على توالي القرون . كأدب النـديم لكشاجم المتوفى سنة ٣٥٩ هـ . وأدب الدنيا والدين للماوردي ٤٥٠ هـ . وآداب الصوفيـة للنيسابوري ٤٤٥ هـ . وآداب البحث والمناظرة[2] .

---

(١) أصول الأدب للزيات ص ١٠ .

(٢) أصول النقد الأدبي للشايب ص ٩ .

(٤)

ولما جاء القرن الرابع كانت العلوم اللغوية منفصلة عن الادب ، وبقي النقد يحاول الاستقلال والانفصال ، وكان كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري مقدمة لنشاط هذا الفن ومحاولته الوجود الاستقلالي ، وكتاب الموازنة للآمدي والوساطة للجرجاني ، ونحو ذلك من الكتب والرسائل التي استطاع النقد بها أن يؤسس استقلاله ، فلم يكد ينتهي القرن الرابع ويحل الخامس ، حتى تم له الاستقلال على يد عبد القاهر ، وحيث نشأت علوم البلاغة . وبهذا أصبح الادب يؤدي :

أولاً : المعنى الخاص ، الذي وقف به عند الشعر والنثر ، بعد انفصال النقد والبلاغة عنه ، وذلك في القرن الرابع الهجري .

ثانياً : المعنى العام ، وقد بقي على سعته يتناول جميع الآثار العقلية عدا الشرعية ، فقد جاء في الرسالة السابعة من رسائل إخوان الصفا ، وهي من آثار القرن الرابع : « اعلم يا أخي بأن العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس. منها الرياضية ، ومنها الشرعية الوضعية ، ومنها الفلسفية الحقيقية . فالرياضية هي علم الآداب . وهي تسعة أنواع : أولها علم الكتابة والقراءة ، ومنها علم النحو واللغة ، ومنها علم الحساب والمعاملات ، ومنها علم الشعر والعروض، ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها ، ومنها علم الحرف والصنائع ، ومنها علم البيع والشراء والتجارات ، ومنها السير والاخبار ...»

(٥)

فلما انتهى القرن الخامس وقف الادب عند الشعر والنثر ، وتحدد معناه

الخاص بما يجري عليه الاستعمال اليوم ، وبما يقرب من معناه في القرن الاول، فقد أريد به مأثور الشعر والنثر .

أما المعنى العام فقد ضاق مدلوله بعد إخوان الصفا ، ولم يعـد الأدب يطلق على الفنون والصناعات وجميع العلوم غير الشرعية ، بل أصبح قاصراً على علوم اللغة العربية ، وإن لم يعين أحد هـذه العلوم حتى أواخـر القرن الخامس . فلما أنشئت المدرسة النظامية ببغداد ، وجعل لدراسة الادب فيها مكان جعلوا علوم العربية ثمانية : النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافي وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم : ثم جاء الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ فعرف علوم الادب بأنها علوم يحترز بها عن الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة ، وجعلها اثني عشر علماً بإضافة المعـاني والبيان والاملاء والانشاء الى علوم المدرسة النظـامية [1] ثم تتابع العلمـاء والأدباء وهم يختلفون في حصرها حتى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ وما زالوا يختلفون حتى عصرنا الحالي [2] .

---

(١) في أصول الأدب للزيات ص ١١ .

(٢) أصول النقد الأدبي للشايب ص ١٢ .

الفصل الرابع

أدبُ اللُّغةِ العربيّة

أدب اللغة العربية هو مأثور شعرها الجميل ونثرها البليغ المؤثر في النفس المثير للعواطف ، وما يتصل به مما يعين على فهمه وتذوقه ونقده من لغة وأخبار وأيام وأنساب ونحو ذلك مما قد تمس الحاجة إليه في فهم الأدب ، كالإلمام بأطراف من الفلسفة ومذاهبها والفلك والعقائد والنحل ، فإن مثل هذه الالوان من المعارف تتردد كثيراً في النصوص الأدبية كما في شعر أبي العلاء والمتنبي وغيرهما . والادب صورة الحياة ومرآتها ، تتمثل فيه جوانب النهضة، ومظاهر المدنية ، وأدوات الحضارة ، وألوان الثقافة ، ومرافق الحياة ، ونوازع النفوس لكل أمة من الأمم في كل عصر من العصور ، ولهذا يقول ابن خلدون : « الادب حفظ أشعار العرب وأخبارها والاخذ من كل فن بطرف [1] » .

---

(١) المقدمة ٤٨٨ – ويلاحظ أن هذا ليس تعريفاً للأدب بمعنى هذه النصوص التي ندرسها وننشئها وانما هو في الواقع تعريف لما يسمى التأديب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لانشاء الأدب وافهمه ونقده .

ويقول ابن قتيبة : من أراد أن يكون عالماً فليلزم فنـاً واحداً ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم .

وعلى هـذا النحو تجـد أمهات الكتب الأدبية كالأغاني والأمالي والكامل والعقد الفريد والبيان والتبيين .

تاريخ أدب اللغة ونشأته

١ — كان منهج المؤلفين من أدباء العربية في كتبهم ترجمة الأدباء والشعراء والعلماء ، ورواية آثارهم الأدبية ، ونقدها أو شرحها وتحليلها ، وقد يوازنون بينها وبين غيرها من الآثار ، مع الإلمام ببعض أصول الأدب والشعر ، ونحو ذلك مما نجده مبثوثاً مفرقـاً في كتبهم الكثيرة ، أو مجتمعاً قليلاً في بعض الكتب . وقد برزوا في هذه النواحي تبريزاً قوياً ظهر في كتبهم ، كوفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات للكتبي ، وبغيـة الوعاة للسيوطي ، ومعجم الادباء لياقـوت ، والاغاني لأبي الفـرج ، ويتيمة الدهر للثعالبي ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ونفح الطيب للمقري ، والعمدة لابن رشيق ، والمثل السائر لابن الأثير ، والمقدمة لابن خلدون ، والموازنة للآمدي وغيرها .

غير أن ما في هذه الكتب لايعـدو — في الجمـلة — أن يكون أخباراً مفردة غير مرتبطة ، لا تحدد عصراً من العصور ، ولا تصور الحيـاة الادبية قـوة وضعفاً في زمن من الازمنة ، ولا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصنعة والمذهب ، ولا تذكر ما عرا النثر والنظم من تحول وتقلب ، فهي أدب لا تاريخ أدب .

٢ — وجاء المستشرقون فجمعوا هذه المسائل المفرقـة ، واستمدوا منها

أصولا أعانتهم على بحث تاريخ أدب العرب على ضوء بحوثهم في تاريخ أدبهم فقد بحثوا عصور الآداب العربية ، وردوا إلى كل عصر آثاره الادبية ، وحللوا المؤثرات العامة التي أثرت في كل فترة قوة أو ضعفاً ، وعنوا بدراسة أعلام الادب وبيان مذاهبهم ، وما يكون من تأثير القديم في المحدث ، وما يكون من المشابه والفروق التي تباعد بين الشعراء والكتاب أو تقربهم ، وغير ذلك من الدراسات التي لم يعهدها أدباء العرب والتي نسميها نحن الآن « تاريخ الادب العربي » .

فتاريخ أدب اللغة إذن علم يبحث عن أحوال اللغة وآدابها ، ويصور ما يختلف عليها من رقي وانحطاط في مختلف العصور والاطوار ، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الصناعتين ونقد مؤلفاتهم وتأثير بعضهم في بعض بالفكر والصناعة .

وهو إذن علم حديث النشأة ، ابتدعه الايطاليون في القرن الثامن عشر ، وعني به المستشرقون في القرن التاسع عشر ، وقد ظل مجهولاً في الشرق حتى اشتد خلاطه بالغرب ، فكان أول من نقله اليه المرحوم الاستاذ حسن توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه في دار العلوم .

ثم تتابع المؤلفون على هذا النهج كالاسكندري في الوسيط وجورجي زيدان في (تاريخ آداب اللغة العربية) والرافعي في (تاريخ آداب العرب) والزيات في (تاريخ الادب العربي) وغيرهم من أساتذة الجامعة والازهر .

أما كتابا (الوسيلة الادبية) للمرصفي ، و (المواهب الفتحية) لحمزة فتح الله ، فهما على نهج الكتب القديمة ، وهي كما ذكرنا من كتب الادب لا من كتب تاريخ الادب . لأن الادب كما رأينا هو نفس النصوص الشعرية والنثرية ، وتاريخه هو العلم الذي يبحث في أحوال هذه النصوص وأطوارها والعوامل السياسية والاجتماعية والاقليمية التي أثرت فيها .

وهكذا نرى تاريخ الادب يتصل بالتاريخ العام من حيث حاجة كل منهما الى الآخر ؛ فالتاريخ السياسي يحتاج الى تاريخ الادب في استظهار بعض الصور الادبية التي تتصل بالاخلاق مما يعينه على تعليل التقلبات السياسية ونحـوها . والتاريخ الادبي يحتـــاج الى التاريخ السياسي في استنباط الصورة الادبيـة الصحيحة بما يعرضه الاخير من النظم السياسية والاجتماعية المؤثرة في الادب وفي حياة الاديب أو الشاعر ؛ فكلاهما متأثر بالآخر مؤثر فيه .

هذا ومؤرخـو الادب يقسمون عصور تاريخ الادب إلى أقسام ، حسب الخصائص الفنية لكل مجموعة من الآثار الادبية متأثرة بمؤثرات خاصة من النظم الاجتماعية والسياسية والدينية . وهذه الاقسام هي : العصر الجاهلي ويقدرونه بقرن ونصف قبل الاسلام ، وعصر صدر الاسلام من البعثة الى سنة ٤١ هـ ، والعصر الاموي من ولاية معاوية سنة ٤١ هـ الى سنة ١٣١ هـ ، والعصر العباسي من سنة ١٣٢ هـ الى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ثم عصر الدول المتتابعة حتى زمن محمد علي سنة ١٢٢٠ هـ ثم عصر النهضة الحديثة من محمد علي الى اليوم .

وهـــذا في الواقع تقسيم تقريبي مبني على مسايرة اللغة العربية للانقلابات السياسية والاجتماعية ، إذ الواقع أن هذه العصور متداخلة ، نظراً لأن هذه المسايرة تكون بطيئة وتأثر الادب بهذه الانقلابات يكون تدريجيا ، بعد أن تتشبع نفوس الادباء بالاحداث الجديدة .

الفصل الخامس

الادب الانشائي والوصفي

الأدب الانشائي :

هـــو ما تعبر به من شعر أو نثر عما تحس به من الخوالج والعواطف والخواطر نحو الطبيعة ، سواء أكانت هذه الطبيعة داخلية تحسها في نفسك وتجدهـا في قلبك ، متمثلة في عواطفك وميولك وأهـوائك ، أم خـارجية تراها في الجبال والبحار والسماء والنجـوم والرياض والاحداث المختلفة . فإذا هزك منظر من مناظر الطبيعة ، أو راقك مشهد من مشاهدها ، أو اختلجت نفسك بعاطفة من عواطف الحب أو البغض أو الرثاء أو الازدراء ، وصورت ما أحسسته وشاهدته تصويراً ملائماً للموضوع ، فإن هذا التصوير الذي يتمثل في شعـرك أو نثرك يسمى أدباً إنشائياً ، لأنك أنشأته بعـــد أن لم يكن ، وارتجلته مقلداً به الطبيعـة التي يظهر ابتئاسها وغضبها مثلا في عصف الريح وقصف الرعد واضطراب البحر ، ويتجلى ابتسامها ورضاها في ضوء الشمس وعرف الزهرة وتغريد الطائر .

وإذن فموضوع الادب الانشائي الطبيعة داخلية او خارجية .

الأدب الوصفي :

أما الادب الوصفي فهو ما يتناول القصيدة او الرسالة من الادب الانشائي بالوصف والنقد والتقريظ ، فيثني عليها ويطريهـا إن رضي عنها ، وينقدهـا ويعيبها إن سخط عليها . فهذ النقـد أو التقريظ لا يصور الطبيعـة تصويراً مباشراً ، ولا يصوّر تأثر صاحبه بهـا ، وإنمـا يصف الكلام الذي قيل في تصوير الطبيعة : فموضوعه إذن هـو الكلام لا الطبيعة ، القصيدة التي تصور البحر لا البحر نفسه .

فالادب الوصفي إذن هـو الذي نسميه نقداً ، ولا شك أنه وجـد بعـد الادب الانشائي ، وتستطيع أن تدخل فيه تاريخ الادب ، إذ كان مما يعالجه هذا التاريخ الموازنة والخصائص الفنية ونحوها .

وبهذا تستطيع أن تقسم الادب الوصفي الى قسمين : أحدهما النقد الذي يبين ما يمتاز به الادب الانشائي من المحاسن والعيوب ، والآخر تاريخ الادب وقد عرفت مهمته في بيان أحوال الادب وأطواره .

الأدب الذاتي والأدب الموضوعي :

الأدب الذاتي هو الذي يعبر فيه الأديب عن خواطـره ومشاعره وآرائه وأحاسيسه وتأملاته ، فالشعر الغنائي – وهو قسيم التمثيلي والقصصي – من الأدب الذاتي لأن الشاعر يتغنى فيه بعواطفه الذاتية وخوالجه النفسية وآماله وآلامه ، وليس معنى هذا أنه مجـرد من الصبغة الموضوعية ، بل معناه أن الصفة الذاتية هي الراجحة فيه .

والأدب الموضوعي هـو ما لا يعـبر به الأديب عن عاطفته أو ميوله الخـاصة ولا ينطق بلسان نفسه ، وإنمـا يعـبر به عمـا يجول بخواطـر

غيره فالادب التمثيلي والقصصي من الادب الموضوعي ، لأن الشاعر أو الكاتب إنما يعبر فيها عما يجول بخواطر الاشخاص الذين يتحدث عنهم ، ويعبر عن آرائهم وينطق بلسانهم ، فهو كالمؤرخ يسرد الحادث التاريخي في أسلوب بليغ دون أن يصبغ عباراته بنزعاته وميوله وآرائه الخاصة .

•

الفصل السادس

المَذَاهِبُ الأدبيَّة الحَدِيثَة

نحب هنا أن نعرض في إيجاز لأشهر المذاهب الادبية والنقدية التي نشأت في أوربا ، فمازت الادب الغربي بسماته المختلفة ، ثم انتقلت إلينـا فأثرت في أدبنا المعاصر ، وتأثر بها أدباؤنا ونقادنا تأثيراً كبيراً ، فقد أصبح من واجب مؤرخ الادب الحديث ودارسه أن يعرف هذه التيارات المختلفة التي توجـه الادب ، وتغمر الادباء ، وتؤثر في الافكار والعقول والمشاعر ، ليكون حكمه على الادب حكماً سليما بعيداً عن الخطأ والقصور ...

ولسنا بصدد تعمق هـذه المذاهب والتيارات أو حصرهـا ، فمـا يزال الغربيون يطالعوننا في كل يوم بمذهب جديد ، فبحسبنا أن نعرض لمحـة لأهم هذه المذاهب وخصائصها مما تأثـر به أدبنا الحديث .

المذهب الكلاسيكي :

كلمة كلاسيك مشتقة من الكلمة اللاتينية (كلاسوس) ومعناهـا الطبقـة العليا من الشعب في روما القديمة ، وقد نسبت الى هذه الطبقة المترفة طبقـة

الادباء والشعراء أصحاب الادب الرفيع الممتاز ، وصارت كلمة (الكلاسيكي) تدل على ما يحتذى من شعر رائع وأدب رفيع .

وقد نشأ المذهب الكلاسيكي في اليونان ، حيث ظهرت أقسام الشعر الثلاثة الغنائي والتمثيلي والقصصي للمرة الاولى في الادب اليوناني ، ثم أخذ الرومان يقلدون هذا الادب ، فترعرع هذا المذهب عندهم ، ثم ظهر عند الاوربيين في القرن السابع عشر ، حينما أخذوا في عهد النهضة يدرسون الاصول اليونانية ، فتأثرت آدابهم بها كل التأثير . وأطلق على هذا الادب اليوناني واللاتيني القديم اسم « الادب الكلاسيكي » أو التقليدي أو الاتباعي أو السلفي ، وسمي العهد الذي تأثر فيه الاوربيون بأدب اليونان والرومان والتزموا طريقتهم « العهد الكلاسيكي » .

وطبقة الكلاسيك في الادب هم أولئك الكتاب والشعراء القدامى الذين أحرزوا ثروة أدبية ترفعهم الى الذروة ، وتجعلهم قدوة يحتذى بها . ويمتاز الادب الكلاسيكي بقوة الروح الأدبي ، وسمو التفكير ، وروعة الصياغة وإتقانها ، وبلاغة اللفظ ، واتزان العاطفة والخيال . والفن الكلاسيكي يهدف الى جلال الخلق ، وسمو الغاية ، ولكن الشخصية تختفي فيه أو تكاد ، لأنه مبني على الاحتذاء والتقليد ، فليس للأديب أن يساير عاطفته الفردية ، أو يجاري الخيال الكاذب . ومن ثم فإنه لا ينطبق تماماً على الأدب الغنائي لأنه ذاتي بطبيعته .

وكثير من شعراء العربية كلاسيكيون ينزعون الى تقليد القدامى من الجاهليين كامرىء القيس وغيره في المنهج والصياغة والاسلوب ، ومن شعراء الكلاسيك في العصر الحديث البارودي زعيم هذا المذهب ، وحافظ وشوقي والجارم وعبد المطلب والهرادي والزين والاسمر وغنيم ونحوهم ... يقول البارودي زعيم المقلدين :

سواي بتحنان الاغاريد يطرب　　وغيري باللذات يلهو ويلعب
وما أنا ممـــن تأسر الخمر لبه　　ويملك سمعيه اليراعُ المثقَّبُ

فيحاكي الشريف الرضي في قوله :

وقورٌ فلا الالحان تأسر عزمتي　　ولا تمكر الصهباء بي حين أشرب

ويقول البارودي :

ذهب الصبـــا وتولت الايام　　فعلى الصبا وعلى الزمان سلام
نلهو ونلعب بين خضر حدائق　　ليست لغـــير خيـولنا تُستام

فيقلد أبا نواس في قصيدته :

يا دار مـــا فعلت بك الايام　　لم تبـــق منك بشاشة تستام

وهكذا كان شوقي في كثير من قصائده كنهج البردة مثلاً .

المذهب الرومانتيكي[1] :

وفي أواسط القرن الثامن عشر هزلت الروح الأدبية بسبب ضعف العقيدة الدينية ، وانطلاق النفوس على سجاياها ، والمغالاة في الايمان بالعلم والمدنية ؛

---

(١) رومانتيكي نسبة الى رومان وهم شعوب بادية كانوا يسكنون في الشمال الغربي من أوربا في الجبـــال والغابات لا هم لهم إلا الغـزو والفروسية ، فلمـا انتشرت المسيحية فيهـا امتزجت الفروسية بالأغراق في التدين والانغماس في الطبيعـة ، فنشأ عن ذلك أدب أولـع بالابد والغيب والخارق المعجز ، قوامه تدفق الشعور ، وجمـوح الخيال والاحلام البعيدة ، فلما استقرت هـذه الشعوب في الأقاليم والمقاطعات فتر هذا الشعور وظهر المذهب الكلاسيكي فتأخرت الرومانتيكية حتى أتيح لها النهوض في منتصف القرن الثامن عشر .

فلم يكن بد من أن تظهر بوادر « الرومانتيكية » أوالابتداعية أوالتجديدية، كثورة على النهج القديم ، وتحرر من قيوده ؛ وأطلق على هـذا العهد الجـديد الذي تحرر الادباء فيه من القيود القديمة « العهد الرومانتيكي » أو الرومانطيقي أو الرومانسي .

ومن أهم خصائص الرومانسية التمـرد على القـــديم والميـل الى الابتكار والتجـديد ، والنزوع الى التجـارب الذاتية ، والتبرم بالمجتمع ، والضجر من الواقع ، والانطلاق وراء البدوات والخيال ، والهروب الى الطبيعة ، والاهتمام بمشاهدها ، والتحدث عن النفس ومشاعرها وانفعالاتها ، والخروج على الأدب القديم من حيث المصدر والمنهج والاسلوب . وقد تناول هذا المذهب الحياة أيضاً ، فقد طبع أهله بطابع الذاتية والتأملية والروح الصوفي والميل الى الرضا بالبؤس ونداء الموت ، بل الفزع الى الموت أحيانا .

ومن الطبيعي أن يكون أدب هذه المدرسة غنائياً لأنه ذاتي يحفل بالشخصية وظهورها على عكس المدرسة الكلاسيكية .

ومن شعراء هـذه المدرسة في فرنسا : لامـرتين ، وفيكتور هوجـو ، والفـريد دي موسيه وغيرهم . وقـد ظهرت الرومانسية وأثرت في كثير من شعراء الشرق ، فهناك ملحمة تسمى (شاطىء الأعـراف) للشاعر المصري الهمشري ، وأخـرى تسمى (على بساط الريح) لفـوزي المعـلوف ، وهما يمثلان الهـرب من الواقع ، والفـرار من حيـاة الناس ، كما يقـــول المعلوف في ملحمته :

لا تخافي يا طـــير مـــا أنا إلا   شاعر تطـرب الطيـور لشعـره
فرّ عن أرضـه فرارك عنهـا   من أذى أهلها وتنكيل دهره

وعلى هذا النحو تجد « الشاطىء المجهول » لسيد قطب الذي يقول :

إلى الشاطىء المجهول والعالم الذي   حننت لمرآه إلى الضفة الاخرى

ويقول المعلوف في نداء الموت :

والآن يا مـــوت إليّ اقترب   يا مرحبـــاً بالموثق المعتـــق
معتـق نفسي من قيـود الاسى   موثق جسمي في المدى الضيق

وتجد في هذه المدرسة شعراء الطبيعة الذين عاشوا بخيالهم المجنح في أحضانها كأبي القاسم الشابي الذي يقول :

يا صميم الحيـاة كم أنا في الدنـ   ـيا غريب أشقى بغربة نفسي
في وجـــود مكبل بقيـود   تائه في ظـــلام شك ونحس
فاحتضنني وضمني لك بالمـا   ضي فهـــذا الوجود علة يأسي

ومن شعراء هـذه المدرسة غـير هؤلاء إيليا أبو ماضي وخليل مطران وعلي محمود طه .

وبعد فهـل يمكن تطبيق الكلاسيكية والرومانسية على أدبنا العـربي كل التطبيق ؟ الحق أن هذا التطبيق لا يعدو أن يكون اعتباريا فقط وعلى وجه العمـوم ، فبالرغم مما قيل في تحـديد هـــذين المذهبين عند الغربيين ، فإنهما لاينفصلان عن بعضها تمـــام الانفصال ، بل إن كل المذاهب الادبيـة ليست مستقلة بل هي متداخلة ، فإن الرومانتيكية قـد تستعين بالواقعيـة في بعض الأحيان ، كما أن الكلاسيكية قد تستجيب إلى الواقعية مغفلة أحلام الرومانتيكية

وخيالاتها المسرفة ، وقـــد عنيت الرمزية بتسجيل المشاعر والتأملات الفردية كالرومانتيكية وإن خالفتها في طريقة التعبير ، كما أن المذهب العصري الحديث (المودرنزم) السائد في أمريكا مزاج من السريالية والواقعية .

فالمذاهب الادبية المختلفة أثر من آثار الحالات الفكرية والشعورية ، وهذه الحالات الشعورية تختلف وتتعاقب وتتداخل في فترات مختلفة ، فكل ما ينجم عنها كذلك . وإذن فـــلا يمكن أن يستقيم مذهب أدبي لشاعر بعينه ، بل يستقيم لغالبية شعره وما يستخلص من ميله النفسي وذوقه الفني . والحق أن أدبنا العربي في مجمل حالاته مزيج من هذين المذهبين .

فإذا نظرنا الى أن الكلاسيكية مذهب محافظ يعتمد على الاعتزاز بالقديم ، كان امرؤ القيس زعـيما للمذهب الكلاسيكي التقليـدي في الادب العـربي ، باعتباره شيخ الشعراء واعتبار منهجه في القصيدة وأسلوبه في التعبير الدعامتين اللتين عليهما قام المذهب المحافظ في شعرنا العربي . وكان من أصحاب هـــذا المذهب طرفة ولبيد والأعشى وغيرهم من شعراء الجاهلية وغير الجـاهلية ممن حافظوا على عمود الشعر العربي كالبحتري أو كونوا مدرسة تقليدية كالبارودي . وشعر شوقي مزيج من الكلاسيكية العميقة والرومانتيكية الخفيفة والواقعية المحـدودة . وتظهر كلاسيكيته في مثل « نهـج الـبردة » التي سار فيهـا على طريقة القدماء .

أما أمثال بشار وابن خفاجة الأندلسي وابن المعتز ومهيار في خروجهم على أساليب العرب المخصوصة وإطلاقهم الشعر من قيـــود الصناعة ، ومثل أبي نواس في ثورته على الأطلال ووقوف القدامى بها وطرقه موضوعات كان القدماء يخشون طرقها ، فهم من أصحاب المذهب الرومانطيقي التجديدي .

وإذا لاحظنا أن من خصـائص الكلاسيكية التجـرد من الشخصية وأن موضوعاتهـا الملاحم التمثيلية والقصصية ، وأن موضوع الرومانتيكية الشعر

الغنائي الذي تظهر فيه الشخصية .كان الشعر العربي– وهو غنائي في جملته – من الادب الرومانتيكي . ومـا كان منه تقليدياً لا يصدر عن عـاطفة صادقة كالغزل الصناعي الذي تفتتح به القصائد من الادب الكلاسيكي . ومن هنا نرى أن الشعر العربي بل وانتاج كل شاعر عربي مزيج من المذهبين .

وها نحن نرى في شعراء الشرق المحدثين ألوانا متداخلة من المذاهب الادبية دون وعي منهم، فالشابي تراوح شعره بين الكلاسيكية والابتداعية والواقعية ، وكذلك أبو شادي ومحمود اسماعيل له ناحية كلاسيكية في تعبـيره ، وناحيـة رومانتيكية في موضوعاته ، وناحية سريالية في مزاجه .

المذهب الواقعي

غالى الابتداعيون في مذهبهم ، وأسرفوا في اطلاق خيالهم المجنح ، حتى انتهوا بالمغالاة الى المستحيل الذي يخرج عن الحقيقة والواقع ، حتى سمي هذا التطرف الشديد في مذهبهم « المثـالية » لأنه من وحي الخيـال لا من وحي الحياة ، فالمثالية تصوير خيالي للحياة والانسانية لا كما هي في الواقع والحقيقة، بل كما يجب أن تكون .

ولمـا كانت الطبيعة البشرية يضنيهـا الشرود ، وترهقهـا ملاحقة الخيـال والأوهام ، كان مذهب « الواقعية » الذي جاء في أعقاب الرومانتيكية بمثابة رد فعل لم يكن منه بد . وهذا المذهب ينكر الانطواء والانكماش والتحليق في أجواء الخيال، والاستغراق في الأحلام والشرود ، ويدعو الى تصوير الحياة كما هي في الواقع لا كما يجب أن تكون ، ويفتح ذراعيه لدنيـــا الناس وعالم الحيـاة ومـا يموج به من آلام وأفراح وأشواق وآمال وفورات ، وينـادي بمشاركة الادب للمجتمع مشاركة فعالة ، بعد اطراح الفردية والأوهـام . فهو إذن مذهب ينكر نظرية « الفن للفن » ويدعو الى أن يكون « الفن للحياة » يتفاعل مع حقائقها ويكون في خدمة المجتمع والانسانية .

ويعتمد هذا المذهب على قوة الملاحظة ودقتها والبراعة في تصوير الحقيقة والواقع ، حتى لايخرج ألواناً باهتة ؛ ولذلك دعا بعضهم إلى وجـوب الاعتماد فيه على الطب والتجربة لا على الملاحظة والتصوير ، وسماه المذهب الطبيعي ، واكتفى البعض الآخر بالواقعية مضافاً إليها الاعتماد على عـلم النفس في تحليل العوامل الحاملة على مسلك معين ، أو الصارفة عنه .

والادب الواقعي يتناول الانسانية جماعة وأفراداً ، فينظر فيهم إجمالاً ، ويتتبع مسلك كل فرد على حدة ، فيبحث في أخلاقه وميوله والعوامل المؤثرة في سلوكه ، حتى يستطيع النـــاس أن يستبينوا أنفسهم ، ويلمسوا مواطن ضعفهم وقوتهم ، وما يتبع ذلك من فهم الحياة ضيقاً واتساعاً .

ولهذا المذهب في أوربا أنصـار وأتبـاع يعبرون في شعرهم عن حاجـات البشرية في سهولة ويسر . . . وكثير من شعراء الشرق اتجهوا هذا الاتجـاه الواقعي ، ولهم نفثات متفاوتة في النوع والاتجاه ، فمنها ما غلب عليه اللون القومي أو الاجتماعي ، ومنها ما غلب عليه الاتجاه العام أو الانساني : يقول إلياس قنصل في الواقعية والثورة على الواقع :

أنرضى بالهـوان ونحـن قـوم ... مـلأنا صفحة التـاريخ فخـرا
بلينا بالتخاصم وهـــو داء ... عُضالٌ ينخر الاخلاق نخرا
فأنهكنا وغادرنا شعـــوباً ... ممزّقـــة تجر الغــــل جرا
ونحن أمـــام غاصبنا سجود ... ننفـذ أمـــره سرّاً وجهرا

ويقول محمود الحبوبي العراقي يخاطب الحرية :

طال انتظارك فاطلعي لتري ... عيشاً بـــلا ملل ولا سأم

والموت للأحرار أطيب من   عيش العبيد وذلة الخدم
نام الطغاة وها هنا وهنا   مقل من الارهاب لم تنم

ويقول الشاعر السوري نذير الحسامي :

أنا للكوخ وللسرداب لا للقصر فني
ولخفقِ الريح في الأسمال ترجيعي ولحني
لاحتضار النور في ليل المساكين أغني
ولأنّات الحزانى أهدم الدنيا وأبني

وهكذا يخرج شعراء الشرق الواقعيين من حياة الانكماش والعزلة الى هذا التجاوب الحقيقي مع الاحداث القومية والاجتماعية ، فلا يرون الشعر متعة وتحفة لا هدف له إلا أن ينقلنا الى عالم أسواره النجوم .

والقصة العربية في مجملها ترجع الى الواقعية في تصوير الحياة الصحيحة ورسم بيئاتها ومشاهدها ونحو ذلك :

المذهب الرمزي :

الرمز شيء مألوف معروف من قديم الزمان ، يضطر اليه عند العجز عن الافصاح في التعبير ، وما أحلام النوم إلا قصص رمزية لما يشغل النائم من أحداث الحياة وخوالج النفس في اليقظة ، وكذلك كان الرمز بالشخوص والرسوم إلى المعاني قبل أن يعرف الانسان الحروف الأبجدية ، رمز المتصوف الذي لا يستوضح المعاني التي تجيش بها نفسه في حالات الغيبوبة والذهول . .

وهكذا نعرف الرمز ضرورة يلجأ إليها عند العجز عن الوضوح .

ولكن الرمزية التي نتحدث عنهـا ، والتي ظهرت في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر، إنما كانت مذهباً مطلوباً لذاته، فلو تهيأ لشعرائها عبارتان تؤديان المعنى لفضلوا الأغمض على الأوضح، ولو كان الوضوح أجمل في اللفظ، وأقرب الى البديهة ، وأثبت في الافهام .

فالشعر عندهم هو الفكرة المجردة التي ترسب في نفس الفنان ليعبر عنهـا في صورة ضبابية تبعدها عن ابتذال الوضوح ، وتستقر بها في منطقة الظلال والزوايا الغامضة في النفس .

كان الشاعر لامرتين يقول « إنني أنظم الشعر كما يزهر الغصن ويغني الطائر »، ولكن الشعراء الرمزيين—وأولهم مورياس ومنهم رامبو وبول فاليري وغيرهم— سخروا من هـذا المذهب ، كما سخروا من شعراء الرومانتيكية في التجـائهم للطبيعة . ذلك لأن الشعر الرمزي يعتمد على الايحاء، فتسترسل نفس القارىء سابحة في فضاء غريب من الخيـال نصفه مضيء ونصفه مظلم ، فإذا اكتشفت الحقيقـة فرحت بلذة الاكتشاف ، ولذلك قـالوا : « على الشاعر ألا يعرض الحقيقة للنور الشديد ، بل يجب عليه أن يضعهـا خلف أستار من الضباب ، لأن الوضوح ابتذال ، وفي الغموض رحابة وخيال » .

ولقد طرق كثير من نقاد العرب هذه الفكرة فدعا بعضهم إليها ، وحمل بعضهم عليها ؛ فقد كان الصابي الكاتب المشهور يقول : « أفخر الشعر ما غمض عنك فلم يعطك إلا بعد مماطلة منه » . ولكن الجاحظ كان يشيد بالوضوح ويؤثره ، أما عبد القـاهر فقد كان يرفض الغموض الذي ينشأ عن الخطـأ في الأسلوب أو النظم ونحوه ، ويقبل ما كان سببه دقة الفكرة وعمقها ، وهو الذي يقول : « من المركوز في الطبـع أن الشيء إذا نيـل بعد الطلب له ،

والاشتياق إليه ، ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى[1] . » ، ويقول كذلك : « فإنك تعلم على كل حال أن هذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلا أن تشقه عنه ، كالعزيز المحتجب لايريك وجهه حتى تستأذن عليه .. [2] » .

فأدب الرمزية أدب انطباعي يقتضي التـأمل العميق لتفهمه ، وهو يدين بعبادة الجمال ، ويهيم بالتصوف ، ويحفل بتجارب العقل البـاطن ، وتجاربه الموضوعية موزعة بين الحلم واليقظة والنوم والوعي والأرض والسماء ، وأغلب هذه التجارب ذاتية لا تدخل السياسة ولا حقائق المجتمع في نطاقها إلا نادراً، ومعظم هذه التجارب يلفها الغموض ، فوحدتها مقطوعة ، وصورها خاصة ، لا يرى القارىء من خلالها الفكرة ، وموسيقاها شفافة رقاقة غالباً ، لأن هذا النوع من الشعر يجعل الموسيقى هدفاً من أهدافه .

وموضوعات القصائد عند الرمزيين خفية المقصد ، غائمة المعنى ، تستعصي على أشد الناس ذكاء وفطنة ، ولا يفهمها إلا أصدقاؤهم . فهذا بول فاليري في قصيدته « الخطوات » يخاطب سيدة ويتحدث عنها وينتظرها وهـو يعني بها « إلهة الشعر » ويتحدث عن الحية ويعني بهـا الشهوة أو الرغبة العـارمة ، وبعضهم يتحدث عن امرأة وهو يعني « القط » أو عن الوردة وهو يعني الوطن .

ولهم كذلك طريقتهم في الصور والكلمات يجددون في اختيارهـا بطريقة طريفة ، يقولون مثلاً « الصمت البخيل » ويصورون النفس القلقة بالغـابة الذاوية يصرخ بها الطير ، ومن تعبيراتهم « الروح في رداء أزرق » ، والقلب في

---

(١) ١١٨ أسرار البلاغة .

(٢) ١١٩ وما بعدها أسرار البلاغة .

رداء أحمر راعش[1] » .

والمذهب الرمزي أصول في أدبنا العربي القديم عند أمثال الحلاج والجنيد والخيّام وابن الفارض وغيرهم من شعراء الصوفية الذين يعبرون عما يحسون من أنوار المعرفة وأشواق الروح ، في أحوال التجلي والتواجد ، بما لا يظهر لغيرهم من الألفاظ والموضوعات ، بحيث لا يفهمهم إلا من كان في مقامهم ، أو غلبت عليه حال من أحوالهم .

ويمتاز الادب الصوفي بأنه يفهم مظاهر العالم على أنها رمز ، فالعالم كأحلام النائم ، ويمتاز بأنه جمال مقنع تدركه ولا تلمسه . وقد استعمل الصوفيون ألفاظ الشعراء الخليعين من ليلى والخمر والوصل والعناق والهجر ونحو ذلك ، واتخذوها رموزاً لأحوالهم ومقاماتهم ، ونظروا للعالم فسموا الحقيقة ليلى وسعدى ، وأعجبوا بالخمر ورأوا فيها معاني ليست في غيرها ، فهي رمز الى رقي النفس وتساميها ، فالنفس ترقى بالفناء في الحقيقة كما تنشأ الخمر بفناء العنب ، فيكون شيء من شيء .

يقول ابن الفارض :

فمن لم يجد في حب (نُعم) بنفسه ولو جاد بالدنيا إليه انتهى البخل
جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي فأصبح لي عن كل شغل بها شغل

ويقول في وصف ما أداره الله على لبه من المعرفة والشوق والمحبة ، حتى أحسن لذة استجلاء الحقيقة ، وكأنها نشوة راح ، وما هي إلا الخمر المقدسة ، وشراب المحبة الإلهية الناشئة عن شهود آثار الأسماء الجمالية للحضرة العلية ،

---

(١) راجع الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتي .

فإنها توجب السكر والغيبة عن جميع الأعيان الكونية :

شربنا على ذِكر الحبيب مُدامةً
سكرنا بها من قبل أن يُخْلَقَ الكَرْمْ
إذا خطرت يوماً على خاطر امرىء
أقامت به الأفراح وارتحل الهم
ولو نضحوا منها ثرى قبر ميت
لعادت إليه الروح وانتعش الجسم
ولو طرحوا في فيء حائط كرمها
عليلاً وقد أشفى لفارقه السقم
ولو خضبت من كأسها كفُّ لامس
لما ضل في ليل وفي يده النجم
صفاء ولا ماء ، ولُطفٌ ولا هوا
ونور ولا نارٌ وروحٌ ولا جسمُ

وبعد فقد لوحظ أن الرمزية الأوربية تطرفت كثيراً ، وأمعن شعراؤها في الغموض ، حتى ابتدعوا لغــة في اللغــة ، ليستطيعوا التعبير عن (الوعي البــاطن واللاوعي) . ثم اندفعوا إلى رمزية أبعد في التطرف والجموح ، حتى انتهوا إلى المدرسة التي تسمى (مــا وراء الواقع) وهي مدرسة غــامضة ،

تترجم الرموز بالرموز ، والألغاز بالألغاز حتى كانت جديرة بأن يضيق بها الناس ويسموها مدرسة الهبوط والانحدار .

وقد تأثر بمذهب الرمزية كثير من شعرائنا المعاصرين سواء من ناحية الموضوع وهو قليل ، أو من ناحية الصور والكلمات وهو كثير ، أو من ناحية الرنين الموسيقي ..

ويمكن أن تعد قصيدة إيليا أبو ماضي « الطين » التي يدير فيها محاورة بين غني متكبر وفقير وديع من القصائد الرمزية ؛ وكثير من قصائده كذلك ؛ ومثله أبو شادي ، ويقول الشاعر السوري نزار قباني في قصيدته « وشوشة » :

وَشْوَشَةٌ كريمةٌ سخيَّةُ الظـلالْ
ورغبةٌ مبْحوحة أرى لها خيـال
على فم يجوع في عروقـه السؤالْ
مخدّتي طـافيةٌ على دم الزوالْ

فنجد طائفة من الصور والكلمات الرمزية العجيبة ، ويقول في قصيدته « الضفائر السود » الحافلة بالموسيقى العذبة :

يا شعرهـا على يدي شـلال ضوء أسـودِ
ألمسـه سنـابلاً سنـابلاً لم تُحصَدِ
لا ترُبطيه واجعـلي على المسـاء مقعـدي

مِن عُمرنا على مُخـــدا　　ت الشّذَا لم تَرْقُـــدِ
وحـــرَّرتْه من شريـ　　ط أصفـــرٍ مُزَغْـزَد

ويقول الدكتور بشر فارس في قصيدته « الذكرى » التي يرمز فيهـا الى الحب .

وَرْقَةٌ جفّت على غصن ذوى　　فزع العصفور منها فانزوى
عبث الطل بهـــا ثم ارعوى　　نَبذتْها الريحُ في عرض الفضا

ويقول في قصيدته « رحلة خابت » :

أمـــا سمعـــتم معي　　صوتاً صريعَ النغمْ
تلفظـــه أضـــلعي　　مُنخلعـــاتِ الهممْ
واضحـــة المطمـــع　　من يأس شوق فُطمْ

ويرمز الصافي النجفي رمزاً موضوعياً الى الديمقراطية فيقول :

ألا ياحبذا عيش الإخاء　　لاعشاب نبتن بجنب مـــاء
فنبت يستظـــل بظـــل نبت　　ونبت مستظـــل بالسماء
فلا هـــذا دنا للأرض ذلاً　　ولا ذاك استطال بكبرياء
فهم في الخلق مختلفون شكلا　　ولكن عائشون على السواء

المذهب السريالي :

نزعة متطرفة كل التطرف ، تؤمن بالحرية المطلقة ، والخروج على كل عرف وتقليد ، وهي في الادب تنفرمن موضوعات الفكر الجارية ، وتحقر الأساليب السائدة في اشكالها وصورها ومجازاتها وكلماتها ، وتسخر من العقل ومنطقه ، وتستمد إلهامها من الأحلام والرؤى ودفعات اللاشعور ، وهي نزعة فرنسية أوحى بهـا لوتريامو وريمبو (مدرسة ما وراء الواقع) ، وشعراؤها يترجمون عن أنفسهم لا عن الدنيـا التي حولهم ، ويسبحون في آفـاق جديدة لا عهد للأجيال بها فالحكة الجارية عندهم خبزمتعفن والقناعة بغية رخيصة ، والكال المألوف ، ولا إنتاج بغير حرية مطلقة بل هوس وجنون . وتجاربهم مستلهمة من الحلم ومن اللاشعور ، وتأدية هذه التجارب لا ضابط لها فالمعـاني والأخيلة تسير سيراً حلزونياً مضطرباً كنفسية الشاعر المضطربة ، والتوافه دنيا ضخمة معقدة التراكيب . فالناقوس الكبير في البرج العـالي امرأة ترقص ، وذراع الرجل الممتدة تمسك السحابة المستديرة ، والسحابة المستديرة هي ثدي المرأة ، والارض زرقـاء كالبرتقـالة [1] . وهكذا يبدو اضطرابهم ، ويتجلى هوسهم ذلك الذي يخلق الفن الشعري في اعتقادهم . وهم لا يحفلون بالإيقاع الموسيقي ولا نظـام الكلمات ولا التقفية ، بل كل همهم منحصر في أن يأتي القصيد عفوياً محضاً .

يقول الشاعر الانجليزي السريالي دافيد جاسكوين في قصيدته « دفاع عن الانسانية » : « إن وجـــه الهوة مسود بالمحبين ، والشمس من فوقهم حقيبة مسامير . وعند الربيـع الأنهار الاولى تختفي بين شعورهم ، وجولياث — المارد الجبـار — يغمس يده في البئر المسممة ، ويحني رأسه ، ويحس قدمي تخترق مخه ... » وهكذا لا تستطيع أن تفهم شيئاً كلياً أو جزئياً .

---

(١) الشعر المعاصر للسحرتي ص ١٤٠ وما بعدها .

وقد تأثر بعض أدباء الشبـاب في الشرق بهذه النزعـة منهم كامل أمين ، وكامل زهيري وفؤاد كامل وكامل التلمساني ورمسيس يونان وجورج حنين ؛ يقول كامل أمين في قصيدته « ذكريات ليالي الشتاء » :

لقــد كان ذلك في ليـــلة مسهَّدة من ليـــالي الشتاءْ
خرجتُ من الحان أبغي الطريق إلى حيث يُلقي بطيشي القضاءْ
ومن عادة الفوضويِّ الحياةُ طليقــاً كما شاء أني يشاءْ

الخ . . . .

المذهب الوجودي :

وأخيراً فهذه هي أهم المذاهب الأدبية الحديثة ، وما يزال الغرب يطالعنا في كل يوم بمذهب جديد ، فهناك « المذهب الوجودي » الذي اشتهر في فرنسا، والذي يعد « جان بول سارتر » رائده الأول ، ويقوم على أن الانسان حر في كل شيء عدا ألا يكون حرا ، ولذلك فالانسان غير مقيد بقـانون يحـد من حريته ؛ إنه ذاتي فقط يختار ما يعمل . والانسان المفرد هو وحدة الجمـاعة والاصل في الوجود ؛ فهذا المذهب ينهض على تمثيل ذاتية الانسان وحقه الحر في التفكير كما يشاء وباللغة التي يريدها .

وثمة مذهب عصري حديث سائد في أمريكا هو « المودرنزم » وهو مزاج من السريالية والواقعية ، مـع توكيد المعنى المقصود بالتكرار اللفظي وإرسال النفس على سجيتها ... الى غير ذلك من المذاهب .

نستخلص من هذا العرض أن المذاهب الادبية المختلفة — كما يقول الاستاذ مصطفى السحرتي — آثار للحالات الفكرية والشعورية ، تبرزهـا حالة العصر

الاجتماعية ، فالدوافع والانفعالات الأولى تقود الى الابتداعية ، وحاسة الحقيقة والشعور بالمسؤولية يقود الى الواقعية ، وحب التقليد والنظام يقود الى الكلاسيكية ، وحالات الشعور الشاذة وحالة العصر المبلبلة تقود الى المذاهب الغربية كالرمزية أو السريالية أو الوجودية وما اليها .

مذاهب النقد الحديثة :

وقد تحدثنا عن عناصر الادب ، وما ينبغي أن يتوفر للنص الأدبي من أركان ومقومات هي مقاييس النقد عند المحدثين من النقاد . ونحب هنا أن نجمل مذاهب النقد الحديث التي تقوم على هذه المقاييس تبعاً لما عرفنا من المذاهب الأدبية . ويمكن تقسيم المذاهب الجارية الآن على وجه العموم الى ثلاثة .

أولاً : المذهب الفني : وهو المذهب الذي يقيس العمل الفني بروحه وصدقه وأسلوبه ، دون اهتمام بموضوعه أو نحوه أو صرفه .

فالمهم ، في القصيدة الانفعال والخيال والمعنى والموسيقى والصياغة والاسلوب ، وما عدا ذلك من الموضوع أو اللغة لا ينظر اليه اصحاب هذا المذهب : فالقيمة الفنية لكل قصيد تنحصر في تواؤم تجربته الشعرية مع صياغة هذه التجربة .

ثانياً : المذهب الواقعي أو الاجتماعي وهو يتفق مع المذهب الفني في النظر الى التجربة والصياغة والخيال ، ويزيد عليه النظر في الموضوع ؛ فإن كان الموضوع لا يهتم بالحياة وأحداثها ، وآلام الناس وآمالهم فهو فن رديء ، لا غاية له إلا التسلية والترفيه ، والفن الجيد هو الذي يخدم المجتمع والحياة الانسانية ؛ أما فن الأوهام والاحلام فهو متخلف منزو لبعده عن واقع الحياة ودنيا الناس .

ثالثاً : المذهب الفقهي أو المدرسي : وهو الذي ينظر في الشعر إلى نحوه وصرفه وعروضه وبيانه وبديعه ، وأحياناً الى معانيه ، وهو النقد الذي سار عليه معظم النقاد القدماء من قرون ، ولا يزال موضع اهتمام بعض نقادنا اليوم .

كان ابن سلام الجمحي يضع الشعراء منازل وطبقات بحسب كثرة انتاجهم أو قلته ، غير ناظر الى الخصائص الفنية ، وإنما يعتمد على التذوق الذاتي .

وكان قدامة بن جعفر وابن قتيبة يهتمان بالصياغة الشكلية ، وقد رأينا ابن قتيبة يخرج « ذا الرمة » من الفحول لعدم احسانه المديح والهجاء .

وكان نقد ابن الأعرابي وحماد يدور حول فقه اللغة . والآمدي يفضل البحتري على أبي تمام لألفاظه المتخيرة .

ويقول الدكتور مندور : « إن الآمدي من أكبر نقاد العرب وأصدقهم ذوقاً ، وإنه هو وعبد القاهر وأمثالها من ذوى الحذق والذوق قد وصلوا إلى ما وصل إليه (لانسون) عميد النقد في فرنسا [1] » .

وكان ابن العميد والصاحب بن عباد وأمثالها ينظرون الى الرنين الموسيقي والاوزان ومطالع القصائد . أما ابن الأثير فيحصر اهتمامه في الألفاظ وأسرار تركيبها .

وهكذا نرى المذهب الفقهي ، تارة يعتمد على الذوق ، وتارة يتجه الى اللغة أو العروض ، وتارة الى الألفاظ ، وهو على كل حال لا ينظر الى التجربة الشعرية ولا الى الموضوع كما رأينا في المذهبين السابقين .

---

(١) الميزان الجديد للدكتور مندور .

ومع ذلك فلا يزال لهذا المذهب أنصار في هـــذا العصر ، يضعون اللغة والوزن والبيان والبديع موضع الاعتبار ؛ وقد يضيفون اليهـــا الاعتبارات الاخرى التي أشرنا إليها في المذهبين السابقين .

وهذا ما ينبغي أن يكون ، فالحق أن النـاقد البصير يجب أن يجمع بين هذه المذاهب كلها عند نقد النص الأدبي ، ليكون حكمه سليما صحيحاً .

•

الفصل السابع

العوامل المؤثرة في الأدب

عرفنا أن الادب مظهر من مظاهر الحياة الانسانية ، وتسجيل لأحداثها وأحوالها ومشاعرها وخواطرها ، يخضع لما تخضع له ، ويتأثر بما تتأثر به ، لأنه التعبير الصادق عما تضطرب به النفس من مشاعر وخواطر وأخيلة ، وهذه المشاعر والخواطر والأخيلة تتأثر بعوامل الطبيعة وأحوال العيش وأنواع العقائد وأطوار المجتمع وتقلبات السياسة ونحو ذلك ؛ فالادب صورة اقليمية، والاديب ابن بيئته . وإذن فمن واجب مؤرخ الأدب أن يعرف هذه العوامل، لأنها تعينه على فهم الادب وتذوقه ورده الى أصوله وتفسيره ، كما أن من واجب دارس الادب أن يضيف الى الالمام بذلك المؤثرات الخاصة التي لابست حياة الاديب الشخصية ، ووجهت مذهبه ، ولونت مزاجه وتفكيره .

فمن أهم العوامل التي تؤثر في الادب بوجه عام .

أولاً : الاستعداد الفطري : فليس كل انسان يتأثر بما يحيط به ،

فيصور تأثره في الشعر أو النثر ، وانما يستطيع ذلك من رزق صفاء الطبع ورقة الشعور ودقة الاحساس ، وموهبة الفن الادبي . وبعض الناس يتاح له من ذلك حظ يسير ، وبعضهم يتاح له أوفر الحظ ؛ ومنهم من جبل على تبلد الشعور ونكد الخاطر ، واستغلاق الطبع ، فلا يتأثر بما حوله حتى يصور تأثره في شعر أو نثر .

وعلى هذا النحو نرى الأمم تختلف في استعدادها الفطري ، وتتباين في نصيبها من هذا الحظ . وقد أتيح للأمة العربية أن تكون أقوى الأمم شاعرية ، واشعر الأمم السامية ، لفراغ العرب ، وشدة حسهم وتوقد قرائحهم وصفاء سمائهم، وسكون صحرائهم وحريتهم واستقلالهم، وحنينهم وهيامهم، لكثرة حلهم وترحالهم . وكذلك كان حظ الأمة اليونانية كبيراً من هذا الاستعداد الفطري ، وتلك الموهبة الغريزية ، فكانت أمة شاعرة . أما الأمة الرومانية فلم يتح لها غير حظ يسير لم يكن شيئاً . بجانب ما أتيح لها من مواهب أخرى هيأت لها النبوغ في الحرب والسياسة والتشريع .

ثانياً : الاقليم والمناخ : تختلف طبائع الاقاليم وأجواؤها ، فيختلف تأثيرها في نفوس الناس وأحوالهم ونظام اجتماعهم ، لأن طبيعة الاقليم هي التي تنهج لساكنه سنن المعيشة ، ونظام الاجتماع ، وتكون أخلاقه وطباعه ؛ ومناظره هي التي تربي ذوق أبنائه ، وتغذي خيال كتابه وشعرائه ؛ ولقد يكون الاقليم صحراوياً ، وقد يكون جبلياً ، وقد يكون سهلا ، وقد يقرب من البحر أو تشقه الأنهار ، وكل عامل من هذه العوامل يؤثر تأثيره الخاص في الحياة المادية والمعنوية لمن يعيشون في ظلاله . . . فالشعر الجاهلي قد تأثر أشد التأثر بطبيعة البادية وحياة البدو ، فألفاظه خشنة كجبالها ، ومعانيه وحشية كأوابدها ، وأساليبه متشابهة كصخورها ، وأخيلته مجدبة كقفرها. وهو صورة صادقة لهذه الطبيعة ، يتمثل فيه وصف الصحراء والسراب والأباعر والغزلان والكثبان والأطلال والجبال أكثر من أي شيء آخر .

اقرأ لامرىء القيس :

ترى بعر الآرام في عرصَاتهـــا
وقيعانهـــا كأنه حبُّ فُلفُـــل

كأني غـــداة البـــين يوم تحملّوا
لدى سَمرات الحيّ ناقِفُ حنظل[1]

فعنّ لنـــا سربٌ كأن نعـــاجه
عذارى دَوارٍ في مُلاءٍ مُذَيّل[2]

كأن ثَبيرا في عرانـــين وبْـــله
كبُير أناس في بِجـــادٍ مزمَّل[3]

واقرأ للنابغة :

ومهمه نازح تعـــوي الذئاب به
نائي الميـــاه عن الورّاد مقِفار[4]

---

(١) السمرات . جمـــع سمرة : الشجرة ، نقف الحنظل استخراج حبه وناقفه ينهمر دمعه لحرارته .

(٢) عن : عرض . السرب : القطيع . دوار اسم صنم . المذيل طويل الأطراف .

(٣) ثبير : جبل . عرانين وبله : طغيان وبله . البجاد كساء مخطط ، أي أن المطر ترك في الجبل خطوطاً كخطوط البجاد .

(٤) المهمه : الوادي الموحش .

جـــاوزته بعَلَنْداةٍ مُنَـــا قِلَةٍ

وعْـرَ الطريق على الإحزان مِضمار[١]

كأنما الرحل منها فوق ذي جُدَدٍ

ذَبٍّ الرِيادِ إلى الأشباح نظّار[٢]

واقرأ للبيد في تشبيه ناقته بالبقرة الوحشية :

أفتلك أم وحشـــية مسبوعـــة

خُذلتْ وهاديةُ الصِّوَار قِوامُها[٣]

خنساء ضيَّعت الفـــريرَ فلم يَرِم

عُرْض الشقائق طوْفُها وبُغَامُها[٤]

عَلِهَتْ تَبَلّد في نُهـــاء صُعائدٍ

سبعاً تُوَاماً كاملا أيامُهـــا[٥]

---

(١) علنداة : شديدة وصف للنـــاقة . مناقلة : سريعة نقل القوائم . الاحزان المشي في الحزن .

(٢) ذو الجدد : ثور الوحش فيه خطوط بيض وحمر ، الذب : الدفع . والرياد الارتياد أي أنه قلق لا يستقر .

(٣) مسبوعة : أكل السبع ولدهـا . خذلت : تأخرت عن البقر والصوار جمـــاعة البقر وهاديتها متقدمتها التي تهديها أي أن ملا كها هادية الصوار .

(٤) خنساء : قصيرة الأنف . الفرير : ولد البقرة .

(٥) علهت : تحيرت . تبلد : تتردد وتتحير . الصعائد الامكنة المرتفعة ونهاؤها : نهايتها.

فبتلك إذ رقص اللوامعُ بالضحى
واجتاب أردية السراب أكامُها [1]

فلما انبث العرب في الأقاليم المتحضرة تأثرت آدابهم بها ، وكان شعرهم فيها غير شعرهم في الجزيرة ، بل كان شعرهم في كل اقليم يختلف عنه في الاقليم الآخر . . . وهكذا ظل عامل الطبيعة يفعل فعله ، حتى رأيناه يخالف بين الشعر في عواصم الشرق وبينه في الاندلس ، فقد وجد شعراء العرب في الاندلس الطبيعة المتبرجة الشاعرة من مروج مطرزة بالزهر ، وجبال مؤزرة بالنبت ، وأنهار تلتف كالأساور على معاصم الهضاب ، وخمائل تمتد كالأهداب على العيون العذاب ، هذا الى الامطار المتصلة ، والمناظر المختلفة . فديجوا الشعر تدبيج زهرها ، وسلسلوه سلسلة أنهارها ، ونوعوا فيه ، وجددوا في أوزانه وقوافيه . حتى أصبحنا نقرأ مثل هذا الشعر الرقيق في وصف بلنسية لمروان بن عبد الله .

كأن بلنسيةً كاعبٌ ... وملبسها سندس أخضر
إذا جئتها سترت نفسها ... بأكمامها فهي لا تظهر

أو وصف هذا المنظر لابن خفاجة :

لله نهر سال في بطحاء ... أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطّف مثل السّوار كأنه ... والزهر يكنفه مجرُّ سماء
وغدت تحف به الغصون كأنها ... هُدُبٌ تحف بمقلة زرقاء

(١) اللوامع : الآل . اجتاب : لبس .

وهذا العامل هو الذي يخالف كذلك بين الادب في مصر وبينه في الشام والعراق ، فالطبيعة المصرية مسالمة لا تزعج بالزلازل ، ولا تهتز بالعواصف ، ولا يهيجها البرد القارس ، ولا يلذعها الحر اللافح ، فجوهـا لا يكاد يختلف ، ومناظرها لا تكاد تتغير ، ولهذا طبع أهلها على المحافظة والوداعة والفكاهة والكسل،وجاء الشعر المصري منضد اللفظ جيد السبك بطيء التجدد هادىء الأسلوب ، يتنـاول الامور في اعتدال ورفق ولين . بينما نرى الشعر الشامي شديد الحركة كثير التنوع سريع التجدد قلق الأساليب ، بسبب نشاط الحياة وتعدد المنـاظر واختلاف الصور وتقلب الطبيعة . وبينما نرى الشعر العراقي قوياً ثائراً ساخطـاً متوثباً متوقد الشعور من إسراف الطبيعة في الحر والبرد وغلبة الحياة البدوية على السكان .

وقد أخذ عامل الطبيعة يضعف بسهولة المواصلات وانتشار المدنية ، حتى أصبحنا نرى التقارب بين شعراء هذه الأقطار في المذاهب الأدبية والصناعـة الفنية والروح والخيال ، وسيزداد هـذا العامل ضعفـاً في المستقبل ، ولكنه سيحتفظ بتأثيره على كل حال .

ثالثاً : خصائص الجنس : فالجنس الآري يميـل الى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق ، بينما يميل الجنس السامي الى التعميم والاجمـال والبساطة لذكاء قلبه وحدة خاطره . وهكذا يتميز كل جنس بخصائصه وسماته ، وهي خصائص تؤثر في الانتـاج الادبي وتبدو فيه بصورة واضحـة . فشعر العرب يختلف عن شعر اليونان والأوربيين في المذهب والخيـــال والغرض ، وشعر ابن الرومي مثلا يختلف عن شعر ابن المعتز مع أنهما نشآ في بلد واحـد وعصر واحـد . فابن الرومي يحلل ويتعمق ويستقصي ؛ بينما يعمم ابن المعتز ويجمل ويتبسط لأنه عربي أصيل وإنك لتحس أثر هذا العامل حين تقرأ للنـــابغة الشاعر العربي الجاهلي قوله :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّه على شعَثٍ، أيّ الرجالِ المهذّبُ؟

ثم ترى هـذا المعنى عنـد بشار بن برد وكيف حلل فيه واستقصى وكرر وزاد في التصوير حتى صور في أبيات ما كان يصوره النابغة في بعض بيت ، قال بشار :

إذا كنت في كل الأمور معـاتبا

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبهْ

فعش واحدا أوصل أخاك فإنه

مقـارف ذنب مرة ومجـانبهْ

إذ أنت لم تشرب مرارا على القذى

ظمئت وأي الناس تصفو مشاربهْ ؟

ومَن ذا الذي ترضي سجاياه كلها

كفى المرء نبلا أن تعد مـعايبهْ

رابعاً : الحضارة والاجتماع : فالحضارة والرخـاء ممـا يؤثر في الذوق ، ويزيد في الصور والمناظر ، وينوع في معـاني الادب وأغراضه . فالمعاني التي تخطر للمتحضرين غير المعاني التي تخطر لأهـل البادية ، والأغراض التي يقول فيها أهل الحضر غير أغراض البدوين . والألفاظ الحضرية تلائم الحياة المتحضرة رقة وعذوبة ووضوحاً وحسن استقصاء . ولهذا نجد الفروق عظيمة بين شعر العرب قبـل أن يتحضروا ، وبعد أن تحضروا فى مصر والشـام والعراق والأندلس . وكذلك نرى الفروق عظيمة بين شعرهم إبان ازدهـار حضارتهم وشعرهم بعد انحطـاط الحضارة الاسلامية حين تغلب الترك والتتار . ومن هنا

عاد الى الادب العربي رونقه ورقيه بوجه عـام حين أخـذت الحضارة تزدهر منذ كانت النهضة الحديثة .

ومن شواهد تأثير الحضارة والحياة الاجتماعية في الادب أن مدن الحجـاز حينما زخرت بالمال ونعمت بالفراغ . منذ خلافة عثمان الى أواخر القرن الاول للهجرة ، غرق أهلها في اللهو، وعكفوا على الغناء، وشرقوا بالنعيم واستسلموا للصبابة ، وانقطع شعراؤها الى الغزل فافتنوا فيه ، وتصرفوا في معـانيه : كعمر وجميل وكثير .

ومن الشواهد كذلك ظهور الشعر العـامي في بغـداد والاندلس في عصر واحد ، ففي بغداد ظهر (المواليـــا) على لســان صنائع البرامكة ، وشعر (القوما) الذي كان ينادي به رعاع العامة في طوافهم بالليل في شهر رمضان، وفي الاندلس ظهر الموشح والزجل ، ونبغ فيهما النوابغ . ولكن البغداديين استهجنوا أدب العامة وعزفوا عنه ، بينما استحسنه الاندلسيون ونبغوا فيه . والسبب في ذلك أن بغداد كانت أرستقراطية ، لأنها موطن الاشراف وذوي الاحساب والثروة ، فكانوا يترفعون عن الشعب وأدبه ، ويأنفون من مجاراته أما الاندلس فكانت ديمقراطية غنية ، لم يعتز أحد فيها بالنسب لتساويهم فيه، ولا بالثروة لعموم الرخـاء وحسن توزيـع الثروة ، لذلك لم يترفـع الشعراء والادباء فيها عن تقليد الادب العامي وتدوينه .

خامساً : العلم : وهو لون من ألوان الحضـارة له أثره وخطره في ترقيـة العقل وتقوية الشعور وتنمية التصور ، وخلق أنواع طريفة من الادب . فاذا صرفنا النظر عن منظومة ابن عبد ربه في التاريخ وألفية ابن مالك في النحو، فاننا نلاحظ أن انتشار العلوم قد أحدث نوعا من القصص الخيالية تمتزج فيها حقائق العلم بروعة الخيال وغرابة الحوادث تحقيقاً لرأي أو تشويقاً لعلم . كما صنع ابن الطفيل الاندلسي في رسالة (حي بن يقظان) ، فقد شرح في هذه القصة كيف يستطيع الانسان بمجرد عقله أن يتدرج من المحسوسات البسيطة

الى أسمى النظريات العلمية ، ولكنه يعجز عن إدراك أرقى الحقائق بغير وحي من الله أو هداية نبي .

وللتاريخ تأثير كبير في الادب ، فهو مادة لا بد منها لثقافة الاديب يستمد منها فيما يكتب ، ويستعين بها فيما يفكر . وكثيراً ما كانت أحداثه مادة الادب وخاصة فيالعصور الحديثة، حيث أصبحت موضوعاً مهماً للقصص التاريخية : كما فعل شكسبير في بعض قصصه في الادب الانجليزي ، وكما فعل جورجي زيدان وأحمد شوقي وغيرهما في الادب العربي . ومن ناحية أخرى نرى بعض الكتابات التاريخية نفسها قطعاً أدبية كما في تاريخ الطبري . بل ان بعض الكتب التاريخية كتب ادبية بأكملها . وهكذا يكون التاريخ من أهم العناصر التي تنشىء النثر الفني،وقد قالوا إن كتاب هيرودوت هو أقدم كتاب منثور رائع عرفه الادب اليوناني .

وللعلوم فضل ظاهر على اللغة في المادة والاسلوب ، وأثر قوي في ترقية النثر خاصة لأنها تكسبه القوة والدقة والوضوح .

ولم يرتق النثر في أمة إلا بعد رقيها في الحضارة والعلم ، لأن النثر لغة العقل كما أن الشعر لغة الخيال . فالنثر العربي لم يرق إلا في ظلال الحضارة .

هذا وقد يختلف تأثير انتشار التعليم في الادب باختلاف ما يكون له من مدى ، فانتشار العلم في العصور القديمة كان نسبياً مقصوراً على طائفة خاصة فكان الادب أرستقراطياً أو قريباً من الارستقراطية، فأما في العصور الحديثة حين أتيح العلم للناس جميعاً فقد أصبح الادب ديمقراطياً شعبياً ، وأخذ الادباء يفكرون حين ينشئون في طبقات من الناس لم يكن يفكر فيها أسلافهم .

سادساً : الدين : وللدين وما يتصل به من أخلاق ومعتقدات تأثير كبير في الادب . فإنه يخلق موضوعات جديدة ، ويؤثر في الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه في مناحي الادب . ولا بدع فالدين قوام الحياة النفسية

للشعوب . ومن ثم كان أثره واضحاً في كل ما يصدر عنها من آثار مادية ومعنوية . فالآثار المادية الفنية كالمعابد والمساجد والكنائس والتماثيل ؛ أما المعنوية فمنها هذه الاناشيد الدينية التي هي مبدأ الشعر في كل أمة كأناشيد (رع) عند المصريين ، وأناشيد (آرفيه) عند اليونانيين . ومنها هذا السجع الذي كان يجري على ألسنة الكهان في الجاهلية ، والذي يظن أنه مبدأ الشعر العربي ، وكثير من الديانات صحبه كتاب مقدس يعد مثالاً أدبياً ممتازاً كالقرآن الكريم ، والادب التمثيلي أثر من آثار بعض الديانات اليونانية . وقد أوجد الدين الاسلامي الادب الصوفي وشعر الزهد ، ونهض بالخطابة الدينية التي تلقى في محافل الصلاة العامة ومقامات الوعظ ، ونحو ذلك . مما يدلنا على أن تأثير الدين في الحياة الفنية قوي عميق . وهو فوق ذلك يهذب النفس ، ويرقق الشعور ، ويسمو بالانسان الى مستوى رفيع .

سابعاً : الحياة السياسية : وللنظام السياسي أثره في خلق فنون من الادب أو ازدهار بعض ألوانه ، أو انحطاط بعضها فالنظام الاستبدادي العنيف ينتج ألواناً من الادب يظهر فيها التملق والنفاق والاسراف في تمجيد أصحاب السلطان ، ومن ثم يزدهر فن المدح ، كما يظهر الادب الرمزي الذي يضطر اليه بعض الادباء في تصوير الظلم والفساد ، فيهربون من الصراحة التي تودي بهم الى الرمز والابهام ، أو اصطناع الحيوان لاجراء ما يريدون على لسانه ، على النحو الذي نراه في كتاب (كليلة ودمنة) ، أو (جنة الحيوان) أو (المعذبون في الارض) لطه حسين . وبعض الشعر الذي يتستر وراء موضوعات رمزية . وفي ظلال الحرية والنهضة السياسية تزدهر الخطابة ولا سيما الخطابة السياسية . ذلك النوع الذي تخلقه الحرية السياسية والحياة الديمقراطية والانظمة الدستورية . كما حدث في النهضة المصرية التي أخرجت أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول . وكذلك يزدهر الشعر الحماسي والوطني ونحوهما من الشعر السياسي الذي تصطنعه الاحزاب السياسية كما كنا نرى وكما رأينا في صدر الدولة الاسلامية . وفي ظلال الاستبداد يخفت صوت

الخطـــابة ، ويذهب الادب الصريح الصــادق الذي يمثل الحــرية الفــردية والاجتماعية .

وتعمل السياسة عملهـا في رواج بعض الفنون وانتشارهـا . ففي خلافة معاوية انتشر الهجـاء المقذع في العراق لأنه ساسه بالتفريق وإحيـاء العصبية ليشغل الناس عن الخصومة في خلافته بالخصومة في أمر جرير والفرزدق مثلاً. وانتشر الغزل في الحجاز لأنه اعتقل شباب الهـاشميين في مدنه وسلط عليهم الترف وشغلهم بالمال والفراغ .

وقد يكون ضعف السياسة قوة للأدب كما حدث من ازدهـار الادب بعد انصداع شمل الخلافة بعد عهد المتوكل واستقلال الولاة في فارس ومصر والشام والمغرب بسبب المنافسة بين هؤلاء الولاة .

ثامناً : اتصال الشعوب : وقـد تكون الصلة بين الشعوب حربية فتصل بين الغالب والمغلوب وينتفع كل بمـا عند الآخر ، فقد تأثر الرومان بحضارة اليونان وآدابهم لهذا السبب ، كما أفـاد العرب من الفرس والروم وسائر البلاد التي فتحوها . على أن الحروب بين الشعوب تنمي فنوناً حماسية وربما أوجدت الشعر القصصي : فالألياذة الاغريقية تدور على حروب اليونان لأهل طروادة والشاهنامة الفارسية على تاريخ الأكاسرة ووصف الحرب بين أهل إيران وأهل طوران . وهكذا كان الشعر القصصي أو الملاحم التي خلا منها الشعر العربي لعوامل ترجع الى البيئة والاقليم والدين . على أن عامل الحروب قـد أثر في النثر العربي والشعر العامي ، فإن نشوب الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنترة وسيرة بني هـلال ونحو ذلك . كما أثر في الشعر الفصيح الذي يصور أيام العرب ووقائعها في الجاهلية .

أما الاتصال السلمي بين الشعوب فيتيح لها أن تتبادل الثار العقلية والفنية وغيرهـا ، وتتواصل بالجوار والمصاهرة وهكذا يأخذ بعضها من بعض ويقلد

بعضها بعضاً . فتنشأ في الادب فنون لم تكن معروفة . وتتطور الفنون التي كانت معروفة . وقد تضعف فنون كانت قوية قبل الاتصال . فهـذه دولة العباسيين في بغداد ودولة الأمويين في قرطبة كانت حضارة كل منها نتيجة اختلاط شعوب مختلفة ، لكل شعب منها خصائصه ، فالتقت العقلية السامية بالعقلية الآرية . وكان لهذا اللقاح أثر في الفكر يعلل لنا وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وابن الرومي وغيرهم . وأثر في الاتجـاه يظهر في الاغراض الجديدة كالغزل بالمذكر مثلا الذي ولده هذا الاختلاط .

وقـد اتصلت مصر والشرق العربي بأوربا منذ القرن المـاضي فتطـورت الحيـاة الأدبية فيها تطوراً ملموساً . وتأثر الادب المصري بالادب الاوربي في أساليبه ومذاهبه .

تاسعاً : التقليد والاحتذاء : والتقليد فطري في الانسان لا يستطيع بدونه أن يتكلم أو يتعلم ، ولولا الاحتذاء لمـا كانت فنون الآداب ، فالشعر والنثر إنما يصاغان على قواعد وأساليب خاصة ، وما مراعاتها إلا اقتداء الاديب بمن سبقه وترسم خطاه .

والتقليد في الآداب أثر ظاهر ، فالشعر اللاتيني عاش زمناً على تقليد الشعر اليوناني كما قلد الأوربيون اليونان في الشعر التمثيلي وغيره من الملاحم . وظهر أثر التقليد في الادب العربي الحديث فظهر الشعر التمثيلي على يد شوقي وغيره من الشعراء وظهرت الأقصوصة والقصة والرواية وغير ذلك ممـا أضـاف الى فصوله فصولاً خالدة .

والادب الفـارسي والادب التركي قـد تأثرا بالادب العربي فقرض الفرس شعرهم بالأوزان العربية ، أمـا الاتراك العثمانيون فإنهم حين أخـذوا يدونون أشعـارهم في القرن الثامن اقتبسوا من الفرس بعض الأوزان العربية مدداً لأوزانهم القديمة .

عاشراً : وهنـاك عوامـل أخرى كثيرة تؤثر في الادب بعضهـا خـاص وبعضها عام ، لا يمكن حصرهـا وإن كان ينبغي أن نذكر منها أيام العرب وأسواقها وسنتحدث عنها في فصل خاص : وكذلك النقد الذي يرشد الادباء الى المناهج الصالحة ، والغناء الذي يهذب ألفاظ الشعر ويرقق حاشيته ويذيع الادب وينشره بين جميـع الطبقـات . فيرتفع بأذواق العـامة وأفـكارهم وأساليبهم كما نرى في عصرنا الحـالي الذي يردد فيه العـامة شعر شوقي وغير شوقي ممـا يغنيه عبد الوهاب أو تنشده أم كلثوم . ويجب ألا ننسى مجـالس الادب التي كان يعقدها أمثال عبد الملك بن مروان وما لهـا من أثر كبير في النهوض به ، والمنافسة في روايته ، كما لا ننسى أثر تشجيـع الادباء واجازتهم مما يدعو الى الاجادة والابداع ، وغير ذلك مما يؤثر في الادب .

والخلاصة في ذلك أن أي أثر في الحيـاة يظهر في الادب لأنه صورتها وترجمانها وتاريخها [1] .

---

(١) من مصادر هـذا البحث . أصول النقد الادبي للأستاذ أحمد الشايب . في أصول الادب للاستاذ الزيات . التوجيه الادبي للدكتور طـه حسين . مقالة للدكتور أحمـد ضيف في مجلة دار العلوم .

الفصل الثامن

اسواق العرب في العصر الجاهلي (١)
وأثرها في اللغة والأدب

(١)

كان العرب في العصر الجاهلي يقيمون أسواقاً عامة للتجارة ، وكانت هذه الأسواق تستمر طول العام ينتقلون من بعضها الى بعض .

ومن أشهر أسواقهم العربية :

١ — سوق عكاظ ، وعكاظ قرية بين نخلة والطائف ، وكانت تعقد في أول

---

(١) ٨٧ — ٩٠ ج ١ تاريخ آداب العـــرب للرافعي ٤٦٤ ج ١ بلوغ الأرب ، معجم البلدان .

ذي القعدة الى العشرين منه ، وهي أعظم أسواقهم ، وقد اتخذت سوقاً بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة وظلت قـائمة في الاسلام حتى نهبها الخوارج عام ١٢٩هـ حين خرجوا بمكة مع المختار بن عوف . وسنخصها بحديث بعد .

٢ – سوق مجنة : ومجنة موضع بمر الظهران أسفل مكة على أميال منها، وكانوا ينتقلون اليها من عكاظ فيقيمون فيها الى نهاية ذي القعدة .

٣ – سوق ذي المجـاز : بمنى خلف عرفة . وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذي الحجة ، ثم يقفون بعرفة في اليوم التاسع .

(٢)

وكانت هذه الاسواق العربية – رغم أنها مكان للتجـــارة والمقايضة – ميدانـاً فسيحـاً لتبادل الآراء ، وعرض الأفكار ، والتشـاور في مشكلات الأمور ، ومجالاً للمفاخرات والمنافرات والمحاورات ، ومعرضاً لاذاعة مفاخر القبيلة وشرف الأرومة ، وناديـاً واسعاً لإلقـاء روائع الشعر ، والمباهـــاة بالفصاحة، والمفاخرة بالبلاغة. وفيها ألقيت أشهر القصائد والمعلقات العربية ، فأنشد عمرو بن كلثوم معلقته في عكاظ ، وكذلك فعـل الأعشى الذي أنشد فيها قصيدته في مدح المحلق .

ولقد سبق الإغريق العرب الى أمثال هذه المحافل في المجتمعـات الأولمبية التي كانوا يقيمونها كل أربع سنوات للألعاب والرياضة البدنية كلما حجـوا الى هيكل المشتري في أولمبية . وكانوا يحرمون القتال على أنفسهم في أثنائها على نحو مـا يفعل العرب في الأشهر الحرم ، فلمـا استوثق لهم الأمر صارت هذه المجتمعات الأولمبية أندية لإنشاد الشعر وتبادل الأفكار .

وكانت في هذه الأسواق منـابر الخطابة في الجاهلية يقوم عليهـا الخطيب

بخطبته فيذيع فعاله ويعدد مآثره ومآثر قومه وأيامهم عاماً بعد عام .

وكان النقـــاد والشعراء والرواة يجتمعون في الاسواق فينشد الشعراء ، وينقد النقاد ويذيع الرواة ما سمعوه في كل مكان . وكان النابغة الذبياني حكم الشعراء بسوق عـكاظ ، كانت تضرب له قبة فيه ، فتأتيه الشعراء ينشدونه قصائدهم فيحكم لبعضهم على الآخرين .

وكان هذا الميدان الأدبي الفسيح بما فيه من آذان مرهفة ، وعيون متطلعة ، وأذواق حصيفة ، تحمل الشعراء والخطباء على التجويد والتهذيب والتنقيح ، وتدعوهم الى تخير الألفاظ العذبة ، والأساليب الجميلة ، والمعاني الرائعة ، قصداً الى الوضوح والإفهام والإمتاع ، ومن ورائهم الرواة يذيعون هذا الأدب المختار في البلاد ، وينشرونه في القبائل ، ويروونه في كل مكان للسامعين .

وذلك هو الأثر الأدبي الكبير لهذه الأسواق ، فوق أثرها الخطير في توحيد العقائد والأخلاق والعـادات ، والنهوض الحثيث بالمجتمع العربي والسير به في طريق الوحدة التي بلغها بعد ظهور الاسلام ونبيه الكريم .

(٣)

وللأسواق عمل لغوي خطير ، فقد كانت سبباً في التقريب بين لغـــات العرب ولهجاتهم .

كانت تنزل بها شتى القبائل العربية على اختلافها ، من قحطانيين وعدنانيين ، كما كان ملك الحيرة يبعث تجـارته اليهـا ويأتيهـا التجـار من مصر والشـام والعراق .

فكان هذا الاجتماع الكبير وسيلة من وسائل التفاهم اللغوي ، والتقـارب

بين اللغات واللهجات العربية ، واختيار القبائل بعضها من بعض ، وكانت الأذواق المرهفة في هذه الأسواق تعمل عملها في النقد اللغوي ، فتأخذ كل قبيلة من لغة الاخرى ، ما خف على النطق ، وعذب في الألسنة وظهرت فصاحته ، من مختلف الألفاظ والأساليب .

وكان القرشيون خاصة من بين قبائل العرب وبتأثير اجتماعات الحج والاسواق والحروب، أكبر القبائل ميلا الى النقد اللغوي فاقتبسوا من لهجات القبائل أعذبها ، ومن ألفاظهم أسهلها وأنصعها وأفصحها ، وأخذوا يضيفون ذلك الى لغتهم فزادت ثروة اللغة العدنانية القرشية . وقلدت القبائل الاخرى قريشاً في ذلك ، وأخذت عنها محاكية لها في لغتها وذلك لمكانة قريش وإشرافها على هذه الاسواق ، مما حدا بالشعراء الذين يريدون لشعرهم الذيوع أن يتحروا لهجتها المختارة الذائعة في إذاعة محامد قبائلم وأمجادهم ، فكان لذلك آثاره البعيدة في تهذيب اللغة العربية وتوحيدها وجمعها في لغة مختارة هي لغة قريش أفصح القبائل العربية ، والتي نزل بها القرآن الكريم .

وعمل الاسواق في توحيد الألسنة والتقريب بين اللهجات وتهذيب اللغة العربية كان ذا أثر بعيد في نمو اللغة العربية ونهضتها وانتقالها من طور اللهجات المتباينة واللغات المتنافرة المتناكرة الى طور جديد ، مهد للوحدة اللغوية بين قبائل العرب، التي نزل القرآن الكريم مؤيداً لها ومذيعاً للغة قريش في كل مكان .

(٤)

وننتقل بعد ذلك الى الحديث في إيجاز عن سوق عكاظ وأثرها في اللغة والادب ، توضيحاً لأثر الاسواق الجاهلية ؛ وزيادة في معارفنا عن أسرار

الاجتماع الجاهلي ، لأن هذه السوق كانت تمتاز عن غيرها بأن جميع القبائل كانت تقصدها .

كانت سوق عكاظ ميداناً للتجارة وفداء الاسرى والمفاوضة في الرأى وتبادل الافكار ، كما كانت ميداناً للمنافرة والمفاخرة وإنشاد القصائد ، وكان بها في الجاهلية منابر يقوم عليها الخطباء . فيقف أشراف القبائل مفاخرين بمناقبهم ومآثر قومهم. وكانت معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقي فيها الشعر والخطب ، وينقد ذلك كله ويهذب . وفيها أنشد ابن كلثوم معلقته ، ويقال إن المعلقات أنشدت فيها ، كما أنشد فيها الأعشى مدحته المحبرة في المحلق ، وممن ألقى فيها مدائحه حسان كما كانت الخنساء تلقي فيه مراثيها وتعاظم بمصيبتها . وكان النابغة تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ ويجتمع عليه الشعراء فيتحاكمون اليه .

أتاه الأعشى يوماً فأنشده ، ثم أتاه حسان ، فقال : لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً . لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، قال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابغة على يده ، وقال : يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم أتته الخنساء فأنشدته :

قذًى بعينك أم بالعين عُوّار
أم أقفرت إذْ خلَتْ مِن أهلها الدار [1]

---

(١) العوار والعائر كل ما أعل العين والرمد والقذى .

فلما بلغت قولها :

وإن صخراً لتأتم الهداة به   كأنه علـــم في رأسه نار

قال : ما رأيت ذا مثانة أشعر منك .

ويروي أنه قال لها : لو لا أن أبا بصير سبقك لقلت إنك أشعر من بالسوق، ويروي أنه قال لحسان حين بلغ قوله من قصيدته :

لنا الجفناتُ الغُرُّ يلمعن بالضحى
وأسيافُنا يقْطرْنَ من نَجدة دما
ولَدْنا بني العنقاء وابْنَيْ محـــرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا

قللت جفانك ولو قلت : الجفان لكانت أكثر ، وفخرت بمـن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وقلت يلمعن بالضحى، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً وأنثت السيوف [1] .

وكذلك قصدت هند بنت عتبة بن ربيعة هذه السوق حين قتل أهلها في بدر ، وقرنت جملها بجمل الخنساء ، وأخذت كل منهما تعاظم الاخرى بمصابها وتساجل في الشعر لوعة بلوعة ، ورثاء برثاء .

وفي سوق عكاظ خطب قس بن ساعدة خطبته المشهورة ، وقد سمعهـــا الرسول صلوات الله عليه .

---

(١) الأغاني جـ ٨ ص ١٩٤ ، ١٩٥ والجفنات القصاع الكبيرة .

وكان عليها رئيس يشرف على الموسم ويقضي بين المتخاصمين ، ومن الرؤساء عامر بن الظرب العدواني ، واستمرت في الاسلام وكان محمد بن سفيان بن مجاشع قاضياً لها ، وكان أبوه يقضي فيها في الجاهلية . وقد قصدها الرسول الأعظم يبث فيها دعوته وبقيت حتى خربت عام ١٢٩ هـ .

(٥)

هكذا كانت الاسواق ذات أثر خطير في تهذيب اللغة وتوحيد اللهجات ، ونهضة الادب وتجويده ، ونشر الشعر وترديده ، كما كانت نواة لنشأة النقد الادبي ومهدا لنموه ، على نحو ما رأينا في عكاظ التي كان يقصدها المفاخر بالنسب والحسب ، والمتبجح بالفصاحة واللسن ، والمحزون الذي يجد فيها متنفساً للواعجه ، والداعي الذي يلتمس الاصاخة لدعوته . وكل هذا الى جانب حركتها الاقتصادية والاجتماعية .

الفصل التاسع

أيام العرب في العصر الجاهلي وأثرها في الأدب

(١)

كان العرب في جاهليتهم بدواً ، لا يخضعون لنظام، ولا يدينون لحكومة ولا يربطهم قانون ، ولا ينتظمهم مجتمع . وإنما كان مجتمعهم القبيلة والخيمة وقد فرضت عليهم طبيعة أرضهم القاحلة أن يعيشوا على رعي الإبل والأغنام يتتبعون بها مواقع الغيث ومواطن الكلأ، ينتقلون بينها ، ويسيمون ماشيتهم فيها . فاذا أخلفت السماء ، وأمحلت الارض ، أكل بعضهم بعضاً بالإغارة والغزو ، ودفعهم الجدب الى الحرب .

كذلك كان من دأبهم النفرة من العار ، والنهضة لحماية الجار ، والحرص

على الأخذ بالثأر والاغترار بالعصبية، والاعتزاز بالقرابة الواشجة ، والمفاخرة والمنافرة ، والإباء والشمم .

كل ذلك كان يدفع العربي الى الحرب، ويجعلها أثيرة عنده، يثيرها لأوهى سبب ، ويشنها لأدنى حدث ، حتى صارت عادة مألوفـة ، وسنة معروفة ، وحتى أنفوا أن يرتزقوا من عمل غير السيف، أو يكسبوا إلا من أسنة الرماح ، فإذا لم يجدوا عدواً أغاروا على الأقرباء ، كما يقول القطامي :

ومن تكن الحضارةُ أعجبته ... فأيَّ رجـــال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فإن فينا ... قَناً سُلُباً وأفراسا حسانا(1)
وكن إذا أغرن على جناب ... وأعوزهن نهب حيث كانا(2)
أغرن من الضباب على حلول ... وضبة إنه مَنْ حَان حانا(3)
وأحيانا على بكر أخينـــا ... إذا ما لم نجـــد إلا أخانا

فالعرب بطبيعتهم أمة مغالبة مجالدة ، مساورة معاندة ، لا ترضى بالضيم ولا تقيم على الذل ، ولا تغضي على الهوان . ولقد مردوا على المخـاطرة ، واعتادوا القتل والقتـــال ، وألفوا الصولة والصيال ، فانتزعت من نفوسهم غريزة الخوف ، وغلبت عليهم الحرية الشخصية ، وصارت الحرب عندهم تهيج

---

(١) القنا : الرماح . سلباً . تسلب النفوس جمع سلوب .

(٢) الجناب : الناحية .

(٣) الضباب عدة قبائل منها ضبة وحسل . الحلول الذين يكونون في مكان واحد . من حان حانا . أي من هلك بغزونا فقد هلك حقاً ، أو من حان أجله هلك .

لأوهى سبب ، وتشتعل لأقل حادث ، وما تخبو إلا لتستعر ، وقد تظل ملتهبة بين القبائل أعواماً طوالا ، لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أوارها .

وللعرب كثير من الوقائع العظيمة التي هاجت قبائلهم ، وأثارت عصبياتهم ، والتي تحدث عنها الشعراء في أشعارهم ، وكانت مادة رائعة للسمار والمحدثين في حقب طويلة ، وأعصار بعيدة . قال ابن عبد ربه : « إنها — أيام العرب — مآثر الجاهلية ، ومكارم الأخلاق السنية ، قيل لبعض أصحاب رسول الله : ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم في مجالسكم ، قال : كنا نتناشد الشعر ، ونتحدث بأخبار جاهليتنا » .

وقد سميت هذه الوقائع بأيام العرب (١) ، وهي ينبوع ثجاج من ينابيع الادب ، وميدان فسيح من ميادين البيان ، بما اشتملت عليه من روائع القصص ، وبدائع القول ، ومأثور الحكم ، وبليغ الخطب والشعر كما أنها صورة صحيحة للعرب وعاداتهم وتقاليدهم ، وتصوير صادق لأسلوب حياتهم وشأنهم في الحرب والسلم والنجعة والاستقرار .

وهذه الأيام منها ما كان بين العرب والفرس كيوم ذي قار ، وما كان بين النزاريين واليمنيين كيوم خزازى ، وما كان بين اليمنيين بعضهم مع بعض كيوم بعاث بين الأوس والخزرج ، ويوم حليمة بين المناذرة والغساسنة ، وما كان بين النزاريين كيوم الزويرين بين ربيعة ومضر ، وما كان بين المضريين

---

(١) الأيام أي الوقائع التي حدثت في الأيام . وفي القرآن الكريم (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله (قال الزمخشري . أي أنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود ، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها . قال عمر بن كلثوم .

وأيام لنا غر طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا

ومن هنا كانوا يقولون يوم لك ويوم عليك .

بعضهم مع بعض كحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، ومـا كان بين الربعيين بعضهم مع بعض كحرب البسوس بين بكر وتغلب .

(٢)

ولهـذه الأيام أثر واضح في الادب ، بمـا تهيج من عـاطفة ، وتبعث من شـعور ، وتثير من شـاعرية . (كان الشعراء والخطبـاء من وراء الفـوارس يذكون حميتهم ، ويلهبون شجاعتهم ، ويصفون خيلهم وسلاحهم ، ويشيدون ببطولتهم ومواقفهم ، ويندبون بقوافيهم الباكية صرعى الأيام ويحرضون على الثأر والانتقام ، وقد ينفرون من الحرب وويلاتهـا ، ويحملون لقبائلهم غصن الزيتون) .

ومن أجل آثار هذه الأيام ما يلي :

١ — أن الشعر الجـاهلي عامة ، والفخر والحمـاسة والرثاء والهجـاء منه خاصة ، ترتبط بهذه الأيام ارتباطاً وثيقاً ، فأكثر القصائد في هـــذه الفنون الادبية في الشعر الجـاهلي قيلت في هذه الأيام وكانت صدى لهـــا ، ونظمها أصحابها فخراً بمآثر القبيلة ، ودفاعا عن أحسابها ، أو هجاء لخصومها وثلباً لأعدائها ، أو تحميساً لأبناء القبيلة ليهبوا للدفاع عن كيانها وحفظ شرفها ، أو رثاء للقتلى من أبنائها في حومة القتال وميادين النضال .

٢ — وفي الشعر الجاهلي قصائد كثيرة قيلت في وصف المعـــارك ، وفي الدعوة الى السلام وتصوير فظـائع الحرب ، أو الدعوة الى الانتقـام وطلب الأخذ بالثأر .

٣ — وأوصافهم في شعرهم للخيول والرمـاح والسيوف والدروع وغيرها

من أدوات القتال أثر من آثار هذه الأيام في الشعر الجاهلي .

٤ — ولا يقتصر أثر هذه الأيام على الشعر ، بل إنها تشغل جزءاً كبيراً من النثر الجاهلي أيضاً كما تجد في خطبة هانيء بن قبيصة في قومه يحرضهم على الحرب يوم ذي قار [١] ، وفي سواها من الخطب ، وفي الكثير من المفاخرات والمنافرات والمحاورات ، التي تتصل بأيام العرب في جاهليتهم من قريب .

٥ — وفوق ذلك فإن أثر هذه الأيام في تاريخنا الادبي أثر جليل . فالادب الذي خلفه لنا الشعراء والادباء فيها صورة مفصلة لحياة العرب الاجتماعية والسياسية ، ولصلاتهم بالأمم المجاورة لهم ، وهو مرآة ناطقة بأخلاقهم وفضائلهم وعاداتهم وشمائلهم . وما تحدثت به الرواة عن هذه الايام يشغل جانباً كبيراً في كتب الادب العربي ومصادره ، وهو يمثل ألوانا طريفة من فنون الادب المتصلة بفن القصص والاساطير .

٦ — وقد ألفت في أيام العرب كتب أدبية كثيرة ضاعت على مر الاجيال :

(ا) فلأبي عبيدة الاديب الراوية المتوفى عام ٢٠٩ هـ كتاب صغير فيها حوى خمسة وسبعين يوماً ، وكتاب آخر كبير جمع فيه ألفا ومائتي يوم .

(ب) ولأبي الفرج الاصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ كتاب في أيام العرب جمع فيه ألفاً وسبعمائة يوم .

(جـ) وقد ألف لفيف من الاساتذة المعاصرين كتاباً في « أيام العرب

---

(١) راجعها في الأمالي ١٦٩ جـ ١ وفي سواه من كتب الادب .

في الجاهلية » وطبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي عام ١٩٤٢ م .

(٣)

وسنتحدث عن أهم أيام العرب في الجاهلية ، تاركين باقي هذه الأيام ليقرأ القارىء أخبارها الشيقة في كتب الادب والتاريخ ومـــا قيل من شعر ونثر يرويان على مر الأيام .

يوم ذي قار[١]

يوم من أشهر أيام العرب، كان بين العرب والفرس، وانتصرت فيه العرب وهو أول يوم تنتصر فيه على العجم .

وسببه أن عدى بن زيد العبادي الشاعر الجـاهلي كان أستاذاً للنعمان ابن المنذر بالحيرة ، ثم التحق بخدمة كسرى فكان أول من كتب بالعربية في ديوانه ، ثم مات المنذر ، فأشار عدى على كسرى بتولية النعمان على الحـيرة مكان أبيه ، فقلده إمارتها . فغاظ ذلك عدى بن مرينا ، وكان حريصاً على أن يولي تلميذه أخو النعمان ، فأخذ يكيد لعدى عند النعمان ، حتى دس إليه من يفهمه أن عديـا يمن عليه بأنه هـو الذي ولاه ملك الحـيرة ، حتى أوغر صدر النعمان ، فأرسل اليه يطلب زيارته بالحيرة لشوقه اليه . فقـدم عـدى عليه فأمر بحبسه ؛ فأخذ عدى ينظم الشعر وهو محبوس يصور فيه آلامه ،

---

(١) ذي قار : ماء لبكر قريب من الكوفة ، راجع اخبار هذا اليوم في ٣٧٤ جـ ٣ العقد الفريد ، ١٤٨ جـ ٢ الطبري . ٢٨٩ جـ ١ ابن الأثير ، ٩٧ جـ ٢ الأغاني طبع دار الكتب ، ٣٤٣ جـ ١ خـزانة الادب ؛ ٦٣٨ النقـائض طبعـة اوربا « ٣٥٢ جـ ٣ و ص ٨ جـ ٧ معجم البلدان ، جـ . الأغاني طبعة الساسي .

ويستعطف به النعمان ، ومن ذلك قوله :

أبلــغ النعــمان عني مَألُكاً
أنه قد طال حبسي وانتظاري[1]

لو بغــير المــاء حلقي شرق
كنت كالغصان بالمــاء اعتصاري

وعلم كسرى بحبسه ، فأرسل الى النعمان يأمره بإطلاقه ، ودخل رسول كسرى الحيرة فزار عديا في الحبس ، ثم توجه الى النعمان فأوصل رسالة كسرى اليه ، فقال النعمان : نعم وكرامة ، وأتحف الرسول بالهدايا والألطاف .

وأصبح الرسول فذهب الى الحبس ، فوجد عديا مقتولاً ، وفطن الى أن النعمان أمر بقتله خوفاً على نفسه من انتقامه ، فأبلغ كسرى أن عديا مات ميتة طبيعية . ثم ندم النعمان على قتل عدي نصيره وأستاذه ، وكان لعدي ابن اسمه زيد ، فقدمه النعمان الى كسرى ليكون مكان أبيه . . . وحدث أن كسرى أراد أن يصاهر النعمان، وكان زيد هذا رسوله الى النعمان . فوجد الفرصة السانحة للانتقام منه ، حيث أفهم كسرى أنه يترفع عن مصاهرته ، ويأبى على عادة العرب أن يزوج ابنته أو قريبته من الفرس ، فأسرها كسرى في نفسه ، وسكت مدة ، ثم استدعاه الى المدائن عاصمته ، فأوجس النعمان في نفسه خيفة منه ، وفكر في الهرب .

---

(١) المألك والمألكة : الرسالة .

فحمل النعمان سلاحه وما قوي عليه، وأخذ يطوف بقبائل العرب ليحموه من كسرى فيمتنعون .

وأخيراً نزل في ذي قار في بني شيبان سراً ، وهي قبيلة من بكر ، فلقي هانىء بن قبيصة الشيباني ؛ وكان سيداً منيعاً فاستجار به فأجاره . وقال له : قد لزمني ذمامك ، وأنا مانعك مما أمنع نفسي وأهلي وولدي منه ؛ ثم أشار عليه أن يذهب الى كسرى ويحمل اليه ما استطاع حمله من الهدايا والمال ، فإما أن يصفح عنه فيعود ملكا عزيزاً ، وإما أن يصيبه الموت فيموت كريماً معذوراً ، فترك النعمان أهله وماله عند هانىء ، وذهب الى كسرى معتذراً فقابله بالقرب من المدائن زيد بن عدي ، فقال له : انج نعيم إن استطعت النجاء ، فقال النعمان : لئن عشت لألحقنك بأبيك . فقال زيد : اذهب لقد أخيت لك اخية لايقطعها المهر الأرن . ثم دخل النعمان فحبسه كسرى حتى مات في الحبس .

واستعمل كسرى إياس بن قبيصة الطائي على الحيرة مكان النعمان ، وأمره أن يأخذ أمانات النعمان من هانىء ، فطلبها منه فأبى ، فغضب كسرى ، وانتظر على بني شيبان حتى أنزلهم القيظ بذي قار ، وأرسل اليهم جيشاً كثيفاً يحاربهم به .

ولكن بني شيبان وأحلافها من العرب صمدوا لجيش الفرس، وأخذ هانىء يحرض قومه على الحرب ويخطب فيهم : « يا معشر بكر : هالك معذورخير من ناج فرور ، إن الحذر لا ينجي من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الاعجاز والظهور ، يا آل بكر قاتلوا : فما للمنايا من بد » . وقام حنظلة بن ثعلبة فقطع وضين [1] راحلة امرأته ، وفعل الناس مثله ،

---

(١) الوضين : بطان منسوج يشد به الرحل .

فوقع نساؤهم على الأرض ، وقال : ليقاتل كل منكم عن حريمه ، وضرب على نفسه قبة ، وأبى ألا يبرحهـــا حتى تفر القبة ، وقطع الفرسان أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف . وقالت امرأة من عجل :

إن تَهزموا نعانقْ ونفرش النمارقْ

أو تُهزَموا نفارق فراق غير وامقْ

والتحم الفريقان في معركة حامية ، دارت الدائرة فيها على جنود كسرى وأحلافه من العرب، وهزموا هزيمة منكرة، وانتصر العرب انتصاراً مؤزراً ، وتعقبوا جنود كسرى ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً .

وكان يوم ذي قار في مبعث الرسول صلوات الله عليه ، وقال فيه : هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم . وبي نصروا .

وقد افتخر الشعراء بهذا النصر العظيم ، فقال أعشى قيس :

لو أن كلَّ معَـــدٍّ كان شاركنا

في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف

لمـــا رأونا كشفْنا عن جماجمنا

ليعلموا أننـــا بكر فينصرفوا

لمـــا أمالوا إلى النُّشَّاب أيديهم

مِلْنا ببيض فظل الهامُ يُقتطف

وخيل بكر فما تنفك تطحنهم
حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

وقال العُدَيل بن الفَرْخ العِجلي :

ما أوقد الناس من نارٍ لمكرمة
إلا اصطلينا ، وكنا موقدي النار

وما يَعدُّون من يومٍ سمعتُ به
للناس أفضلَ من يومٍ بذي قار

وقال ابو تمام :

وأنتم بذي قارٍ أمالتْ سيوفُكم
عروشَ الذين استرهنوا قوسَ حاجب[1]

وفي يوم ذي قار كتب لقيط الأيادي الى بني شيبان :

---

(١) أجدبت مضر سبع سنين ، فذهب حاجب بن زرارة سيد بني تميم الى كسرى ، فشكا اليه الجهد في أنفسهم وأموالهم ، وطلب أن يأذن لهم فيكونوا في حد بلاده حتى يعيشوا ويحيوا . فقال له كسرى . إنكم – معشر العرب – غدر حرصاء على الفساد ، فان أذنت لهم أفسدوا البلاد ، وأغاروا على الرعية وآذوهم . فقال له حاجب . فاني ضامن للملك ألا يفعلوا . قال : ومن لي بأن تفي بما تقول ؟ قال أرهنك قوسي بالوفاء بما ضمنت لك فقبل كسرى ، وأذن للعرب أن يدخلوا الريف . وهي الأرض فيها الزرع والخصب ، ولما مات ذهب ابنه عطارد الى كسرى فاسترد قوس أبيه .

قومـــوا قيـــاما على أمشاط أرجلكم
ثم افزعوا قـــد ينال الأمن من فـزعا

وقـــلدوا أمـــركم ، لله دركم
رحْبَ الذراع بأمر الحرب مضطلعـــا

لا مُترفـــاً إن رخـــاء العيش ساعده
ولا إذا عض مكروه به خشعـــا

ما زال يحلب هذا الدهـــر أشطـره[1]
يكون متبعـــاً طـــوراً ومتبعـــا

يوم خزازى [2]

وهو من أعظم أيام العرب في الجـاهلية ، وكان لمعد على مذحج ، وكانت معد لا تستنصف من اليمن ، ولم تزل اليمن قاهرة لهـا ، حتى كان هذا اليوم فانتصرت معد فيه ، وصارت لها المنعة ولم تزل كذلك حتى جاء الاسلام .

وكان السبب في ذلك اليوم أن أبرهة الحبشي ولى زهير بن جناب الكلبي

---

(١) حلب فلان الدهر أشطره ، أي خبر ضروبه ، يعني انه مر به خيره وشره .

(٢) خزازى وخزاز . جبل ما بين البصرة الى مكة . فنسب اليـــوم اليه لأن المعركة كانت بجواره .

وراجع اخبار هـذا اليوم في ٣١٠ ج ١ ابن الأثير ، ٣٦٤ ج ٣ العقـد الفريد و ٤٢٨ معجم البلدان .

على العدنانيين ، فامتنعوا عن الأتاوة له ، ووقع بعض العدنانيين أسرى عنده ، فذهب وفد من وجوه معد إليه ليطلق سراحهم ، فأطلقهم ولكنه احتجز بعض أعضاء الوفد ، فثارت معد ، وقادهم كليب بن ربيعة ومعهم أحلافهم . وسار بهم الى خزازى فأوقد عليه النار ، وأقبلت مذحج الى خزازى ، فاقتتل الفريقان قتالا شديداً هزمت فيه مذحج هزيمة منكرة ، وصارت العزة والمنعة في معد منذ هذا اليوم بعد أن كانت لليمن والعنصر القحطاني ، وبذلك كان هذا اليوم من الايام الفاصلة ، كما كان يوم ذي قار فاصلا بين العرب والفرس .

ويكاد يكون ذلك معجزة للاسلام ونبي الاسلام ، فقد اكتسب العدنانيون القوة والمنعة والمجد بعد أن انتصروا على القحطانيين في يوم خزازى ثم على الفرس في يوم ذي قار ، ليؤهلهم الله لظهور رسالته ونبيه الكريم فيهم .

وفي هذا اليوم يقول السفاح التغلبي :

ونارٍ بتُّ أوقد في خزازى
هديت كتائباً متحيراتِ

ويقول ابن الحائك :

كانت لنا بخزازى وقعةٌ عجب
لما التقينا وحادى الموت حاديها
مِلْنا على وائل في وَسْط بلدتها
وذو الفخار «كليب» العز حاميها

ويقول عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته يفتخر بقومه :

ونحن غــداة أوقِد في خَزَازَى
رَفَــدْنا فــوق رِفْد الرافدينا
وكنــا الأيمنين إذ التقينــا
وكان الايسرين بنــو أبينــا
فصالوا صــولة فيمــن يليهم
وصُلْنا صــولة فيمن يلينــا
فآبوا بالنِّهــابِ وبالسبــايا
وأُبْنــا بالملوك مصفدينــا

حرب البسوس[1]

وقعت هذه الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل، ومكثت أربعين عاماً ، وقعت فيها أيام مشهورة ، وهي من أشهر أيام العرب وحروبهم ، وسببها تافه صغير .

(١) راجع أخبار هـذا اليوم في ٧٧٣٠ النقائض طبعـة اوربا ، ٥٣٢ ج الأغاني ، ١٨٣ ج ١ ابن الأثير ، ٣٤٢ ج ١ مجمـع الأمثال ، ٣٤٨ ج ٣ العقـد الفـريد ، ١٣٩ ج ١ معجم البلدان ، ٥٩ و ٦١ و ٩٩ سرح العيون ، ١٥١ و ١٦٠ و ٢٤٦و ٢٧٠ شعراء النصرانية ، ٤٣٥ ج ١ خزانة الادب ، ٢١٤ ج ٥ نهاية الأرب .

فقد كان كليب بن ربيعة (٤٤٠–٤٩٤م) من أعزالعرب وأعظم ساداتهم ، اجتمعت عليه معد كلها بعد أن هزم جموع اليمن في خزازى .

فدخله زهو شديد ، وبغى على قومه لعزته وانقياد معد له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب ، ولا يمر أحد بين يديه ، ولا يحتبي أحد في مجلسه، ولا تورد إبل مع إبله، ولا توقد نار مع ناره ، وكان يحمي الوحش فلا يهاج ، والطير فلا يصاد ، وكان يقذف بكلبه في الكلأ فلا يجرؤ أحد أن يرعاه . وهكذا حتى ضرب به المثل فقيل : أعز من كليب وائل .

وتزوج كليب جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان، فدخل عليها يوماً وقال لها : هل تعلمين على الارض أمنع مني ذمة ؟ ، فقالت نعم ، أخواي جساس وهمام ، فخرج غاضباً ، وأعاد عليها الكرة ، فكانت تجيبه بما أجابت به ، فغاظه ذلك ، وكان لهـا عشرة إخوة ، أصغرهم جساس . وله خـالة تعرف بالبسوس .

فنزلت خالة جساس عليه ؛ ومعها ابن لها ، وناقة تدعى « سراب[1] » .

ومرت إبل لكليب بسراب ناقة البسوس وهي معقولة ، فقطعت عقالهـا وتبعت الإبل واختلطت بهـا ؛ فرآهـا كليب مع إبله وهو على الحوض ومعه قريش وكنانة ، فأنكرها فقال : لمن هذه ؟ قالوا : لخالة جساس ، فرماها بسهم فاختلط دمهـا بلبنها ، فلـا رأتهـا البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت : واذلاه، واجاراه . فأرضاها جساس، ووعدها بعشر بدل ناقتها، ولكنها أخذت تنشد بعض الأبيات تقول فيها :

أيا سعد لا تُغرر بنفسك وارتحل

فإنك في قوم عن الجـــار أموات

---

(١) وفي المثل . أشأم من سراب وأشأم من البسوس .

فأوغرت صدر جساس ، ولكنه كظم غيظه، حتى منعه كليب من كل ماء يرده ، وعند ذلك لم يملك نفسه من الغضب ، وأصر على قتل كليب . فتربص له هو وعمرو بن الحارث بن ذهل فدخلا على كليب ، وقال له جساس : يا أبا الماجدة : عمدت الى ناقة جارتي فعقرتها ، ومنعتنا من كل ماء نرده فقال له ما مانعي أن أذب عن حماي ؟ فازداد جساس غضباً ، فطعنه برمح كان معه فقتله . فقال كليب وهو في النزع الاخير لجساس : أغثني بشربة ماء فقال : ما عقلت استسقاءك الماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه فالتفت كليب الى عمرو وقال له : يا عمرو أغثني بشربة ماء ، فنزل اليه وأجهز عليه [1] وفي ذلك يقول الشاعر :

المستجير بعمـــر عنـد كربته

كالمستجير من الرمضاء بالنـــار

ذاع خبر مقتل كليب في كل مكان ، واستعظمته العرب ، وشمر أخوه المهلهل للأخذ بثأره ، وارتحلت بنو شيبان حتى نزلت بماء يقال له النهي ، وكانت من قبل مجاورة لحي كليب .

ولما قتل كليب اجتمع نساء الحي للمأتم ، فقلن لأخت كليب : رحلي جليلة عن مأتمك، فقالت لها: يا هذه اخرجي عن مأتمنا فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا ؛ فخرجت وهي تجر أعطافها ، فلقيها أبوها مرة ، فقال : ما وراءك يا جليلة ؟ فقالت : ثكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد خليل ، وقتل أخ عن قليل ، وبين ذين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد ؛ فقال لها : أو يكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات، فقالت جليلة : أمنية مخدوع ورب الكعبة: أبالبدن [2] تدع لك تغلب دم ربها ؟

---

(١) قتل كليب عام ٤٩٤ م قبل الهجرة بنحو ١٢٥ سنة .

(٢) جمع بدنة وهي من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى الى مكة .

ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رحل المعتدي ، وفراق الشامت ، ويل غدا لآل مرة من الكرة بعد الكرة ، فبلغ قولها جليلة ، فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقب وترها ؟ أسعد الله جد أختي ، أفلا قالت : نفرة الحياء ، وخوف الاعتداء ، ثم أنشأت تقول :

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا   تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبينت الذي   يوجب اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أختُ امرىء ليمت   على شفق منها عليه فافعلي
جلَّ عندي فعلُ جسّاسٍ فيا   حسرتي عما انجلت أو تنجلي
فعل جساس على وجدي به   قاطعٌ ظهري ومُدْنٍ أجلي
يا قتيلاً قوّض الدهرُ به   سقف بيتي جميعاً من عل
هدَم البيت الذي استحدثتهُ   وانثنى في هدم بيتي الأول
ليس من يبكي ليومين كمن   إنما يبكي ليوم ينجلي
إنني قاتلة مقتولة   ولعل الله أن يرتاح لي

ثم قال قوم كليب بعضهم لبعض : لا تعجلوا على إخوتكم حتى تعذروا بينكم وبينهم ، فانطلق رهط من أشرافهم وذوي أسنانهم حتى أتوا مرة بن ذهل والد جساس فعظموا ما بينهم وبينه وقالوا : اختر منا خصالاً : إما أن تحيي لنا كليباً ، وإما أن تدفع إلينا جساساً فنقتله بصاحبنا ، وإما أن تدفع إلينا هماماً ، وإما أن تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء من دمه .

فسكت وقد حضرته وجوه بني ابن وائل ، فقالوا : تكلم غير مخذول ، فقال : أما جساس فغلام حديث السن ركب رأسه ، فهرب حين خاف ، فلا علم لي به ، وأما همام فأبو عشرة وأخو عشرة ، ولو دفعته إليكم لصيح بنوه في وجهي، وقالوا دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره ؟ وأما أنا فلا اتعجل الموت، وهل تزيد الخيل على ان تجول جولة فأكون أول قتيل ؟

ولكن هل لكم في غير ذلك ؟ هؤلاء بني ، فدونكم أحدهم فاقتلوه به ، وإن شئتم فلكم الف ناقة تضمنها لكم بكر بن وائل ، فغضبوا وقالوا : لقد اسأت ، تبذل لنا ولدك وتسومنا اللبن من دم كليب .

دفنت تغلب سيدها ، وقام اخوه المهلهل على قبره يرثيه بقصيدته :

أهـاجَ قذاة عيني الادكار ... هدوءاً فالدموع لها انحدار
وصار الليل مشتملاً علينا ... كأن الليل ليس له نهـار
أجبني يا كليب خـلاك ذمٌّ ... لقد فُجعت بفـارسها نِزَار
سقاك الغيث إنك كنت غيثاً ... ويسراً حـين يلتمس اليسار
كأني إذ نعى الناعي كليباً ... تطـاير بين جنبي الشرار
تتـابع إخوتي ومضوا لأمر ... عليه تتابع القوم الخيـار
خذ العهد الأكيد عليّ عمري ... بتركي كل ما حـوت الديار
وهجري الغانيات وشربَ كأس ... ولبسي جبـة لا تُستعـار
ولست بخالع درعي وسيفي ... الى أن يخلع الليل النهـار

وإلا أن تبيـــد سراة بكر   فلا يبقى لهـــا أبـدا أثار

وظل طول حياته ينظم القصائد حزناً عليه ورثاء له .

تفرقت القبـائل ، ووقعت الحرب ، وشملت كثيراً من أحيـاء العرب ، وكان من أيامهـا يوم النهي[1] لتغلب على بكر ، وفي يوم عنـيزة [2] تـكافـأ الفريقان ، وانتصرت تغلب على بكر في يوم القصيبات [3] والذنائب[4] أيضاً ويقول المهلهل في ذلك قصيدته التي أولها :

أليلتنـا بذي حُسُم أنـيري   إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فإن يك بالذنائب طال ليلي   فقد أبكي من الليـل القصير

وأسرف مهلهل في الانتقـام والقتل والأخـذ بالثأر إسرافاً شديداً ، ولم يبال بقبائل بكر جميعاً . وكان أكثر بكر قـد قعد عن نصرة بني شيبان ، واستعظموا قتل كليب . وممن اعتزل الحرب : الحـارث بن عباد الذي قال : هذا أمر لا ناقة لي فيه ولا جمل . حتى عرض به بعض الشعراء ، فقال :

يا بؤس للحـــرب التي   وضعت أراهـــط فاستراحوا

والحرب لا يبقى لجـــا   حمهـــا التخيل والمراح

---

(١) ماء لبني شيبان .

(٢) موضع في اليمامة .

(٣) موضع في ديار بكر وتغلب .

(٤) موضع على طريق البصرة الى مكة .

إلا الفتى الصَّبَّـــار في النجدات والفرس الوقاحُ

وجعلت « تغلب » تطلب جساساً حتى قتلته . فأرسل مرة أبو جساس الى المهلهل : إنك قد أدركت ثأرك ، وقتلت جساساً ، فاكفف عن الحرب، ودع اللجـــاج والإسراف . فهو أصلح للحيين ، وأنكأ لعدوهم . فلم يجب الى ذلك .

واجتمع بنو بكر الى الحارث بن عباد وقالوا له : لقد فني قومك. فأرسل بجيراً ابنه الى مهلهل سعياً للصلح، فقتله مهلهل، وقال له : بؤ [1] بشسع نعل كليب ، فلما بلغ قتله الحـارث وكان من أحلم الناس ، قال : نعم القتيل قتيلا أصلح بين ابني وائل . فقيل له : إنما قتله بشسع نعل كليب، فغضب الحارث، وركب فرسه النعامة وتولى قيادة بكر في الحرب . وقال :

قربا مربط النعـــامة مني [2]
لَقِحتْ حربُ وائل عنْ حِيالِ [3]

لا بجيرٌ أغنى قتيلاً ولا رهــ
ـط كليب تزاجروا عن ضـــلال

---

(١) يقال . أبأت فلانا بفلان فباء به . إذا قتله به ، والشسع . السير الذي يدخل بين الأصبعين .

(٢) المربط . ما ربطت به الدابة . والنعامة . اسم فرس .

(٣) لقحت . حملت . عن . بمعنى بعد . الحيال أن يضرب الفحل الناقة فلا تحمل والمراد أن حرب وائل هاجت بعد سكون .

لم أكن من جناتهـا علم الله

وإني بحرهـا اليوم صـال

قـربا مربط النعـامة مني

إن قتل الأحرار بالشسع غال[1]

قـد تجنبت وائلاً كي يفيقـوا

فأبت تغلـب عليّ اعتزالي

يا بجير الخيرات لا صلح حتى

نملأ البيد من رؤوس الرجال

وكان اليوم الذي شهده الحارث بن عباد هو يوم قضة ، ويسمى : يوم تحلاق اللمم لأن بكراً حلقت رؤوسها استبسالاً للموت ، وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم ، إذ أشار عليهم الحارث بأن تشاركهم النساء في الحرب ، فأخذت كل امرأة إداوة فيها ماء وعصا ، فاذا مرت بجريح منهم وعرفته بعلامته هـذه ، سقته ، وإن كان من أعدائهم أجهزت عليه بالعصا . واقتتل الأبطال فيه قتالاً شديداً حتى انهزمت تغلب وانتصر البكريون انتصاراً عظيماً، حتى قال الحارث بن عباد لسعد بن مالك الذي عرض به في شعره لما اعتزل الحرب : أتراني ممن وضعته الحرب ؟ فقال سعد : لا ، ولكن لا مخبأ لعطر بعد عروس . وفي يوم تحلاق اللمم يقول طرفة :

(١) غال . يعني رخيص من الأضداد .

سائلوا عنا الذي يعرفنا   بقوانا يوم تحـــلاق اللمم

وفيه أسر الحـــارث مهلهلا وهو لا يعرفه ، فقال له : دلني على المهلهل وأخلي عنك ، فقال له المهلهل ، وعليك العهود بذلك إن دللتك عليه ؟ قال: نعم ، قال : فأنا المهلهل . فجز ناصيته وتركه .

وخرج المهلهل فلحق بأرض اليمن ، وعاش هناك حينـاً : وملت تغلب الحرب فصـالحت بكراً ورجعوا الى بلادهم ، ولم يحضر المهلهل صلحهم ، ثم اشتاق الى أهله وقومه، فعاد . وفي الطريق قرب من قبر أخيه كليب، فخنقته العبرة ، وغشي عليه ، وعاد الى بلاده ثم مات بعد قليل .

وهكذا كان مصير هذه الحرب التي أفنت كثيراً من أحياء العرب، وظلت نحواً من أربعين عاماً لا تهدأ لها نار ، ولا تنطفيء لها جذوة ، وتركت أحقاداً كثيرة في الصدور ، لم يذهب بها الصلح والسلام .

يوم حليمة :

بين المناذرة والغسانيين[1]

وهو من أيام العرب المشهورة ، وضرب به المثل فقيل : مـا يوم حليمة بسر ، وقال النابغة في وصف السيوف : يشير اليه :

---

(١) هو للحارث الأعرج بن جبلة ملك العرب بالشام على المنذر بن المنذر بن ماء السماء ملك العرب بالحيرة . وحليمة هي بنت الحارث .

وراجع أخباره في : أيام العرب ، ٣٢٨ – ٣ ابن الاثير ، ١٨٧ المفضليات ، ٣٣٠ ج ١ معجم البلدان ٢٠٣ ج ٣ خزانة الادب ، ٢٤٨ ثمـار القلوب ، رغبة الآمل من شرح الكامل للمرصفي ، ٤٠٢ ج ٢ مجمع الامثال .

تُخُيِّرْنَ من أزمـــان يوم حليمة
الى اليوم ، قَد جُرِّبْنَ كل التجارب

وينسب الى « حليمة » بنت الحارث الأعرج الغساني ، وكانت حليمة من أجمل النساء وألطفهن ، وكان بين إمارة الحيرة وأمرائها المناذرة اللخميين وبين إمارة الغساسنة بالشام خصومات سياسية كثيرة ، وعداء متوارث قديم ، وكان يزيد من هذه الخصومات وذلك العداء اختلاف المصالح والسياسة بين دولتي الفرس والروم اللتين توجهان شؤن الحكم في هاتين الإمارتين العربيتين .

فقعد الحارث الغساني يوماً في قصره ، ودعا ابنته « حليمة » فأعطاها طيباً وأمرها أن تطيب من مرّ بها من فرسانه وجنده الذين استنفرهم لقتال المناذرة (١) فجعلوا يمرون بحليمة وهي تطيبهم ، ثم نادى يا فتيان غسان : من قتل ملك الحيرة منكم زوجته ابنتي ، فقال لبيد بن عمرو الغساني : أنا قاتل ملك الحيرة أو مقتول دونه لا محالة ، ولست أرضى فرسي فأعطني فرسك ، فأعطاه الملك فرسه ، وسار مع الجند ، ونشبت المعركة وحميت الحرب ، فقتل لبيد المنذر ملك الحيرة في أثناء القتال ثم قتل قبل أن ينعم بحليمة ، وانهزمت جيوش المناذرة وانصرفت غسان بأحسن الظفر ، وأسروا كثيراً من اللخميين ، وكان لتحميس حليمة للجند أثره في هذا اليوم المشهود، ولذلك نسب اليها .

---

(١) وكانت الحرب لا تهدأ بين المناذرة والغساسنة . ويرجح ان سبب يوم حليمة هو هذه الخلافات السياسية الدائمة بين الامارتين ورغبة الحارث في الانتقام من المناذرة الذين انتصروا على قومه في ايام اخرى ويقال في سببها ان الحارث الغساني خطب الى المنذر ابنته هندا فوعده بها ثم عاد فأخلف وعده وامسكها عنه فنشبت الحرب .

وقيل إنما نسب الى مكان اسمه « مرج حليمة » .

وكان ممن اسرهم الحـارث مائة [1] من بني تميم فيهم شأس بن عبدة اخو علقمة بن عبدة الشاعر الجـاهلي الفحل المشهور المتوفى عام ٥٦١ م ، وقرين امرىء القيس .

فلما سمع علقمة بأسر اخيه ذهب الى الحـارث مستشفعاً وانشده قصيدته البائية المشهورة :

طحابك قلب في الحسان طروب

بُعَيْد الشباب عصْرَ حان مَشيب [2]

ومنها :

الى الحارث الوهـــاب أعملت ناقتي

لكلـكلها والقصريين وجيـــب [3]

---

(١) راجع ٣١ ج ١ العمدة ايضاً في ذلك طبعة ١٩٢٥ .

(٢) طحـــا به قلبه : ذهب به كل مذهب ، في الحسان . اى في حبهن ، طروب : كثير الطرب . وهو خفة تعرو الانسان من شدة فرح او ترح ، بعيد : تصغير بعد ، حان المشيب : قرب او آن اوانه . يقول لنفسه اضلك قلبك الطروب في حب الحسان بعد ما ذهب شبابك وقرب مشيبك .

(١) أعملت : وجهت ، الكلكل : الصدر ومـــا بين الترقوتين ، القصريان ضلعان تليان الترقوتين ، الوجيب خفقان القلب . أى إنه لشدة إجهادها في السير اشتد نبض قلبها وبان ذلك في كلكلها وقصرييها لقرب القلب منها .

وأنت امرؤ أفضت إليك أمانتي

وقبلك ربتني فضعت ربوب [1]

فلا تحرمني نائلا عن جنـــابة

فإني امرؤ وسط القبـاب غريب [2]

وأنت الذي آثاره في عـــدوه

من البؤس والنعمى لهـــن ندوب

وفي كل حي قـــد خبطت بنعمة

فُحقّ لشأسٍ من نداك ذَنُوبُ [3]

فقال له الحارث : أي والله وأذنبة . ثم أطلق سراح شأس وأطلق معه من أسر من قومه ، وحمله المنح والهـدايا ، تقـديراً لشعر علقمـة ، وقبـولاً لشفاعته .

داحس والغبراء [4] :

وقعت هذه الحرب بين عبس وذبيان ، ودامت أربعين سنة ، لم تنتج لهم

---

(١) أفضت إليك أمانتي أى برزت نحوك وانتهت إليك ، ربتني : ملكتني أرباب من الملوك فضعت حق سرت إليك والربوب جمع رب وهو المالك .

(٢) النائل العطاء يريد به فك أسر أخيه . الجنابة الغربة .

(٣) الذنوب بالفتح النصيب .

(٤) راجع ٥١ جـ ٢ الميداني ، ٢٠٠جـ ١٦ الأغاني ، ٤٥٣جـ ١ الأمالي ، والعقد الفريد، والـكامل لابن الأثير .

فيها ناقة ولا فرس ، لاشتغالهم بالحرب . وكان السبب الذي هاجها أن قيس ابن زهير العبسي وحمل بن بدر الذبياني تراهنـــا على داحس[1] والغبراء أيهما يكون له السبق وتواضما على أن يكون الرهـان مـائة بعير ، وجعلا منتهى الغاية مائة غلوة ، والإضمار أربعين ليلة [2] ، ثم قادوهما الى رأس الميدان ، بعد أن أضمروهما ، وكان في رأس الغابة شعاب كثيرة ، فأكمن حمل بن بدر في تلك الشعاب فتيانا في طريق الفرسين ، وأمرهم إن جاء داحس سابقـاً أن يردوا وجهه عن الغاية ، ثم أرسلوا الفرسين ، فلمـا شارف داحس الغاية وهي (ذات الأصاد) ودنا من الفتية وثبوا في وجهـه وردوه . . وفي ذلك يقول قيس بن زهير :

ألم يأتيـك والأنبـاء تنمى بمـــا لاقت لبون بني زياد

ومنهـا :

كما لاقيت من حمل بن بدر وإخوتهِ على ذات الأصـاد

همو فخروا عليّ بغير فخر وردوا دون غايته جوادي

وتشاحن قيس مع حذيفة أخي حمل على السبق، ثم دفعه حذيفه الى قيس وسكن الناس .

ثم بدا لحذيفة أن يسترد السبق ، وأرسل ابنه مالـكا لذلك فقتله قيس ، وأوشكت الحرب أن تقع فاجتمع الناس واحتملوا ديته الى حذيفة فقبضها ، وسكن الثائرون ، ورضى حذيفة .

---

(١) داحس فحل لقيس بن زهير والغبراء (مهرة) لحمل بن بدر .

(٢) الاضمار شد السرج على الخيل وتجليلها بالاجلة حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها .

ولكن مالك بن زهير أخا قيس كان نازلاً في بني بدر ومتزوجـاً منهم ، فعـدوا عليه فقتلوه ، فاهتـاجت الحرب ، وعظم الخطب ، ورجـع الربيع بن زياد العبسي الى قومه . وكان معتزلاً الحرب ، وســاءه مقتل ابن أخيه مالك بن زهير ، فتصالح مع قيس واجتمعا على قيادة عبس في هذه الحرب . وقال الربيع يرثي مالكا :

من كان مسروراً بمقتل مالك　　فليأت نسوتنا بوجه نهـار
يجد النساء حواسرا يَنْدُبْنَه　　ويقمن قبل تبلج الأَسحار

وحدثت بين عبس وذبيان أيام كثيرة من أشهرها (يوم المريقب) لعبس على ذبيان ، وفيه قتل عنترة بن شداد العبسي الشاعر الفارس المشهور ضمضما المري ، وبلغه أن ولديه يتوعدانه ويسبانه ، فقال في معلقته :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدُرْ
للحرب دائرةٌ على ابني ضمضم
الشـاتمَي عِرضي ولم أشتُمْهما
والنـاذِرَيْن إذا لقيتهما دمي
إن يفعلا فلقد تركت أباهمـا
جَزَرَ السباع وكل نسر قشعم[1]

ومنها يوم (الهباءة) وهو لعبس على ذبيان وفيه قتل حذيفة وحمل ابنا

---

(١) جزر السباع أي : قطعاً للسباع ولكل نسر .

بدر وكثير من أشراف ذبيان ، وقـال قيس بن زهير يرثي القتلى ، وهو أول من رثى عدوه المقتول :

تعلم أن خير النـــاس طراً — على جَفْر الهبـــاءة ما يريم
ولولا ظلمه ما زلت أبكي — عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر — بغى والبغي مرتعـــه وخيم
أظن الحـــلم دل علي قومي — وقد يُستضعَف الرجل الحليم

ثم مـــا زالت نار الحرب بين الحيين تستعر وتتلظى . وأسبـاب البغضة والنفور تزداد لهباً ، وبواعث العدوان تشتد يوماً بعد يوم ، حتى عمت المجاعة وانتشر القحط وحتى كاد يفنى رجال الحيين فسعى الأشراف بالصلح ، وتقدم الحـارث بن عوف وهرم بن سنان المريان ، وتحملا ديات القتلى من أموالهم ، وكانت ثلاثة آلاف بعير تؤدى في ثلاث سنوات ، وبهذا أطفئت هذه النـار التي أوقدت طويلا ، وسكنت هذه الحرب التي كادت تقضي على الأجنـة في بطون أمهـاتها . وقد أنشـأ زهير بن أبي سلمى معلقته في هذا الموقف ، وفيها يقول .

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعد ما
تبزل مـــا بين العشيرة بالدم[1]
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
رجال بَنَوْه من قريش وجرهم

(١) تبزل . تشقق وتفرق .

يميناً لنعم السيدان وجدتمـــا
على كل حال من سحيل مبرم[1]
تداركتما عبساً وذبيان بعدمـــا
تفانوا ودقوا بينهم عطر مَنْشَم[2]
تُعَفَّى الكُلومُ بالمئين فأصبحت
ينجِّمها من ليس فيها بمجرم
ينجمهـــا قـــوم لقـــوم غـرامة
ولم يهريقـوا بينهم مـلء محجم

ثم يقول في التنفير من الحرب ، والتبصير بويلاتها :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمو
وما هو عنها بالحديث المرجم

---

(١) السحيل . الحبل المفتول على طاق واحد ، والمبرم المفتول على طاقين والمراد نعم السيدان دائماً في حالي الشدة والرخاء والحرب والسلم .

(٢) ومنشم امرأة عطارة يضرب بها المثل في الشؤم ، لأن قوماً محـاربين مروا بها وتحالفوا بوضع أيديهم في عطرها فهزموا جميعاً .

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتَضْرَ إذا ضريتموها فتَضْرَمِ(١)

فتَعْرُككم عركَ الرحى بثفالها
وتَلقَحْ كِشَافاً ثم تُنتَجْ فتُتْئِمِ(٢)

(٣) اى تزاد اشتعالاً كلما اشعلتموها .

(٤) الثفال الخرقة توضع تحت الرحى ليقع عليها الطحين . والكشاف ان تلقح النعجة مرتين في السنة ، والاتئام ان تلد توأمين .

الباب الثاني

الأدب الجاهلي

الفصل الأوّل

النثر في العصر الجاهلي (١)

(١)

العرب أمة صناعتها الكلام، ومفخرتها البيان ، فهم أهل لسن وفصاحة، يزدهيهم القول ، وتأخذ بألبابهم البلاغة . ومن هنا أثر لهم من جوامع الكلم ، ونوابغ الأساليب ، وفرائد القول ، ما يعد على وجه الزمن من مآثرهم الخالدة، ومناقبهم الباقية .

والدارس لمأثور كلامهم يرى أنه ينقسم الى قسمين :

---

(١) كلمة جاهلي من الجاهلية المأخوذة من الجهل ضد العلم لما كان عليه العرب من أمية ، او من الجهل ضد الحلم لما كانوا عليه من سفه وطيش وإسراع الى الانتقام ، وشن الحروب لأوهى الاسباب .

أولاً : الشعر الذي يعتمد على الوزن والقافية وسيأتي الحديث عنه .

ثانياً : النثر، وهو لون من الكلام لا تحده غالباً قيود من وزن أو قافية . إنما هو الألفاظ تسيل على أسلات الألسنة ، وتتناثر من الأفواه ، وتفيض بها بديهة حاضرة ، وقريحة مواتية ، وطبيعة طيعة مستجيبة .

(٢)

ونعني بالنثر الذي ندرسه ونهتم به ، النثر الفني الذي يحتفل به صاحبه ، ويصوغه صياغة فنية جذابة مؤثرة، للتعبير عن أجمل المعاني، وأسمى الأفكار ؛ فهو مهذب منقح ، تظهر فيه آثار الفن ، وملامح الموهبة .

ولا نعني به ذلك النوع الذي كان يجري على الألسنة في أمور الحياة العادية، ويتحدث به الناس في شؤونهم الجارية، لا يقصدون فيه الى الإجادة ، ولا الى الجمال الفني ، وهو ما يسمى « لغة التخاطب » .

ولا نعني به ذلك النثر العلمي الذي جد في أواخر عصر بني أمية أو أوائل العصر العباسي ، والذي يستعمل في أداء الحقائق العلمية المجردة ، كما نرى في مؤلفات العلوم المختلفة ، فذلك نوع ليس من الادب ، وإن كان الادب يعنى به كأثر من آثار العقلية التي تُنشىء الادب ، ولأنه مغذي الثقافة الفكرية والادبية ، ولأنه يصقل مواهب الاديب ، ويمده بزاخر الافكار والمعاني والموضوعات . وأحياناً يكون هذا النوع من النثر أدباً إذا أدى الحقائق العلمية في أسلوب رائع ، وعرض جذاب ، وتصوير بليغ .

والذي يستعرض نماذج النثر الادبي عند الجاهليين يجد أنه كان يأخذ هذه الألوان المختلفة :

١ – فتارة نراه كلاما مرسلاً غير مقيد في فقراته[١] بوزن أو قافية ، كخطبة أكثم بن صيفي التي يقول فيها : « إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذي يدعو اليه حقاً فهو لكم دون الناس، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه، والستر عليه» ويسمى هذا اللون من النثر « مرسلا » :

٢ – وتارة يجيء الكلام متحداً في فواصله[٢] وزناً دون اتفاق في القافية كما في قوله تعالى « **ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة** » . وكما قال مرثد الخير الحميري : « ... فتلافيا أمركما وأنتما في فسحة رافهة ، وقدم واطدة ، والبُقيا ُمعرضة ، والمودة مثرية » ويسمى هذا النوع « مزدوجاً » . ويسميه البديعيون « موازنة » .

٣ – وأحيانا تتحد فواصله في الحرف الأخير وهو ما يسميه بالقافية . مثل خطبة قس التي يقول فيها : « ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ... الخ » ويسمى هذا النوع بالسجع .

فإذا اتفقت الفواصل في الوزن والقافية كان هذا سجعاً أو ازدواجاً . مثل قوله تعالى : « **فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة** » . وكما يقول المأمور الحارثي : « أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب، ونجوم تسري وتعزب » .

وللسجع في النفوس تأثير شديد، وعلى الأسماع وقع ورنين ، فهو يستخف القلوب ، ويستهوي الألباب ، ويحدث في السامعين نشوة وأريحية . إذ هو

---

(١) الفقرة الجملة من الكلام .

(٢) الفاصلة الكلمة الاخيرة من الجملة .

بالغنـاء أشبه ، والى الشعر أقرب . ومن هنـا قـالوا إنه مـأخوذ من سجع الحمامة أى غنائهـا على طريقة واحدة . ولهذا لا نعجب إذا رأينا الكهان يعتبرون هذا السجع سيوفهم المشرعة ، وأدواتهم الطيعة الى غـزو القلوب ، وامتلاك النفوس .

وأحسن السجع ما تساوت قرائنه [1] كقوله تعالى « **والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا** » . ثم مـا طـالت قرينته الثانية كقوله تعالى : « **والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى** » . ثم مـا طالت قرينته الثالثة كقوله تعالى « **خذوه ، فغلوه ، ثم الجحيم صلوه** » . وكرهوا أن تكون الفقرة اللاحقة في السجع أقصر من السابقة قصراً كبيراً .

وإنما يحسن السجع إذا طلبه المعنى، واستدعاه المقام، وبرىء من التكلف، فكانت ألفاظه تابعة لمعانيه ، وكان لكل فقرة منه معنى ، وكانت ألفـاظه متخيرة . وإلا كان معيباً .

والأصـح أنه يجـوز تسميـة بعض آيات القـرآن سجعـاً ، ويؤيد ذلك أبو هلال ، وابن سنان ، وابن الأثير ، خلافـاً للباقلاني وأنصاره الذين يرون تسمية الجمـل القرآنيـة فـواصل ، ويستدلون على ذلك بقـوله تعـالى : « **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** » ، ومنعاً لتبادر الفهم الى أن القرآن يشبهه شيء من الآثار الادبية ، وإكبـاراً له عن أن يقـال له سجع .

ويقول ابن خلدون : وأما النثر فمنه : السجع الذي يؤتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قـافية واحدة ، ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام

---

(١) القرينة هي الفقرة .

إطلاقاً ولا يقطع أجزاء ، بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها، ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم . . . وأما القرآن وإن كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين ، وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً ، بل تفصيل آيات ينتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها [١] .

---

(١) ص ٥٦٧ مقدمة ابن خلدون .

الفصل الثاني

حظ الأدب الجاهلي من النثر الفني

(١)

والأدباء يختلفون في النثر الفني : هل وجد في العصر الجاهلي او لم يوجد إلا بعد العصر الجاهلي ؟ وتضطرب أراؤهم في ذلك اضطراباً كثيراً .

أمـــا أدباء العربية المتقدمون ، والكثير من الأدباء المعاصرين أيضـاً ، فيؤمنون بأن العصر الجـاهلي عرف النثر الفني معرفـة كبيرة ، ويقولون إن العرب في ذلك العهـد كانت لهم صور كثيرة من النثر الفني ، وكانوا يجيدون هذا الفن الأدبي إجادة بالغة .

ودليلهم على وجود النثر الفني في الجاهلية هو :

١ – إن كان عند كثير من الأمم القديمـة كالفـرس والهنـود وقدمـاء المصريين نثر فني قبل الميلاد بقرون كثيرة ، فلم لا يكون للعرب نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون ؟ .

٢ — نزول القرآن الكريم يوجب الحكم بأن العرب في جاهليتهم كان لهم نثر فني، وكان يجيدونه ويبلغون فيه غاية البيان والفصاحة ، وإلا فكيف يتحداهم الله عز وجل بفن من البيان لم يعرفوه ؟ .

٣ — بقاء بعض صور من النثر الفني للعرب الجاهليين في مصادر الادب العربي وأمهات كتبه ، من خطابة جيدة ، ونصائح بليغة وإن كان الكثير من النثر الجاهلي قد ضاع لعدم تدوينه بالكتابة ، والنثر أحوج الى التدوين بالكتابة من الشعر ، لأن الشعر يسهل حفظه في الصدور ، وتعين القافية والوزن على تصحيحه وروايته . أما النثر فيشق حفظه ويصعب تناقله . ولم تكن الكتابة معروفة في الجاهلية إلا للقليل من الناس، الذين كانوا يستخدمونها لأغراض سياسية وتجارية لا لأغراض أدبية [١]، والسبب في ذلك أمية العرب وبداوتها وأنها لم تكن أمة ذات حضارة أو ثقافة فكرية واسعة . ولذلك كان أكثر أدبها ارتجالا وما يشبه الارتجال .

يقول الجاحظ : وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرية . وإنما هو أن يصرف همه الى الكلام ، والى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر [٢] .

٤ — والدليل الرابع على وجود النثر الفني في العصر الجاهلي هو وجود صحائف من الكتب الدينية عند بعض طبقات العرب ، من اليهود والنصارى ودعاة الحنيفية دين ابراهيم واسماعيل .

---

(١) ص ٥ الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف .

(٢) ٢١ جـ ٣ البيان والتبيين للجاحظ — الطبعة الثانية .

أما المستشرقون فيرون ان النثر الفني لم يعرفه عرب الجاهلية ، ولم يشهده عصر صدر الاسلام ، وإنما نشأ على يد ابن المقفع م ١٤٣ هـ في صدر العصر العباسي الأول، وممن ذهب الى ذلك : المسيو مرسيه الفرنسي[١]، والمستشرق جب الانجليزي ، وغيرهما .

ويؤيد ذلك بعض الباحثين المعاصرين[٢]، كالدكتور طه حسين ، ويدعمون ذلك بأدلة منها :

١ — أن عيشة العرب الأولين لم تكن توجد النثر الفني لأنه لغة العقل ، على حين سمحت بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال .

٢ — عدم انتشار الكتابة في العصر الجاهلي ، وهي عماد النثر الفني .

٣ — والقرآن — الذي يستدلون به على معرفة الجاهليين للنثر الفني ، ووجوده عندهم — لا يصح عده من النثر كما لا يصح جعله شعراً ، لأنه نمط أدبي مستقل ليس له شبيه في الآثار الأدبية .

يقول الدكتور طه : « والواقع أننا لا نستطيع بحال من الأحوال — مهما نحرص على أن نكون من أنصار العصر الجاهلي — أن نطمئن الى أن هذا العصر كان له نثر فني »[٣] . فالعصر الجاهلي لم يكن له نثر بالمعنى الذي حددته

---

(١) راجع ص ٢٣ ج ١ النثر الفني لزكي مبارك .

(٢) يتفق هؤلاء مع المستشرقين في إنكار وجود النثر الفني عند العرب في الجاهلية ، ولكنهم يختلفون معهم في تحديد مبدأ نشأة النثر الفني في الادب العربي فليس ابن المقفع هو اول من ظهر النثر الفني على يديه كما يرى المستشرقون وإنما عرفه الادب العربي في اول القرن الثاني الهجري كما يرى هؤلاء المعاصرون من ادباء العربية .

(٣) ٣٠ و ٣١ من حديث الشعر والنثر لطه حسين .

ومع ذلك فقد كان له نثر خاص، لم يصل الينا: لضعف الذاكرة ، وخلوه من الوزن ، وهذا النثر هو الخطـابة [1] فـأول القرن الثاني للهجرة هو الذي شهد ظهور الحيـاة العقلية ، وهو الذي شهد مظهر الحيـاة العقلية وهو نشأة النثر الفني[2] .

(٢)

والحق أنه كان للعرب قبل الاسلام نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم ، وحدة تفكيرهم ، ولكنه ضاع لأسباب منها : شيوع الأمية ، وقلة التدوين ، وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جـاء بهـا الاسلام . والقرآن الكريم شاهد صدق على وجود النثر الفني قبل الاسلام ، ويعطي فكرة عـــامة عن ازدهاره وقوته في هذا العصر الجاهلي ، وما يقال من أنه ليس نثراً مغـالطة لا تجوز على عقل .

وأغلب الظن أن هؤلاء الذين يجعلون نشـأة النثر الفني على يد ابن المقفــع إنما يريدون إسناد ذلك الفضل لأثر وراثاته الفارسية ، وأن أدبنا العربي مدين في ذلك للعقلية الفارسية ، وهذه شعوبية حديثة نرى مظهرها واضحـــا في إنكار فضل العرب، ونسبة كل مكرمة أدبية او غير ادبية لغيرهم من العناصر الاجنبية ... ثم إن الكتابة إنما يحتاج اليها النثر الفني في تدوينه لا في نشأته كما يسلم بذلك العقل .

ونخلص من ذلك كله الى إثبات رأينـا الذي رأيناه ، وهو ان النثر الفني وجد قبل الاسلام وقبل اتصال العرب الثقافي بالفرس واليونان بأمد طويل .

---

(١) ص ٣٢ المرجع نفسه .

(٢) ص ٤٩ المرجع نفسه .

(٣)

ولنوضح أخيراً موقف الدكتور طه من النثر الجاهلي . يرى الدكتور .

١ – أنه لم يعرف الجاهليون النثر الفني ، وإنما عرفوا ألوانا أخرى من النثر ، من أسجاع ، وأمثال ، وخطابة لم تكن شيئاً ذا غناء [١] وسجع كهان [٢] . وهذه بينها وبين النثر الفني بون بعيد .

٢ – ويرفض الدكتور قبول ما ينسب لعرب الجنوب من نثر ، من شتى هذه الأنواع النثرية المروية لأن النثر إنما جاء بلغة قريش التي لم يكن لعرب الجنوب بها علم ، ولأنهم كان لهم لغة معروفة كتبوها وتركوا لنا فيها نصوصاً منثورة كشفها المستشرقون وهي لا توافق لغة قريش في شيء . فكل ما يضاف الى اليمنيين من نثر مرسل او مسجوع او خطابة في الجاهلية عند الدكتور منتحل . أما عرب الشمال فيرى رفض ما يضاف الى ربيعة وغيرها من عرب العراق والبحرين والجزيرة من نثر ويتردد فيما ينسب منه الى مضر ، ويرى أن الكثير منه منتحل [٣] .

ونحن لا نوافق الدكتور على ما ذهب اليه : من إنكار وجود النثر الفني في الجاهلية ولا من التهوين من شأن الخطابة الجاهلية ، وإن كنا نسلم معه بأن بعض النصوص الادبية من النثر الجاهلي قد انتحلت بعد الاسلام .

---

(١) يرى الدكتور أن الخطابة فن اسلامي خالص ويقول : لا تصدق أنه قد كانت العرب في الجاهلية خطابة ممتازة انما استحدثت الخطابة في الاسلام (ص ٣٧٤ الادب الجاهلي) .

(٢) راجع ٣٧٢ – ٣٧٥ الادب الجاهلي لطه حسين ط ١٩٢٧ .

(٣) راجع ص ٣٦٩ من الادب الجاهلي وما بعدها .

الفصل الثالث

الشعر أم النثر أيهما أسبق في الوجود ؟

(١)

أما القدماء من علماء الادب ونقاده في اللغة العربية فيرون أن النثر أسبق من الشعر : لأن الاول مطلق والثاني مقيد، والمطلق أسبق وجوداً من المقيد، وأسهل تناولاً لخلوه من الوزن والقافية .. يقول ابن رشيق : « وكان الكلام كله منثوراً ، فاحتاجت العرب الى التغني بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة .. فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعراً [١] » .

ويرون أن النثر هو أول مـا ظهر من فنـون الادب ، ثم نشـأ الرجز ، ثم الشعر .

---

(١) ص ٥ ج١ العمدة لابن رشيق ط ١٩٢٥ .

ويقولون إن النثر الجاهلي كثير ، ومن مظاهره الخطابة والأمثال والحكم والوصايا والمفاخرات والمنافرات وسجع الكهان ، ولكن أكثره قد فقد لعدم تدوينه لجهل العرب او اكثرهم بالكتابة ، ولذلك قل المروي منه ، بعكس الشعر الذي يسهل حفظه وروايته ، لما فيه من قيود الوزن والقافية مما يجعله عالقاً بالأذهان محفوظاً في القلوب .

(٢)

واستمر هذا الرأي سائداً الى ان ذاعت في اوربا اخيراً نظرية جديدة خلاصتها ان الشعر اسبق في الوجود في جميع الأمم من النثر الفني ، وممن آمن بها ودافع عنها في فرنسا المسيو مرسيه .

ولعل لهذه النظرية اصولاً قديمة من كلام ارسطو في كتابه « الشعر» الذي يقول فيه — كما جاء في الشفاء لابن سينا وهو ترجمة لآراء ارسطو في الفلسفة والخطابة والشعر — ما نصه : « التخيل اسبق في الزمن من التصديق ، فالناس اول ما يسمعون انما يسمعون الأمثال الشعرية التي فيها مشاكلة للأقاويل التخييلية ، ثم يتدرجون الى الخطابة ثم الى البرهان » .

وقد علل نقاد اوربا وادباؤها هذه النظرية بأدلة كثيرة . ولكنها لم تكن موضع الإجماع على أي حال .

وممن أذاع هذا الرأي وآمن به ودافع عنه الدكتور طه حسين وبعض أدبائنا الذين ثقفوا ثقافة اجنبية .

يقول انصار هذا الرأي : إننا نسلم ان النثر العام سبق الشعر في الوجود الادبي ولكننا لا نسلم ابداً ان النثر الفني — وهو ماحوى افكاراً منظمة في عرض جميل جذاب مؤثر ، وصياغة جيدة السبك فصيحة الأسلوب — قد

سبق الشعر في الوجود ، بل العكس هـو الصحيح ، فالشعر هو الذي سبق النثر الفني وأدلتهم على ذلك كثيرة منها :

١ – الشعر في آداب الأمم الأوربية سابق على النثر ، فعند اليونان كانت قصائد هوميروس تنشد ويغنى بها قبل أن يؤلف كتاب ، أو يظهر نثر فني ، وفي الادب الانكليزي نرى أقـــدم الآثار الادبية عند الانكليز القصائد التي تصف أعمال « بيولف » وهي ترجع الى القرن السادس أو السابع الميلادي ، فقد ظلت الأمم تتمتع بأدب الشعر قبل أن ينشأ فيها أدب النثر .

٢ – كثرة الشعراء في العهد الأول لأدب أي أمة من الأمم وزيادتهم زيادة بينة على كتاب النثر .

٣ – الادب المنثور يتطلب معرفة بالكتابة ، والكتابة متأخرة في تاريخ كل أمة ، فقصائد هوميروس انتشرت وذاعت وتناقلها الناس قبل ان تذيـع الكتابة ، ومنشىء الادب المنثور لا بد له من تدوين ما يخطر على فكره .

٤ – الشعر يعتمد على الخيال في حين يعتمد النثر الفني على المنطق والتفكير ، والخيال يسبق التفكير في حياة الافراد والجماعات .

٥ – الجماعات الساذجة نجد عندها كلاماً موزوناً دون ان نجد عندها نثراً فنيـاً صحيحـاً . فالأمم التي لم تأخذ بحظ من الحضارة ، ولم تتعلم الكتابة ، كالزنوج مثلاً ، تقرض الشعر ، دون أن تعرف الكتابة ، والعامة من المصريين ينظمون الشعر بالعامية ، ولا يستطيع الواحد منهم ان يحبر رسالة او يكتب مقالة ، وكذلك سكان البادية هم أبعد الناس عن الكتابة ، وإن كانوا يقرضون الشعر وينشدونه .

٦ – الشعر متصل بالغناء ، فالناس يغنون شعراً قبل ان يغنوا نثراً لأنهم يجدون في الشعر أوزاناً تلائم توقيع الغناء وأنغامه .

وقد خلصوا من ذلك كله بنتيجة اخيرة ، هي ان الشعر العربي وجد قبل ان ينشأ النثر الفني . فإن قيل لهم: إن الخطابة في العصر الجاهلي كانت ذائعة قوية من أزمان بعيدة ؛ قالوا إن الخطابة ، وإن عدت من النثر، إلا أنها أولى مراتبه ، لأن أكثرها ارتجال ، وخال من دقة التفكير وتسلسل المعاني، وهي وإن كانت قديمة في العرب إلا أنها احدث من الشعر على أي حال . فالشعر عندهم هو الأساس الذي بني عليه الادب كله ، وهو الذي نشأ عنه النثر الفني على مر العصور .

(٣)

ونحن لا نوافق هؤلاء على رأيهم ، ولا نقره ، وإنما نؤمن إيماناً جازماً بأن النثر قد سبق الشعر في النشأة الادبية في اللغة العربية وغيرها .

ويؤيد ذلك :

١ — ذهاب كثير من المستشرقين الى ان السجع هو المرحلة الاولى التي عبرها النثر الى الشعر في الادب العربي القديم .

٢ — وجود ألوان من النثر في الادب الجاهلي كالخطابة والأمثال والحكم من أقدم عصور الجاهلية .

٣ — وجود الكتب الدينية السماوية من قديم الأجيال في الأمم التي نزلت بلغاتها ، وذلك قبل ان نسمع بالشعر والشعراء . ولعل هذه الكتب هي التي أدت الى نشأة النثر الفني في العصور القديمة البعيدة قبل ان يوجد الشعر بزمن طويل .

٤ — الشعر مقيد بقيود الوزن والقافية ، والنثر مطلق من هذه القيود ، والمطلق يسبق المقيد في الوجود .

امـا الدليل الأول الذي استدل به هؤلاء المجددون فلا يدل على شيء بل هو إن دل فـإنما يدل على ضيـاع النثر لعدم تدوينه وبقـاء الشعر لأنه يعلق بالحافظة ويخلد بالرواية .

ومن اجل ذلك بقي الشعر وبقيت اخبار الشعراء معروفة ، لم يعف عليها النسيان . وهـو السبب في كثرة الشعراء في العصور الاولى من عصور آداب الأمم وفي زيادتهم على الكتاب ورجال النثر، وبذلك تجد الدليل الثاني منهاراً.

ولعـدم وجود الكتابة في العصور القديمة التي هي وسيلة لتخليد النثر او على الأصح لعدم استخدامها في الاغراض الادبية ضاع اغلب ما لدى الأمم من نثر فني ، فكيف إذاً يستدلون على سبق الشعر للنثر باحتيـاج الادب المنثور للكتابة في تدوينه ؟ وبذلك لا ينهض الدليل الثالث بالحجة . .

وزعمهم ان الشعر يعتمد على الخيال، والنثر على المنطق والتفكير ، صحيح في الاول ، مبالغ فيه في الثاني . فلم لايكون هذا النثر الفني في بدء نشأته قد اعتمد على الخيال ايضاً كالشعر ؟ ولم لا يكون هذا النثر قد اعتمد على المنطق والتفكير على حسب عقلية الأمة وثقافتهـا ومقدار تفكيرها في هذه العصور القديمة ؟ وبذلك لا يؤدي الدليل الرابع الى غاية .

واما ان الأمم التي لم تصعد درجة في الحضارة لها شعر وليس لها نثر فني فخطأ في الرأي ، فإن هذه الجماعات الساذجة يوجد — بجانب مـا لديهـا من شعر — نثر ملائم لعقلياتها ، ومظهره الأمثال والحكم والتجارب والنصائح ، وذلك يشاهد كثيراً في بيئتنا المصرية ، التي يمثل بهـا هؤلاء تأييداً لرأيهم من سبق الشعر للنثر ، وبذلك لا يمكننا التعويل على الدليل الخامس .

واما ان الشعر غني به من قديم قبل ان يغنى بالنثر فمنشأ ذلك ان الشعر اصلح للغنـاء من النثر لموسيقاه وقافيته ، فكيف يتركونه ويغنون بنثر فني لا يلائم الغناء ؟ .

أنواع النثر الجاهلي :

وبعد فالنثر الجاهلي الذي انتهى إلينا ، وسلم من الضياع يتمثل في الحكم والأمثال والخطب والوصايا والمحاورات والمنافرات، والسجع الذي كان الكهان يصطنعونه ويلتزمونه فيما كانوا يتحدثون به الى الناس .

وسنتحدث عن كل نوع من هذه الأنواع لنعرف خصائصه وسماته .

الفصل الرابع

الحِكَمُ وَالأمثالُ الجَاهِلِيّة

الحكمة :

جاء في اللغة ، حكمه أي منعه مما يريد ، ومنه حكمة الدابة لأنها تذللها لراكبها وتمنعها الجماح ، ومنه اشتقت الحكمة لأنها تمنع صاحبها من الآثام والرذائل [1] .

والحكمة : قول بليغ موجز صائب ، يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ، ويتضمن حكماً مسلماً ، تقبله العقول ، وتنقاد له النفوس والمشاعر .

وكان للعرب في الجاهلية حكماء شهروا بأصالة الرأي ، وبعد الغور ، ودقة التفكير ، والنظر الصائب ، والفهم الصحيح للحياة واحداثها وتجاربها ، وتنطلق ألسنتهم بالحكمة البليغة الرائعة ، كلما حدث حادث ، او نزل خطب ، أو أخذ رأيهم في مسألة .

---

(١) راجع ١٩٠ جـ ١ أساس البلاغة للزمخشري في مادة حكمة ، وحكمة الدابة ما أحاط بحنكها من اللجام .

وكان العـرب يلتجئون الى هؤلاء الحـكماء في الخصومـات والمفـاخرات والمنافرات ومشكلات الأمور ، بل كان في كل قبيلة حكيم تفزع الى رأيه في الخطوب ، وتستعين بتجاربه في المشكلات ، وتستضيء برأيه في جميع شئون حياتها . وقد يكثر الحكماء في القبيلة، فيكونون عونا لها في الشدائد، وتحلهم القبيلة من نفسها مكاناً علياً . واشتهرت بعض النساء في العصر الجـاهلي أيضاً بالحكمة ، ولهن آثار تروى ، وحكم مخلدة في صحف التاريخ الأدبي .

والحـكم من البلاغة بمـكان كبير : لإيجازهـا ، ووضوحها ، وفصاحتها ، ودقة معناها ، وروعة تأثيرها ، وخصب خيالها ، وصدق تجـاربها الإنسانية العـالية . وهي تكسب الكلام سحراً وحلاوة . وتجعـله مقبولاً من الذوق قريباً الى القلب . مسلماً به من العقل والشعور والوجدان .

وقـد تشتهر الحكمة وتذيع بين النـاس فتصبح مثلاً . وعلى هـذا سـار المؤلفون في الأمثـال ، حيث لم يفرقوا بين مـا صدر في حـادثة معينة مثل (رجع بخفي حنين) أو فاض به لسان حكيم .

ومن أشهر حكماء العرب في العصر الجاهلي :

١ – أكثم بن صيفي التميمي ومن حكمه : رب عَجَلةٍ تهَبُ رَيثاً ، لم يذهب من مالك ما وعظك ، مقتل الرجل بين فكيه ، آفة الرأي الهوى ، ويل للشجي من الخلي ، إن قول الحق لم يدع لى صديقاً .

٢ – عـامر بن الظَّـرِب العُدْواني – ومن حكمه : العقل نائم والهوى يقظان ، من طلب شيئاً وجده ، رب زارع لنفسه حاصد سواه .

٣ – ومن حكمائهم أيضـاً : ذو الأصبع العُدْواني ، وقس بن ساعدة ، وحاجب بن زرارة ، وهاشم بن عبد مناف ، وعبد المطلب بن هاشم .

٤ – ومن حكمائهم لقمان، ويتنازعه العرب والحبشة والمصريون واليهود –

ومن حكمه : رب أخ لك لم تلده أمك ، الصمت حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكي .

٥ — وممن كانت العرب تتحاكم اليه عمرو بن حممة الدوسي[١] . ومن حكيماتهم : هند بنت الخس[٢]، وصحر بنت لقمان، وبنت عامر بن الظرب.

ومن أمثلة الحكم النثرية :

العتاب قبل العقاب — كلم اللسان أنكى من كلم السنان — أول الحزم المشورة — أنجز حر ما وعد — اترك الشر يتركك — رب ملوم لا ذنب له — من مأمنه يؤتى الحذر .

والحكمة كما تكون نثراً تكون شعراً أيضاً . ومن أمثلتها حكم طرفة والنابغة وزهير بن أبي سلمى وسواهم . ومنها .

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه
فليس على شيء سواه بخزان

ولست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث أي الرجال المهذب ؟

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

---

(١) ١٤٣ ج ٢ الأمالي .
(٢) راجع حديثها مع أبيها في ص ١٠٧ ذيل الأمالي .

ومن لا يذد عن عرضه بسلاحه
يُهَدَّمْ ؛ ومن لا يظلم الناس يُظْلَم

ما هو المثل ؟

يعرفه بعض علماء الادب ومنهم المبرد بأنه قول سائر يشبه مضربه بمورده، أو يشبه فيه حال المقول فيه ثانياً بحال المقول فيه أولاً (١) .

ويعرفه آخرون ومنهم المرزوقي بأنه جملة من القول مقتضبة من أصلها ، أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت منه الى كل ما يصح قصده منها من غير تغيير يلحقها في لفظها . . وهذا التعريف الأخير يجمع بين الحكمة والمثل، فالمقتضبة من أصلها هي المثل الذي له أصل وقصة وحادثة معينة ، والمرسلة بذاتها هي الحكمة التي ينطق بها الحكيم بعد طول التجربة والخبرة . . وعليه يسير ابن رشيق . والميداني . وأبو هـــلال العسكري وسواهم . وقد جمع أبو هلال والميداني في كتابيهما كثيراً من ذلك : وجعلاها كلهــا من الأمثال ، سواء كانت من النوع الأول وهو الحكمة ، أو مــن الثاني وهو المثل . فكأن كل مــا ذاع وانتشر مثل في رأيهما ، سواء في ذلك ما صدر في حادثة معروفة ، وكانت له قصة خاصة ، وما نطقت به الحكماء من أقوال حكيمة صائبة (٢) .

والأمثال أصدق شيء يتحدث عن أخلاق الأمــة وتفكيرهــا وعقليتهــا

---

(١) الأصل فيه التشبيه فقولهم مثل بين يديه إذا انتصب معناه أشبه الصورة المنتصبة والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول . فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول (كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً) فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد .

(٢) وسميت الحكمة مثلاً لانتصاب صورها الصادقة في العقول .

وتقاليدها وعاداتها ، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير . فهي مرآة للحياة الاجتماعية والعقلية والسياسية والدينية واللغوية ، وهي أقوى دلالة من الشعر في ذلك لأنه لغة طائفة ممتازة ، أما هي فلغة جميع الطبقات .

ويمتاز المثل بشهرته وإيجازه ودقة معناه ، وإصابة الغرض المنشود منه ، وصدق تمثيله للحياة العامة ولأخلاق الشعب . قال النظام : يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام . إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية . فهو نهاية البلاغة .

والأمثال تكسب الكلام سحراً وجمالاً وبلاغة ، وتستثير النفوس والعواطف وتملك القلوب والمشاعر وتقوم مقام الحجة والبرهان لصحة حكمها وصدق مدلولها . قال ابن المقفع : إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث ؛ وهي تسير سيرورة الشعر ، وتعمل عمله ، وتذيع ذيوعه . قال الشاعر :

ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر

والأمثال يصعب عليك تمييز الجاهلي منها من الاسلامي . لاختلاطها ببعض عند الرواة والمؤلفين ؛ ولكن ما يشير اليه المثل من حادث أو قصة أو خبر مما يتصل بالجاهلية يساعد على معرفة الجاهلي وتمييزه من الاسلامي مثل . ما يوم حليمة بسر[1] . وقد يدل على جاهلية المثل أن يكون مخالفاً لتعاليم الاسلام ومبادئه مثل : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . واليوم خمر وغداً أمر [2] .

---

(١) وحليمة هي بنت ملك غسان ويضرب هذا المثل للأمر المشهور الذي لا يكاد يجهل .

(٢) يضرب في تقلب الأيام ، قاله امرؤ القيس لما علم بمقتل أبيه وكان مع جلسائه يشرب الخمر .

وقد ألف في الأمثال : أبو هلال العسكري م ٣٩٥ كتابه « جمهرة الأمثال » والميداني كتابه « مجمع الأمثـال » وقد جمعه من نحو خمسين كتابـاً ورتبه على حروف المعجم . وفي هذين الكتابين : تختلط الأمثـــال بالحكمة ؛ ويختلط الجاهلي منها بالاسلامي . والفرضي بالحقيقي . ولكنهما على أي حال يصوران البيئة العربية أتم تصوير . وفيهما وصف للكثير من ألوان حيـاة العرب في الجاهلية والاسلام . وهما مصدران من مصادر الأدب العربي وتاريخه .

وكذلك صنع ابن رشيق في فصل (الأمثـال) بالجزء الاول من العمدة .

والامثال إما حقيقية أو فرضية . فالحقيقية : لهـا أصل وقائلها معروف غالباً ؛ والفرضية ما كانت من تخيل أديب ووضعها على لسان طائر او حيوان أو جماد أو نبات أو ما شاكل ذلك .. والفرضية [١] تساعد على النقد والتهكم والسخرية وخاصة في عصور الاستبداد . وهي وسيلة ناجحة للوعظ والتهذيب والفكاهة والتسلية .

والامثال أيضاً إما شعر أو نثر كالحكمة .

ومن الجدير بالتنويه هنـا أن أكثر موارد الامثـال يظهر فيهـا الصنعة والانتحـال ؛ يدل على ذلك اختلاف العلمـاء في مورد المثل الواحد حينـاً . وظهور الاختلاف في القصة حينا آخر .

وفي الأمثال الجاهلية تظهر ألوان كثيرة من الصنعة الفنية حينـاً ، من تشبيه واستعـارة وتمثيل وسجع [٢] ، وتخلو من الصنعة أحيانـاً أخرى وفي

---

(١) ومن المؤلفات في الأمثال الفرضية : كليلة ودمنة ، وسلوان المطاع ، وفاكهة الخلفـاء ، والعيون اليواقظ ، وسواهـــا .

(٢) راجع ص ٦ — من كتاب الفن ومذاهبه في النثر العربي لشوقي ضيف .

الكثير منها ، فلا ترى مظهراً للفن والبيان والإجادة والتثقيف، وسبب ذلك أن الامثال تجري في لغة التخاطب وأحـاديث الناس العامة العادية ، ومن ثم كان الكثير منها خالياً من المهارة البيانية والصناعة الفنية .

هذا والأصل في الأمثال ألا تكون مصقولة ولا مصنوعة لأنهـا من لغة الشعب ، كما في قولهم (آخرة الغز علقـة) وقولهم (حسنة وأنا سيدك) . غير أنها كثيراً ما تصدر عن الطبقة الممتازة في اللغة من شعراء وخطباء فتظهر فيها ألوان من الإجادة الفنية .. وهذا هو سبب الاختلاف في الأحكام الادبية التي أصدرها علماء الادب على الامثال .

هذا ولغة التخاطب وأحاديث الناس العادية ، وما يتبادلونه من محاورات ومخاطبات لا تعنينا في درس الادب العربي وتاريخه ، وليست لهـا قيمة لولا ما يجري فيها أحياناً من مثل أو حكمة .

ومن أقدم الامثال العربية أمثال لقمان الحـكيم ، ومن أمثاله قوله : رب أخ لك لم تلده أمك ، آخر الدواء الـكي ، المبيت على الطـوى حتى تنال به كريم المثوى خير من إتيان ما لا تهوى [1] .

---

(١) قالوا إنه كان سائراً ذات يوم فعطش ، فدفع الى خيمة ، في فنائها امرأة تداعب رجلا ، فاستسقى ، فقالت المرأة : أمـا اللبن فخلفك وأما المـاء فأمامك . فقـال : المنع كان أوجز ، فسارت مثلا . وبينما هو كذلك إذ شاهد صبياً يبـكي فلا يلتفت له فقال : ادفعوا الي هذا الصبي إن كنتم في غنى عنه ، فقالت : ذاك الى هانيء ، ثم قال لها : من هذا الشاب الى جنبك فقد علمته ليس ببعلك ؟ قالت : هـذا أخي ، قال : رب أخ لك لم تلده أمك ، فذعرت منه ، ثم عرضت عليه الطعام فقال : المبيت على الطوى . . . المثال ، ثم قابل زوجهـا وأخبره بخـبر الشاب مع زوجته ، فقال زوجها أعالجها بكية توردها المنية ، فقال لقمان : آخر الدواء الـكي .

ومن أمثالهم الفرضية : كيف أعاودك وهـذا أثر فأسك [١] ، وفي بيته يؤتى الحـكم [٢] .

ومن أمثالهم الشعرية :

تمتع من شميم عـــرار نجـــد
فمـــا بعد العشية من عرار [٣]

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلهـــا
إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا [٤]

كناطح صخرة يـــوما ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل [٥]

---

(١) قالوا : إن أخوين أجـدبا ، فرغب احدهمـــا الى اخيه ان ينتقل معـه الى واد خصيب معشب كانت به حية فتـاكة ، فحذره اخـوه شرها فـــلم يأبه له . وانتقل اليه فنهشته فمات ؛ وخافت اخاه فصالحته على ان تعطيه كل يوم ديناراً فلما أيسر هم بقتلها ، فضربها بفأسه فأخطأها واصاب باب الجحر فأراد مصالحتها استبقاء للدينار وخوفاً من شرهـــا فقالت : كيف اعاودك وهذا اثر فأسك ؟

(٢) يروون هذا المثل على لسان الضب في محاورة بينه وبين الأرنب والثعلب حين احتكما اليه في ثمرة التقطتها الأرنب فاختلسها الثعلب وا كلها فانطلقا يتخاصمان الى الضب .

(٣) للصمـة بن عبـد الله القشيرى ، ويضرب في التمتـع بالزائـل . . والعرار . نبت طيب الرائحة وهو النرجس البري .

(٤) هو لأبي أذينة اللخمي يحرض الأسود بن المنذر على قتل بعض أساري غسان ، يضرب في التحريض على استئصال شأفة الشر .

(٥) يضرب لمن يحاول ما لا يستطيع فيتعب نفسه دون فائدة .

أنْ تَرِدَ الماءَ بمــاءٍ أوفق

لا ذنب لي قد قلت للقوم : استقوا [1]

ومن أمثالهم . قد حيل بين العَـيْر والنزوان [2] ، إن أخاك من واساك ، نفس عصام سودت عصامـا [3] ، إن البـلاء موكل بالمنطق [4] ، إن العوان لا تُعلَّم الخِمْرة [5] ، كالمستجير من الرمضاء بالنار [6] .

ومن الامثال المشهورة (رَجَعَ بِخُـفَّـيْ حُنَـين) وكان حنين إسكافـا فساومه أعرابي على خفين فاختلفا ، فأراد حنين أن يغيظ الأعرابي ، فأخـذ أحد الخفين وطرحه في الطريق ، ثم ألقى الآخر في مكان آخر ؛ فلمـا مر الأعرابي بأحدهما قال ما أشبه بخف حنين ولو كان معه الآخر لأخذته ، ثم مشى فوجـد الآخر ، فترك راحلته وعـاد ليأتي بالخف الاول ، وكان حنين يكمن له فسرق راحلته ومتاعه . وعـاد الاعرابي الى قومه يقول لهم جئتكم بخفي حنين . يضرب لمن خاب مسعاه .

---

(١) يضرب لمن لا يقبل الموعظة وللاحتياط للطوارىء .

(٢) العير حمار الوحش . النزوان : الوثوب – وقائل هذا المثل صخر بن عمرو أخو الخنساء لما طال مرضه فكرهته امرأته فعزم على قتلها فلم يتمكن من حمل السيف فقال :

أهم بأمـــر الحـــزم لو أستطيعه وقـــد حيل بين العير والنزوان

(٣) يضرب في سؤدد الرجل بنفسه .

(٤) ينسب لأبي بكر . قـــاله حين أمر الرسول أن يعرض نفسه على القبائل ، ويضرب لمن يورده قوله في الهلاك .

(٥) العوان : النصف التي بلغت مبلغ النساء ، الخمرة . لبس الخمار . يضرب للعـالم بالأمر المجرد له .

(٦) راجع مورده في حرب البسوس .

ومنهـا (الصيفَ ضيَّعْتِ اللبَنَ) قاله عمرو بن عمرو بن عدس وكان شيخاً كبيراً تزوج بامرأة فضاقت به فطلقها فتزوجت فتى جميلاً وأجـدبت . فبعثت تطلب من عمرو حلوبة أو لبناً ، فقال ذلك المثل . يضرب لمن يطلب شيئاً فوته على نفسه .

ومنها (على أهلها تجني براَقش) وبراقش كلبة لقوم من العرب أغير عليهم فهربوا ومعهم براقش ، فتتبعهم الاعداء مهتدين اليهم بنباح براقش ، فهجموا عليهم . يضرب لمن يجلب الاذى لقومه .

ومنها (وافقَ شنٌّ طبَقَةَ) وشن رجل من دهاة العرب خرج يبحث عن امرأة مثله يتزوجها ، فرافقه رجل في الطريق الى القرية التي يقصدها ، ولم يكن يعرفه من قبل. قال شن: أتحملني أم أحملك ؟ فقال الرجل ياجاهل أنا راكب وأنت راكب فكيف تحملني أو أحملك ؟ فسكت شن حتى قابلتها جنازة ، فقال شن : أصاحب هذا النعش حي أم ميت ؟ فقال الرجل ما رأيت أجهل منك ، ترى جنازة وتسأل عن صاحبها أميت أم حي ، فسكت شن، ثم أراد مفارقته ، فأبى الرجل وأخـــذه الى منزله ، وكانت له بنت تسمى طبقة ، فسألت أباهـا عن الضيف فأخبرها بمـا حدث منه ، فقالت يا أبت ما هذا بجاهل إنه أراد بقوله أتحملني أم أحملك : أتحدثني أم أحدثك . وأما قوله في الجنـازة فإنه أراد : هل ترك عقبـاً يحيـا به ذكره ؟ فخرج الرجل وجلس مع شن وفسر له كلامه ، فقال شن : مـا هذا بكلامك ، فصارحه بأنه قول ابنته طبقة ، فتزوجها شن . يضرب مثلاً للمتوافقين (١) .

(١) راجع مجمع الأمثال للميداني في هذه الأمثال وغيرها .

الفصل الخامس

الخطابة الجاهلية

ما هي الخطابة ؟

الخطابة فن من فنون النثر ، ولون من الوانه ، وهي فن مخاطبة الجمهور الذي يعتمد على الإقناع والاستمالة والتأثير « فهي كلام بليغ يلقى في جمع من الناس لإقناعهم برأي ، أو استمالتهم الى مبدأ او توجيههم الى ما فيه الخير لهم في دنيا أو آخرة » .

والخطابة ضرورية لكل أمة في سلمها وحربها ، فهي أداة الدعوة الى الرأي والتوجيه الى الخير ، ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين والزعماء والمصلحين فهي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية .

وإنما تقوى الخطابة ويرتفع صوتها في زمن الحرية، وفي ظلال الديمقراطية، حيث تستطيع الأمة أن تتنفس بآمالها ومشاعرها ، وتنطلق من قيود الذل والظلم الى حيث تنطلق أفواهها بما تجيش به الخواطر ، وتضطرم به النفوس،

وتتجه اليه الآمــال ، ففي ظلال الحرية ، تتقارع الآراء وتتصارع الأفكار ، وتتنازع المبــادىء وتتنافس المذاهب ، وتتعدد الخصومات ، وفي ذلك كلــه غذاء للخطابة ، ومدد لها وداع اليها .

والخطابة إمــا سياسية أو اجتماعية أو دينية ، وقــد ازدهرت في العصر الحديث الخطابة القضائية والبرلمانية . وفن الخطابة قديم وجد في الأمم القديمة كقدماء المصريين واليونان والرومان .

ازدهارها في العصر الجاهلي :

وكان للخطابة شأن عظيم في العصر الجاهلي ، وكان للخطيب مركز ممتاز لا يقل عن مركز الشاعر، حتى إن أبا عمرو بن العلاء يقول: « إن الخطيب في الجاهلية كان فوق الشاعر[1] » .

ولا بدع ، فنحن نعلم أن العرب كانوا قبــائل متناحرة متنازعة ، تقتتل لأوهى الأسباب ، وأتفه الامور ؛ ومن أبرز شمائلهم العزة والأنفة ، والنفور من العــار ، وحماية الجــار ، والحرص على الأخذ بالثأر ، والمباهــاة بالعصبية والمفاخرة بالنسب . والتشدق بالبيان .. فالخطابة إذن ضرورة من ضروراتهم وحاجة من حاجاتهم . يتخذونها في السلم أداة للمفاخرة والمنافرة ويصطنعونها في الحرب لتثبيت الجنان ، وتحميس الجبان . وبعث الحمية في النفوس . وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف .

ولهذا علت منزلة الخطيب . وراح الشعراء يفتخرون بالخطابة . ويتغنون بها فيما يتغنون به من المفاخر . يقول قيس بن عاصم المنقري سيد بني تمــيم وشاعرها وفارسها :

---

(١) ١٧٠ جـ ١ البيان والتبيين .

إني امرؤ لا يعتري خُلُقي دَنَسٌ يُفَنِّدُه ، ولا أَفْنُ [1]
مِنْ مِنقَرٍ في بيت مَكْرُمَةٍ والأصل ينبت حوله الغُصْنُ
خطباء حـين يقول قائلهم بيض الوجوه مصاقعٌ لُسْنُ [2]

ويقول عمرو بن الإطنَابة :

إني من القوم الذين إذا انتدَوْا بدأوا بحق الله ثم النـائل
القائلين فلا يُعاب خطيبُهم يومَ المقَامة بالكلام الفاصل

وقد زادهـا رفعة أنهـا كانت لسـان الأشراف والرؤسـاء والنـابهين من القبـائل يفضلونهـا على الشعر الذي غض منـه امتهـان الشعراء له بالتكسب والارتزاق .

فازدهار الخطابة إذن في الجاهلية يرجع الى الحرية التي لا يحدهـا سلطان ولا تقيدها حكومة ، وإلى القتال الدائم بين القبائل وما يتطلبه من تحميس او حض على ثأر ؛ والى حب المفاخرة المتأصل في العرب ؛ والى تأصل ملكة البيان فيهم ، وقدرتهم على التصرف في وجـوه القول وتشقيق الكلام ؛ والى ابتذال الشعر آخر الأمر بالتكسب ، واختصاص الرؤساء والزعماء بها ..

---

(١) الافن : ضعف الرأي والعقل .

(٢) جمع مصقع كمنبر ، البليغ او من لا يرتج عليه واللسن جمـع لسن وهـو التناهي في في الفصاحة .

موضوعاتها :

كانت موضوعاتها تدور حول الحث على القتال والاخذ بالثأر ، والدعوة الى الصلح بالتنفير من الحرب وويلاتها ، والمفاخرة بالمكارم والعصبيات ، والسفارة بين القبائل العربية ، او بينها وبين جيرانها : في التعازي والتهاني والاستنجاد وتأمين السبل وحراسة التجارة . وكان من موضوعاتها خطب النكاح والإشادة بالخاطب والمخطوب كما كانت تتناول الدعوة الى عبادة الله وتوحيده ، والتبشير برسوله كما سنرى في خطب دعاة التوحيد مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي والمأمور الحارثي .

والخطب الجاهلية قصيرة بوجه عام ، وفي الغالب ، ولعل ذلك راجع الى إيثارهم الإيجاز ، ورغبتهم في حفظها وانتشارها . قيل لأبي عمرو بن العلاء ؛ هل كانت العرب تطيل ؟ فقال نعم ليسمع منها : فقيل له : وهل كانت توجز ؟ فقال نعم ليحفظ عنها . ولكل مقام .

الخطيب :

أما الخطيب فكانوا يشترطون فيه السيادة في القوم . والكرم في الخلق والعمل بما يقول ، ولا بد أن يكون جهير الصوت ، رابط الجأش ، ثابت الجنان ، قوي الحجة . فصيح اللسان . قليل الحركة . حسن السمت . جميل المظهر . وكان من عادته أن يقف على نشز [1] مرتفع كظهر راحة ونحوها معتجراً بعمامته . قابضاً بيده على سيف او عصا . وذلك كله للتأثير بإظهار الملامح ، وإبعاد مدى الصوت . ومنهم من كان يمسك العصا في السلم والقوس في الحرب .

---

(١) نشز مرتفع ، وهذه العادة في غير الزواج .

ويظهر أنهم كانوا يرتجلون القول ارتجالاً . بلا معاناة ولا مكابدة ، وإنما يصرفون الهمم الى الغرض . فتأتي المعاني متدفقة ، وتنثال الألفاظ انثيالاً ، كما يقول الجاحظ [1] .

والمأثور من خطب الجاهليين، قليل أقل من الشعر المروي عنهم ، والسبب في ذلك صعوبة حفظ النثر لعدم تقيده بوزن او قافية ، وسرعة نسيانه ، وعدم تدوينه لأميتهم ونحو ذلك ممـا أدى الى ضياع الكثير من الخطب ، واختلاف الرواية فيما بقي منها بطول العهد وتناقل الرواة .

دفاع عن الخطابة الجاهلية :

يقول الدكتور طه حسين في الادب الجاهلي · « كان في العرب قبل الاسلام خطباء ، ولكني لا أتردد في أن خطابتهم لم تكن شيئاً ذا غناء وإنما الخطابة العربية فن اسلامي خالص، وذلك أن الخطابة ليست من هذه الفنون الطبيعية التي تصدر عن الشعوب عفوا ، ويعنى بها الافراد لنفسها ، وإنما هي ظاهرة اجتماعية ملائمة لنوع خاص من الحياة ، وكل الحياة الاجتماعية للعرب قبل الاسلام لم تكن تدعو الى خطابة قوية ممتازة ، فالحواضر المضرية كانت حواضر تجارة ومال واقتصاد ، ولم يكن للحياة السياسية فيها خطر يذكر ولم تكن لهم حياة دينية قوية تحتاج الى إلقاء الخطب كما تعود النصارى والمسلمون . وأهل البادية كانوا في حرب وغزو وخصومات ، وهذا يدعو الى الحوار والجدال لا الى الخطابة ، فالخطابة تحتاج الى الاستقرار والثبات والاطمئنان الى الحياة المدنية المعقدة وأنت لا ترى عند اليونان خطابة أيام الملوك ولا أيام البداوة ولا أيام الطغيان، وإنما الخطابة اليونانية ظاهرة ملازمة

---

(١) ويرى بعض الباحثين أن خطباء العرب كانوا يذهبون مذهب أصحاب التجويد والتحبير ، وأنهم صاغوها صياغة فنية وهذا بعيد (الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٢ — ١٤) لشوقي ضيف .

للحياة السياسية العامة، ولم يعرف الرومان الخطابة أيام البداوة ولا أيام الملوك ولا أيام الجمهورية الارستقراطية وإنما عرفوهـا حين تعقدت حياتهم السياسية وظهرت فيهم الخصومات الحزبية ، ولم تظهر الخطـابة في أوربا إلا في العصر الديمقراطي حين تعقدت الحياة السياسية واشتركت فيهـا الشعوب . . . فلا تصدق إذن أنه قد كانت للعرب في الجاهلية خطابة ممتازة إنمـا استحدثت الخطابة في الاسلام ، استحدثها النبي والخلفاء ، وقويت حين نجحت الخصومة السياسية الحزبية بين المسلمين[1]».

ولسنا نوافق الدكتور طه حسين على هـذا التهوين من شـأن الخطـابة الجـاهلية .

١ – فقد علمنا أن الأمة العربية أمة حربية توفرت لديها دواعي الخطابة من الأنفة من العار ، والأخـذ بالثأر ، والتفاخر بالأنساب ، وكانت لهـا أيام حربية ووقائع لا تنتهي، دعت اليها حياتهم وطبيعة بيئتهم وبداوتهم ، وهذه المقـامات تستدعي الخطابة وتجعلهـا قوية مزدهرة . ولقد كانوا يتنازعون السلطة في الرفادة والحجابة وغيرهما وكان اتصالهم السياسي بالأمم المجـاورة كالفرس والروم مدعـاة الى هذه الحروب والأيام المشهورة التي كان صوت الخطابة فيها قوياً بجانب الشعر .

٢ – ومع هذه النهضة السياسية كانوا على جانب من الحضارة اكتسبوه من اليمن وهذه الأمم المجاورة التي اتصلوا بها واشتبكوا معها في الحروب . فقد تهيأ لهم ما ينكره الدكتور طه من الحضارة والتنازع السياسي والديني .

٣ – على أنه لا يعقل أن تطفر الخطـابة من ضعفها الذي يدعيه الى هذه

(١) ٣٧٤ الادب الجاهلي لطه حسين .

القوة العظيمة التي يعترف بها هو في صدر الاسلام . وإلا فكيف تكون شيئاً مذكوراً من شيء لا غناء فيه ؟

كل ذلك يدلنا على أن الخطـابة بلغت من الرقي مبلغـاً عظيماً قبل الاسلام وليس ينفي هذا أن بعض النصوص من الخطب الجاهلية يظهر عليه أثر الصنعة والانتحال ، مما يحمل على الشك فيه ، على الرغم ممـا يصطبغ به من الشبهة بالروح الجاهلي ؛ ولكن إنـكار الخطابة شيء ، والتشكك في بعض نصوصها شيء آخر .

أشهر الخطباء الجاهليين :

من أشهر الخطباء في العصر الجاهلي :

١ – قس بن ساعدة الإيادي، وهو من إياد، ويضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة والحكمة والخطابة ، ويعد خطيب العرب كافة .

وهو أول من قال : أما بعد ، وأول من نطق بهذه الحكمة : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

وكان الناس يتحاكمون اليه في خصوماتهم فيقضي بينهم بالحق والخـير ، وكان معدوداً من حكماء العرب وأعقلهم .

وكثيراً ما كان يقف فيخطب في سوق عكاظ، وسمعه الرسول ﷺ وأثنى عليه وعاش طويلاً ، ومات قبل البعثة بقليل عام ٦٠٠ م .

وكان بليـغ القول سهل الاسلوب ، متخير اللفظ ، كثير الحكمة والمثل . سجعه قصير غالب على خطابته ، وكلامه على إيجازه بعيد عن اللغو والفضول والحشو ، وكان مطبوعاً على الخطابة واللفظ الشريف ، والقول الرائع الحكيم وله شعر مأثور . وسيأتي نموذج لخطابته .

٢ – أكثم بن صيفي التميمي حكيم العرب وقاضيها ، وخطيب من أشهر خطبائها ، أدرك بعثة الرسول ﷺ ودعا الناس الى الايمان به .

وكان كثير الحكم وضرب الأمثال في خطابته ، مصيب الرأي ، قـــوي الحجة ، ملهماً بالصواب وسداد القول . وكان في خطبه كثير الإيجاز ، لا يلتزم السجع ولا يقصده، عميق الفكر ، دقيق النظر ، قوي الحجة، كثير الاقناع، جميل الاسلوب ، حلو الألفاظ .

٣ – عمرو بن معديكرب الزبيدي ، وهو قحطاني يمني ، خطيب شاعر، وفارس مشهور ، توفي عام ٢١ هـ .

٤ – حـاجب بن زرارة التميمي ، وعامر بن الظرب العدواني . وقبيصة ابن نعيم ، وكعب بن لؤي ، وهاشم بن عبد مناف ، وعمرو بن كلثوم ، وعبد المطلب بن هاشم وغيرهم .

الوصايا :

الوصايا جمع وصية . والوصية ما توجهه الى انسان أثير لديك من ثمرة تجربة وحكمة أو إرشاد وتوجيه . فهي بمعنى النصيحة .

والوصية لون من ألوان الخطابة . قاصر على الأهل والأقارب والأصدقاء، والفرق بينهما أن الوصية تكون من المرأة لابنتها ، ومن الرجـــل لقومه او ابنائه ، عند الارتحال او الشعور بدنو الأجل او نحو ذلك . . . والخطـابة تكون في المشاهد والمجامع العامة والحروب والمعارك وفي المفاخرة والمنافرة ، وفي الوفادة على ملك او امير ، وفي المواسم والحوادث الجسام .

والوصايا كثيرة في النثر الجاهلي . وتمتاز بجمالها وتناسب جملها واساليبها . وبرقتها وروعتها . وما يشيع فيها من حكمة ، وصدق تعبير ، ونفاذ فكر ،

وبعد نظر ، لأنها لا تصدر إلا من حكيم مجرب ، أو كبير عرك الحيـــاة ، وعركته الحياة .

ومن المشهورين بالوصايا : ذو الأصبع العدواني ، ومن وصيته لابنه قوله :

« ألن جانبك لقومك يحبّوك . وتواضع لهم يرفعوك . وأبسط لهم وجهك يطيعوك . ولا تستأثر عليهم بشيء يسـوّدوك . . وأكرم صغارهم . كما تكرم كبارهم . . يكرمك كبارهم . ويكبر على مودتك صغارهم » .

ومنهم النعمان بن ثواب العبدي الذي يوصي ابنه فيقول :

« يا بني إن الصارم ينبو . والجـواد يكبو . والأثر يعفـو . فاذا شهدت حرباً فرأيت نارها تُسْعرَ . وبطلهـا يَخْـطـُر . وبحرهـا يزخر . وضعيفهـا يُنْصَر . وجبانها يَجْسُر . فأقلل المكث والانتظار . فإن الفرار غير عار ، إذا لم تكن طالب ثار » .

ومنهم الأوس بن حارثة الذي يوصي ابنه مالكا فيقول :

يا مالك المنية ولا الدنية[1]. والعتاب قبل العقاب، والتجلد ولا التبلد[2] واعلم أن القبر خـير من الفقر . وشرُّ شاربٍ المُشْتَفُّ[3] . وأقبح طاعم المقْتَفُّ[4] والدهر يومان . فيوم لك . ويوم عليك . فإذا كان لك فلا تبطر . وإذا كان عليك فاصبر . فكلاهما سينحسر .

---

(١) النقيصة .

(٢) ضد التجلد أي الجزع .

(٣) المستقصي .

(٤) الآخذ بعجلة ، وقيل الآتي على ما في الإناء من طعام .

وأوصت امرأة عوف بن محلّم الشّيباني ابنتها ، حين حملها زوجها الحارث ابن عمرو ، ملك كندة ، فقالت :

« أي بنيــة إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منـــك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويهــا ، وشدة حاجتها إليهــا ، كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال .

أي بنية ، إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبـــاً ومليكاً ، فكوني له أمة يكن لك عبداً وشيكاً (١) .

يا بنيــة ، احملي عني عشر خصــال ، تكن لك ذخراً وذكراً : الصحبة بالقنــاعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطــاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدو عنه عند منــامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة (٢) ، وتنغيص النـــوم مبغضة (٣) والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء (٤) على حشمه (٥) وعيــاله (٦) فإنك إن أفشيت سره ، لم تأمني غــدره ، وإن عصيت أمره أوغــرت (٧)

---

(١) سريعاً .
(٢) من لهبت كفرح النار أشعلت ، أي داع الى الغيظ .
(٣) أي تدعو الى البغض وتحمل عليه .
(٤) الابقاء .
(٥) الخدم .
(٦) نصراؤه من اهل وجيرة وعبيد .
(٧) وغر صدره كوعد ووجل وغرا بفتح العين وسكونها واوغره ملأه غيظاً .

صدره . ثم اتقي – مع ذلك – الفرح ، إن كان ترحاً ، والاكتئاب عنده إن كان فرحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكوني أشد ما تكونين له إعظاماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً . وأشد ما تكونين موافقة ، يكن أطول مـــا تكونين له مرافقة : واعلمي أنك لا تصلين إلى مـا تحبين ، حتى تؤثري رضـاه على رضاك وهواه على هـواك فـيما أحببت وكرهت – والله يخير[1] لك[2] .

المحاورات :

المحاورة هي التحاور والتراجع في الكلام والحديث ؛ وهي من ضرورات الاجتماع والحياة .

وكان العرب كثيري المحاورة لكثرة خصوماتهم ومفاخراتهم وتنازعهم على الشرف وسواه .

وتشمل المحاورات : المنـافرة والمفاخرة ونحوهما من المحاورات العامة في مختلف شئون الحياة والمعرفة .

فالمفاخرة : هي مصدر فـاخر ؛ وهي تفـاخر القـوم بعضهم على بعض وكانوا يفاخرون بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة والعـــز والثروة وكثرة العدد .

والمنافرة هي المحاكمة في المفاخرة ؛ وأصلها من قولهم : أينـا أعز نفراً ، فهي التحاكم الى الأشراف ، ليفصلوا بينهم ويقضوا بالشرف لأحدهم .

---

(١) خار الله لك في الأمر جعل لك فيه خيراً .

(٢) مجمع الأمثال ١ ج ٣ ١٤ .

ومن أمثلة المنافرات وأشهرها منافرة عـامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ، وقد تنازعا الرياسة .

قال علقمة : الرياسة لجدي الأحوص وإنمـا صارت الى عمـك أبي براء من أجله ، وقد استسن عمك وقعد عنها فأنا أولى بها منك . وإن شئت نافرتك.

قال له عامر : قد شئت والله لأنا أشرف منك حسباً وأثبت منك نسبـاً وأطول قصباً .

قال علقمة : أنافرك وإني لبر وإنك لفاجر . وإني لولود وإنك لعاقر .

قال عامر : إني أنشر منك أمة، وأطول قمة ، وأحسن لمة ، وأبعد همة.

قال علقمة : أنا جميل وأنت قبيح . وأنا أولى بالخيرات منك .

فتنافرا الى هرم بن قطبة الفزارى . فقال هرم :

يا ابني جعفر : قد تحاكمتما عندي ، وأنتما كركبتي البعير تقعان الى الأرض معاً وتقومان معاً ، فرضيا بقوله وانصرفا الى حييهما .

وفي علقمة يقول الأعشى هاجياً :

علقمُ ما أنت إلى عامرِ ألناقِض الأوتار والواترِ
إن تَسُدِ الحوص فلم تعدهم وعامرٌ ساد بني عـــامر
ساد ، وألفى قومه ســـادة وكابراً ســـادوك عن كابر

وقد عمر هرم هذا الى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقـال عمر : أيها كنت منفراً ؟ فقال يا أمير المؤمنين لو قلتهـا الآن لعـادت جذعة (أي الحرب او الفتنة) فقال له عمر : إنك لأهل لموضعك من الرياسة .

خصائص الخطابة الجاهلية :

لقد قرأنا بعض النماذج لنوع من أنواع الخطابة وهي الوصايا ، ولا بأس من أن نقرأ بعض الألوان التي تمثل الخطابة الخالصة ، حتى نستطيع أن نتبين خصائص الخطابة الجاهلية وسماتها ومميزاتها .

قال هانيء بن قبيصة الشيباني في قومه يوم ذي قار ، يحرضهم على القتال: « يا معشر بكر : هالك معذور خير من ناج فرور ، إن الحذر لا ينجي من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور — يا آل بكر : قاتلوا فما للمنايا من بد » .

وقال قس بن ساعدة في عكاظ :

« أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن في السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا ، سحائب تمور ، ونجوم تغور في فلك يدور ، ويقسم قس قسما أن لله دينـاً هو أرضى من دينكم هذا .

ثم قال : ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تُركوا فناموا ؟ » .

وخطب أبو طالب في زواج الرسول بالسيدة خديجة ، فقال :

« الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً ، وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله؛ من لا يُوزنُ به فتى من قريش إلا رجح عليه ، براً وفضلا ، وكرماً وعقلا ، وإن كان في المال قُلٌ ، فإن المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله في

خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلي » .

وخطب أكثم بن صيفي في بني تميم حين جاءه خبر النبي صلوات الله عليه.

فقال : يا بني تميم . لا تحضروني سفيهاً، فإنه من يسمع يخل[1]، إن السفيه يوهن من فوقه ، ويثبط من دونه ، لا خير فيمن لا عقل له . كبرت سني ، ودخلتني ذلة ، فإذا رأيتم مني إحساناً فاقبلوه ، وإن رأيتم مني غير ذلك فقوّموني . إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتاني بخبره وكتابه يأمر فيه بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق . . إن أحق الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه .. ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين .. إن الأول لم يدع للآخر شيئاً، وهذا أمر له ما بعده ، من سبق إليه غمر[2] المعالي ، واقتدى به التالي ، والعزيمة عزم ، والاختلاف عجز [3] » .

وخطب مرثد الخير الحميري في اثنين تنازعا الشرف حتى تشاحنا، وخيف أن يقع بين حييهما شر ، فقال لهما :

« إن التخبط وامتطاء الهجاج [4] ، واستحقاب اللجاج [5] سيقفكما على

---

(١) اي من يسمع الشيء ربما ظن صحته او من يسمع اخبار الناس ومعايبهم يقع في نفسه المكروه .

(٢) غمر : اعطى .

(٣) مجمع الأمثال ج ٢ .

(٤) يقال امتطى الهجاج : اي ركب رأسه .

(٥) الأحتقاب من الحقيبة او الحقاب وهو حزام المرأة والمراد : اصطحاب اللجاج .

شفاهوة ، في تورُّدها بوار الأصيلة[١] ، وانقطاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد ، وانحـلال العقد ، وتشتت الألفة ، وتباين السهمة [٢] ، وأنتما في فسحة[٣] رافهة ، وقدم واطدة ، فقد عرفتم انباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد واصغى الى التقاطع [٤] » .

وقال المأمور الحارثي :

« طمَح[٥] بالأهواء الأشَر[٦] ، وران[٧] على القلوب الكدر . وطخطخ[٨] الجهل النظر . إن فيما نرى لمعتبراً لمن اعتبر : ارض موضوعة . وسماء مرفوعة . وشمس تطلع وتغرب . ونجوم تسري فتعزُب . وقمر تُطلِعُه النحور[٩] . وتمحقه أدبار الشهور . وعاجزٌ مُثرٍ . وحُوَّلٌ[١٠] مُكْدٍ[١١] وشاب مُختَضر[١٢] ويَفَنٌ[١٣] قد غبر[١٤] وراحلون لا يئوبون . وموقوفون لا يَفرُطون[١٥] .

---

(١) أي في ورودها هلاك الجميع .
(٢) السهمة : القرابة .
(٣) ناعمة .
(٤) راجع الخطبة في الأمالي جـ ١ ص ٩٢ .
(٥) ارتفع وعلا .
(٦) البطر وكفر النعمة .
(٧) اشتد .
(٨) أظلم .
(٩) أوائل الشهور .
(١٠) شديد الاحتيال .
(١١) فقير ، من أكدى الرجل أخفق او افتقر .
(١٢) محصود .
(١٣) شيخ كبير .
(١٤) بقي .
(١٥) يسبقون ، وفرطه كضربه تقدمه الى الورد .

ومطر يرسل بقدر . فيحيي البشر . ويورق الشجر . ويطلع الثمر . وينبت الزهر . وماء يتفجر من الصخر الأيّر[1] . فيصدع المدر[2] عن أفنان الخضر . فيحيي الأنام . ويشبع السوام[3] وينمي الأنعام . إن في ذلك لأوضح الدلائل . على المدبر المقدر . البارىء المصور . يا أيتها العقول النافرة . والقلوب النائرة[4] . أنّى تؤفكون[5] . وعن أي سبيل تعمهون[6] ؟ ، وفي أي حيرة تهيمون[7] !! والى أي غاية توفضون[8] !! لو كشفت الأغطية عن القلوب ، وتجلت الغشاوة عن العيون . لصرح[9] الشك عن اليقين . وأفاق من نشوة الجهالة ، من استولت عليه الضلالة » .

مميزات الخطابة الجاهلية :

١ – يتضح لنا من استعراض ما وصل إلينا من خطب الجاهليين ، أنها تتسم على العموم بالجزالة والفصاحة والقوة وشدة الأسر ، فلا تحس ركاكة ، ولا تلمس ضعفا ، ولا تجد لحنا ، لأن الفطرة كانت سليمة خالصة لم تشبها بعد عجمة ، ولم يضعفها اختلاط .

٢ – ونلاحظ ان ألفاظها تارة تأتي سهلة لينة كما ترى في خطب قس ،

---

(١) الصلب .
(٢) الطين العلك .
(٣) المال الراعي كالسائمة وجمعها سوائم .
(٤) النائرة ، من نارت تنور نورا : نفرت من العيب .
(٥) تصرفون .
(٦) تتحيرون .
(٧) هام : ذهب لا يدري أن يتوجه .
(٨) تسرعون .
(٩) انكشف بعد خفاء .

وأبي طالب وأكثم بن صيفي . وتارة تجيء وحشية غريبة تظهر فيهـــا آثار البادية واضحة جلية كما رأينا في خطبة مرثد الخيري « إن التخبط وامتطـاء الهجاج ، واستحقاب اللجاج . . الخ » وكما في خطبة المأمور . . « وطخطخ الجهل النظر . . وماء يتفجر من الصخر الأيّر . . الخ »

٣ — ولم يكن الجاهليون يتأنقون في اختيـار اللفظ ذي النغمة المتشابهة او الجرس المتآلف ، وكانوا لا يقصدون الى المحسنات البديعية او يتعمدونها ، ويقل الترادف في نثرهم ، إذ كانوا يؤثرون الإيجاز في كلامهم .

٤ — وتمتاز هذه الخطب بوضوح المعاني وقربها وصدقها ، كما رأينا . لأنها تمثل حياتهم البسيطة الواضحة التي لا تعقيد فيها ولا التواء ، فهم لا يبالغون ولا يهولون، وإنما يعبرون عما يشعرون به في بساطة ودون تكلف ؛ فمتى فهم اللفظ اتضح معناه دون معاناة في فهمه .

٥ — ويغلب على الخطب الجاهلية السجع كما رأينا في خطبة هانيء بن قبيصة « هـالك معذور ، خير من ناج فرور . إن الحذر لا ينجي من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر . . الخ » وكما في خطبة قس « من عاش مات ، ومن مات فـات . . الخ » وكان قس هذا يلتزمه ، وكما في خطبة المأمور « طمح بالأهواء الأشر ، وران على القلوب الكدر . . الخ » وقـد التزم السجع فيها كلهـا . وأحيانا تجيء مرسلة او مترددة بين الإرسال والازدواج أو السجع كما ترى في خطبة أبي طـــالب « الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ... الخ » ويتجلى الازدواج او السجع المزدوج في خطبة مرثد الخير « .. في توردها بوار الأصيلة ، وانقطاع الوسيلة .. الخ »

٦ — ويشيع في النثر الجاهلي قصر الجمل، والإيجاز، وإيثار الكناية القريبة على التصريح ، وتكثر فيها الحـكم والأمثال كما رأينا في معظمها ، وقـد تأتي الخطبة كلها حكما وأمثالا كخطبة هانيء بن قبيصة المذكورة ، وكما في بعض خطب أكثم بن صيفي .

٧ – ونلاحظ على الخطب الجاهلية ضعف الربط وعدم التماسك بين الجمل، وعدم وحدة الموضوع في بعض الاحيان كما في الوصايا ، ولعل ذلك راجع الى الارتجـــال الذي تتسم به حياتهم ، والى كثرة الحكم والأمثال التي تشيع في خطبهم ، والتي لا يمكن الربط بينها ، فإننا لو قدمنا بعضها وأخرنا البعض لم يختل المعنى ولا نظام الخطبة .

٨ – وأخيراً تتسم الخطب الجاهلية بقوة التأثير وحرارة العاطفة، وهكذا تتجلى خصائص الخطب والوصايا الجاهلية، وهما أهم مظهر للنثر الجاهلي .

الفصل السادس

سَجْعُ الكُهَّانِ

وينبغي أن نشير الى لون آخر من ألوان النثر الجـــاهلي ، ونعني به ذلك السجع الذي كان الكهان يلتزمونه، ويحتشدون له ، ويؤثرونه على كل أسلوب ويتكلفون فيه ، للتأثير على الناس ، والتعمية في الجواب .

والكهانة هي الإخبار عن الأمور المغيبة ماضية كانت أو مستقبلة . وكان في العرب كهان ، ولهم فيهم اعتقاد .. ومن أشهرهم : سطيح، وشق وطريفة الخير ، وفاطمة الخثعمية [1] .

وكان العرب يفزعون الى كهـانهم في كل مـــا يطرأ عليهم من أمر ، او يستعصي عليهم من مشكلات وأزمات وشدائد ، ويستطبونهم في الأدواء .

---

(١) كانت فاطمة بمكة ولهـــا قصة مع عبد الله والد الرسول صلوات الله عليه قبـل زواجـه بآمنــة .

وكانت الكهانة منتشرة في الجاهلية قبيل البعثة . . وتدور غالباً حول التبشير بنبي يبعث، وتفسير الرؤى، ومعرفة ما أشكل من الأمور ، أو خفي من الحوادث .

والكهانة الصادقة على أي حال نوع من الفراسة والإلهام وصدق الحس وصفاء الروح . . وكثيراً ما نرى ذلك حتى اليوم .

ويقول الجاحظ : « كان كهان العرب يتحاكم اليهم أكثر الجاهلية، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيا من الجن [1] »

وكان كلام هؤلاء الكهان في نبوءاتهم يدور حول ما يستفتون فيه من مسائل ومشكلات مما سبقت الإشارة اليه .

وكان هذا الكلام كله مسجوعاً . وكان الكهان يعتمدون فيه على الإغراب للتعمية في الجواب .

ومهما يكن من شيء فإن حرفة الكهانة في ذلك العصر قد أثمرت ضرباً طريفاً من الخطابة كان يتكىء على السجع والتوقيع ؛ كما كانت تكثر فيه الاقسام ؛ والالفاظ الغريبة ويتسم بقصر الجمل غالباً .

وقد روي ان النبي ﷺ نهى عن سجع الكهان ، وذلك لمكانه من التكلف والإغراب ، والغموض ، وبعده عن الصدق ، وادعائه المشاركة في علم الغيب :

ومن الكواهن والكاهنات : زبراء، وشق أنمار ، وسطيح الذئبي . قالت زبراء تنذر قومها ؛ وتنبئهم بمباغتة عدوهم لهم :

---

(١) ١٩٥ جـ ١ البيان والتبيين .

« واللوح الخافق [1] ، والليل الغاسق[2] ، والصباح الشارق[3] ، والنجم الطارق[4] إن شجر الوادي ليأدو ختلا [5] ، ويحرق أنياباً عصلا [6] ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون عنه معلا [7] . . . [8] .

وقد اتفق شق أنمار[9] وسطيح الذئبي [10] في تعبير الرؤيا لربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك العرب ، حيث أخبراه بإغارة الحبشة على بلاد اليمن .

قال سطيح : « أحلف بما بين الحرتين من حبش ليهبطن أرضكم الحبش ، وليملكن ما بين أبين الى جرش » .

وقال شق : « احلف بما بين الحرتين من إنسان ، ليهبطن ارضكم السودان وليملكن ما بين ابين الى نجران »

وفي كتب الادب صور كثيرة للكهانة تدل على حذق الكهان وبراعتهم

---

(١) اللوح بضم اللام : الهواء بين السماء والأرض ، الخافق : المضطرب .

(٢) الغاسق : المظلم او شديد الظلام .

(٣) شرقت الشمس من باب قعد . طلعت ، وأشرقت : أضاءت ، وقيل هما بمعنى واحد ، والمراد المضيء .

(٤) الطارق نجم يقال له كوكب الصباح .

(٥) يأدو : يميل ، ختلا : خداعا .

(٦) يحرق كينصر ويضرب يحك بعضها ببعض حتى يسمع لها صوت ، وعصل جمع أعصل وهو الناب المعوج في صلابة .

(٧) معلا : بدا .

(٨) راجع كلام زبراء في الأمالي ١ ص ١٢٦ .

(٩) يقولون إن شقا هذا كان نصف إنسان له عين واحدة ويد ورجل واحدة .

(١٠) يقولون إن سطيحا كان يدرج كما يدرج الثوب لا عظم فيه إلا الجمجمة وأن وجهه كان في صدره .

في معرفة طوايا النفوس والكشف عن خبايا الأمور ، ومن ذلك ما يرويه صاحب الأغاني :

« كانت هند بنت عتبة ، عند الفاكه بن المغيرة . وكان الفاكه من فتيان قريش . وكان له بيت للضيافة بارز يغشاه الناس من غير إذن . فخلا البيت ذات يوم فاضطجع هو وهند فيه . ثم نهض لبعض حاجته . فأقبل رجل ممن كان يغشى البيت ، فولجه . فلما رآها رجع هارباً ، وأبصر الفاكه ، فأقبل اليها فضربها برجله، وقال : من هذا الذي خرج من عندك ؟ قالت : ما رأيت أحداً ولا انتبهت حتى أنبهتني ، فقال لها : ارجعي الى أمك . وتكلم الناس فيها ، وقال لها أبوها : يا بنية ، إن الناس قد أكثروا فيك ، فأنبئيني نبأك ، فإن يكن الرجل صادقاً ، دسست عليه من يقتله ، فتنقطع عنك المقالة ، وإن يك كاذباً حاكمته الى بعض كهان اليمن . فقالت : لا والله ما هو بصادق ، فقال له يا فاكه إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم، فحاكمني الى بعض كهان اليمن .

فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم . وخرج عتبة في جماعة من عبدمناف . ومعهم هند ونسوة . فلما شارفوا البلاد . وقالوا : غداً نرد على الرجل تنكرت حال هند . فقال لها عتبة . إني أرى ما حل بك من تنكر الحال . وما ذاك إلا لمكروه عندك . قالت : لا والله يا أبتاه . ما ذاك لمكروه ولكني أعرف أنكم تأتون بشراً يخطىء ويصيب ، ولا آمن أن يسمني ميْسماً يكون علي سبة . فقال لها إني سوف اختبره لك . ثم أدخل في إحليل فرسه حبة بر ، وأوكأ عليها بسير ، فلما قدموا على الرجل أكرمهم ونحر لهم . وقال له عتبة : جئناك في أمر ، وقد خبأت لك خبءاً اختبرك به ، فانظر ما هو قال ثمرةٌ في كمرة . قال : أوضح ، قال حبة برّ ، في

إحليل ُمهر ، قـال صدقت انظـر في امر هؤلاء النسوة ، فجعـل يدنو من إحداهن ، فيضرب بيده على كتفهـا ويقول : انهضي . حتى دنا من هنـد ، فقال لها : انهضي غير رسحاء [1] ولا زانية ، ولتلدن ملـكا يقال له معاوية ، فنهض اليها الفاكه ، فأخذ بيدها فجذبت يدها من يده ، وقالت إليك عني، فو الله لأحرصن ان يكون ذلك من غيرك ، فتزوجها ابو سفيان » .

(١) الرسحاء قليلة لحم العجز والفخذين .

القِسمُ الثَاني



الفصل الأول

تمهيد في تعريف الشعر وعناصره

يتفق الأدباء على أن الكلام لا يسمى أدباً ، ولا يمت الى الفن بنسب ، إلا حين تجتمع له روعة التأثير وبراعة الفكرة ودقة المعنى ، وجمال العبارة ولطف الأسلوب وإشراقه .

فإذا بلغ هذه الغاية واستوفى تلك السمات ، فلا بد أن يأخذ أحد هذين اللونين :

١ — هذا اللون من الكلام الذي يجري على الألسنة لا يتقيد صاحبه بوزن ولا يلتزم فيه قافية ، ولا يتوقف إلا على سلامة الفكرة ، وصحة المنطق واستقامة أركان الكلام ، هذا النوع هو الذي يسمى بالنثر .

٢ — ذلك النوع الذي يلتزمون فيه حدوداً خاصة وسمتاً معيناً ، ينضره دائماً إشراق الخيال ، وحلاوة اللفظ وأناقته وجمال المعنى وبهجته مع خضوعه دائماً لقيود الوزن وحدود القافية . وهذا هو الذي يطلقون عليه الشعر لأنهم

كما يقولون شعروا به وفطنوا له[1] .

فالشعر إذن هو الكلام الجيد البليغ الذي يعتمد على الوزن والقافية .

لأنه يعد أسمى انواع الكلام ، وأجمل ألوان البيان ، لما يحتويه من بهاء يأخذ بالألباب ، وجمال يستهوي الافئدة ، فقد يطلق بعض الأدباء على كل كلام ينحو هذا النحو ، ويتسم بتلك السمة ، لفظ الشعر كما قال حسان لابنه حين وصف زنبوراً لسعه بقوله « كأنه ملتف في بُرْدَيْ حِبَرَةَ » : شعر ورب الكعبة . وهو لا شك يقصد من وراء ذلك أن هذا الكلام كاد يلحق بالشعر في براعة خياله وروعة تصويره . ولعله لهذا كان العرب يقولون في القرآن إنه شعر ، إذ اجتمع له أسمى وأروع ما في الشعر من جمال البيان وخلابة الاسلوب وسمو التصوير ، ومن تأثير على النفوس وسلطان على الأحاسيس ونفاذ الى أغوار القلوب .

ولقد رأينا من أدبائنا المحدثين حين يزدهيهم بيان، او يطربهم ادب منثور، من يطلق على الكلام الجميل ، الذي لا يتحلى بالوزن ، ولا يتقيد بالقافية ، لفظ شعر منثور ، وكل ذلك من باب الإلحاق والتجوز .

على أن من أدباء الغرب من لا يشترط في الشعر الوزن والقافية ، وقد يعفيه بعض أدباء العرب من قيد القافية ، ويرون أن ذلك أدعى الى طول القصيدة ، وحسن التصرف ، واحتشاد الالفاظ التي تساعد الشاعر ، وتمده بالجزل من القول دون أن يلحقه كلال ، او يصيبه إعياء .

على اننا ونحن بإزاء الكلام الفني الذي يتميز بسمة خاصة في بلاغته ، ويستلفت الاذهان بحسنه وروعته ، لا بد أن نفرق بين النثر والشعر

---

(١) ٧٧ نقد النثر ، ٥٦ جـ ١ العمدة .

ولا يكون ذلك إلا بالوزن . لأن خلوه من الوزن يحرمه خاصية من خواص جماله وتأثيره ، وهي الإيقـــاع الموسيقي الذي يتجلى في تلك الوحدات العروضية المخصوصة .

ولقد راعى ذلك علماؤنا المتقدمون ، حين تناولوه بالبحث ، فقال قدامة ابن جعفر في تعريفه : إنه قول موزون مقفى يدل على معنى .

وقال ابن خلدون[1] هو الكلام الموزون المقفى ، أي ما اجتمع فيه قيد الوزن والقافية معاً ، ولعل ابن خلدون لاحظ ما في هذا التعريف من قصور ينزل بالشعر الى درجة النظم ، الذي لا يحرص على معنى ولا يستهدف فكرة فعاد ثانية[2] الى تعريفه بقوله ، الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء فيهـا في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على اساليب العرب المخصوصة به.

ويقول ابن رشيق في تعريفه[3] الشعر يقوم بعد النية من اربعة اشياء ، وهي اللفظ والوزن والقافية ، فهذا هو حد الشعر .

ومن ذلك كله نرى أن جمهرة الأدباء اجمعوا على أن الكلام لا يتميز عن النثر ولا يطلق عليه لفظ الشعر ، إلا حين يجتمع له المعنى والوزن والقافية.

ولا يستحق الكلام أن يسمى شعراً ، ولا يصطبغ بصبغة الشاعرية ، حتى تتهيأ له اركان الشعر ، وتجتمع فيه عناصره : وكلما وضحت هـــذه العناصر كان أشد تأثيراً على النفس ، ونفاذاً الى القلب ، وإثارة للعاطفة ، وهذه عناصره :

---

(١) المقدمة ص ٥٦٦ .

(٢) ص ٥٧٣ .

(٣) العمدة ص ٩٩ جـ ١ .

أولاً – المعنى :

فالمعنى الشعري لا بد أن يتأنق في صوغه الفكر ، ويطرز حواشيه الخيال ، وأن تحشد له الألوان التي تزيد بهجته، وتسيغ قبوله . وهناك فرق بين المعنى الذي تؤديه قطعة من النثر، والمعنى الذي يحمله بيت من الشعر . إذ اعتماد الأول على العقل يخاطبه ، والحجة يسوقها ، والمنطق يحتمي به ، واعتماد الثاني على الخيال يوقظه ويذكيه؛ والشعور يثيره ، والعاطفة يلهبها . والمرء حين يصغى الى معنى تجود به قريحة شاعر موهوب ، تنقـــاد له مشاعره ، وتخبت جوارحه ، وقـد تهيج عبرته ، وتجتمع شجونه ، وتشتد لوعته . وهذا ابن الرومي يرثي ولده بقوله :

بكاؤكُما يَشْفِي وإن كان لا يُجدي
فُجودَا فقد أودى نَظيرُكُما عندي

ألا قاتل الله المنـــايا ورميَهَـــا
من القوم حبّات القلوب على عمد

تَوَخّى حِمامُ الموت أوسطَ صِبيتي
فلله كيف اختار واسطة العقد

على حين شِمْتُ الخيرَ من لمحاته
وآنست من أفعـــاله آية الرشد

فيثير الحزن الشديد ، ويبعث الألم المتقد ، ويفعل في تهييج الشجون وإسالة العبرات ما لا يفعله كتاب .

وهذا ابو تمام يرثي محمد بن حُمَيد الطوسي بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمرُ
فليس لعين لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ
توُفّيت الآمال بعـــد محمــد
وأصبح في شغل عن السَّفَرِ السَّفْرُ
وما كان إلا مالَ مَنْ قـــلَّ مالهُ
وذُخراً لمن أمسى وليس له ذخر

فيدعو العيون أن تسخو بالدمع ، ويحرض القلوب أن تستحضر اللوعة والحسرة والأنين . ومن هنا ندرك أن معاني الشاعر تعتمـــد دائماً على إثارة العاطفة وتهييج المشاعر ، وقد يصطنع لذلك طرقاً مختلفة من تشبيه واستعارة ، ومجاز وحقيقة ، فتكون الصورة التي أداها وأبدع في تنسيقهـا وتأنق في صوغها أدعى الى الإعجاب وأجلب للتأثر ، حيث يعمل الخيال الشعري عمله في تجليتها وتلوينها .

ثانياً — اللفظ :

وألفاظ اللغة هي هي واحدة لا تختلف في ترتيبها ، ولا تتباين في نطقها ، مهما كانت المعاني التي تؤديها ، والإنسان الذي ينطق بها ولكن الاختلاف العظيم ، والفوارق الجمّة ، تأتي من جهة استعمالها وتعاطيها ، فإذا أوتي الأديب حظاً وافراً من حسن الذوق ، ودقة الاختيار ، وقوة الملاحظة ، استطاع أن ينتقي الألفاظ الشعرية التي تمس الحس ، وتهزه هزاً ، وتدخل القلب دخول الحبيب الأليف المأنوس به ، دون أن تكد فكراً او تثقل على سمع .

وألفاظ الشاعر تتآخى دائماً مع معانيه ، وتتلاءم مع أفكاره ، وكلما كان المعنى مما يرقص له الفؤاد ، وتهتز الجوانح ، استدعى لفظاً موسيقياً نابضاً بالجمال والإشراق . ولكل مقام ألفاظه التي توائمه وتلائمه ضخامة وفخامة ، او رقة ودقة ، فالغزل مثلاً يلائمه اللفظ الرقيق العذب ، والأسلوب السلس الرقراق ، واضطراب البحر او احتدام الحرب ، يتطلب الألفاظ الضخمة والاسلوب القوي الملائم ؛ وبذلك تتوفر الملاءمة بين اللفظ والمعنى ، وهي ما نسميه بالموسيقى الداخلية في الشعر ، التي هي غير موسيقى العروض والوزن .

فالمعنى الجيد ، والخيـــال الطريف ، يحتاج الى لفظ مونق ، وأسلوب مشرق ، وعبارات تفيض رقة وعذوبة وسلاسة ، او قوة وجزالة . وكم من معنى نادر أفسده لفظ مرذول وأسلوب ضعيف مفكك .

أما الاسلوب الناضج القوي ، والصورة البارعة الممتعة، التي تفيض بالجمال والبهاء ، فإنها تستولى على فكر الإنسان وإحساسه ، وتمتلك منـــه مواطن الإعجاب .

ومن يقرأ وصف النابغة للجيش لا يسعه إلا أن يطير فرحاً وطرباً من روعة ما يسمع .. يقول النابغة :

إذا ما غَزَوْا بالجيش حلَّقَ فوقَهم
عصائبُ طيرٍ تهتـــدي بعصائب[1]
يُصَانِعْنَهُمْ حتى يُغِرْنَ مُغَـــارَهم
من الضـــاريات بالدماء الدوارب[2]

---

(١) العصائب الجماعات .
(٢) الضاريات المتعودات والدوارب المتمرنات .

تراهن خلف القوم ُخزْراً عيونُها
ُجلوسَ الشيوخ في ثياب المرانب[١]

جوانحَ قــد أيْقَنَّ أن قبيــلَه
إذا ما التقى الجمعــان أول غالب[٢]

لهنّ عليهم عادة قــد عرفنهـا
إذا عرَض الخَطِّيُّ فوق الكواثب[٣]

على عارفــاتٍ للطعــان عوابس
بهن كلــوم بين دام وجالب[٤]

إذا استُنزِلوا عنهن للطعن أرقلوا
الى الموت إرقال الجِمال المصاعب[٥]

فهم يتســاقوْن المنيــة بينهم
بأَيديهمُ بيضٌ رقاق المضارب[٦]

---

(١) خزرا تنظر بمؤخر عيونها . وثياب المرانب هي ثياب مائلة الى السواد .
(٢) جوانح متماثلات للوقوع .
(٣) الخطي رماح منسوبة الى الخط وهي بلدة ، والكواثب جمع الكاثبة : أعلى ظهر الفرس.
(٤) الدامي الذي يسيل دماً والجالب الذي برأ ، او علته الجلبة وهي القشرة .
(٥) ارقلوا : اسرعوا .
(٦) المضارب : جمع مضرب وهو حد السيف .

ولا عيبَ فيهم غير أن سـيوفهم
بهن فُلولٌ من قِراع الكتائب[١]

يقول الجرجاني: « وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب، وعظم غنائه في تحسين الشعر، فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء، والبحتري في المتأخرين، وتتبع نسيب متيمي العـرب، ومتغزلي اهل الحجاز؛ كعمر وكثير وجميل وأضرابهم، وقسهم بمن هو اجود منهم شعراً وأفصح منهم لفظاً وسبكاً. ثم انظر واحكم وانصف؛ ودعني من قولك: هل زاد على كذا، وهل قال إلا ما قاله فلان؛ فإن روعة اللفظ تسبق بك الى الحكم – وإنما تفضي الى المعنى عند التفتيش والكشف. وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف، ورفض التعمل، والاسترسال للطبع، وتجنب العمل عليه والعنف به »[٢].

ثالثاً – الوزن والقافية:

وأهم العناصر التي تفرد الشعر بطابعه الخاص، وتضفى عليه سمة معينة هو الوزن. فإن لحسن الإيقـاع، وجمال التقسيم، وروعة التنغيم، من الخفة على السمع، والعلوق بالقلب، والتأثير في النفس ما ليس للكلام المسرود، الذي لا يسنده الوزن، ولا يؤلف بينه النظام.

ولقد رأينا في أدبنا العربي أن ما وصل إلينـا من تراث الشعر، فراع الناس وبهرهم، وأثار كامن إعجابهم، انما جاء في هذا السمت، وذلك الطراز المعروف الموزون. فإذا تأنق بعد ذلك أديب، او اجتهد فنان، في خلق

(٣) الفلول: الثلوم. والقراع: المجالدة.
(٤) الوساطة ص ٣٠.

صورة تلتمع أضواؤها ، وتشع أفكارها ، في ألفـاظ مرسلة ؛ فلا يصح أن نقول إنها شعر ، إذ انها تنقص الوزن الذي كان يزيد من جمالها ، ويضاعف من رونقها وبهائها ، لو أنه كان موجوداً .

ولولا الوزن لما تهيأ لهذا التراث العربي أن يصل إلينا على تعاقب الاجيال، وتتابع الدهور ، والقوم إذ ذاك لا تسعفهم حضارة بكتابة ، ولا يواتيهم علم بتدوين ، ولضاع هذا الرنين الموسيقي العروضي المصاحب للألفاظ والمعاني .

ولا يخفى ما للقافية كذلك من سحر وجاذبية ، ومن جمال ووقع لدى السمع . ومن دلالة على براعة الشاعر ؛ وإعلان عن مقدرته .

فاتحاد القافية تصنع في تجميل القصيدة ، وحسن استوائها واطف وقعها ، ما يذهب به التعدد؛ فالقافية تلتزم في آخر الابيات تمشياً مع الغناء لأنها قوية الشبه بوقفات المغنيين ، ونهايات العـــازفين ، فهي نهاية النفس في البيت ، واستراحة منه الى الآخر ، على أن هذا الاتحاد من ناحية اخرى قـد جعل الشعر العربي قصيراً بالنسبة الى غيره من أشعار الامم ، التي امتازت بالطول، لأن اضطرار الشاعر الى التزام سمت خاص، والتقيد بقافية واحدة، وخضوعه لطبيعته البدوية التي لا تميل الى الاستقصاء ، ولا تجنح الى الدقـة والعمق ، بل تكتفي باللمحة، وتسكن الى الخاطرة . كل ذلك كان سبباً في قصر الشعر العربي عن غيره .

وقد دعا جماعة من المحدثين كما سبق الى طرح القـافية من الشعر العربي الحديث ، لانها وإن تعددت في القصيدة الواحدة ــ يجعل كل قسم من اقسامها على قافية ــ قيد للشاعر ، وعبء عليه ؛ إذ لا تدع الشاعر حراً في تصوير ما يريد، وهي السبب الأكبر في رأيهم لتأخر الشعر العربي عن الشعر الغربي.

ويدعو آخرون الى تعدد القوافي ، ويقولون إنه إذا اتسعت القوافي لشق

المعاني والمقاصد ، وانفرج مجال القول، بزغت المواهب الشعرية على اختلافها، ورأينا بيننا شعراء القصة والوصف والتمثيل .

ويدعو بعض المعاصرين الى التجديد في أوزان الشعر وبحوره القديمة الموروثة عن الخليل للتحرر من الاوزان القديمة المحدودة ، وليكون الشعر أقدر على تصوير ألوان الحضارة والترف والعمران ، وليلائم التجديد المستمر في الغناء وألحانه .

ولا شك أن في هذه الدعوات إسرافاً في الخصومة للشعر العربي القديم ومناهجه الموروثة .. وإن كنا نعد تعدد القوافي في القصيدة بحسب أغراضها وموضوعاتها أخف وأيسر مما سواه .

ومما لا ريب فيه أن الشعر العربي بصورته الموروثة فيه جمال فني ظاهر، وله روعة وقوة وتأثير ، والتزام الوزن والقافية فيه يكسبه رنيناً موسيقياً ساحراً ، ويدل على قدرة الشاعر واكتمال ثقافته الادبية[١] .

---

(١) راجع الكلام على عناصر الأدب في اول الكتاب فهي عناصر الشعر كذلك مضافة الى الوزن والقافية .

الفصل الثاني

نشأة الشعر

ليس هناك من شك في أن الإنسان قد اهتدى الى الشعر بفطرته ، وانساق الى هذا الفن الرفيع بطبيعته ، التي شاقها ما في الكون من حسن التناسق ، وجميل الانسجام ، وحلو الأنغام . دعته طبيعته الدافقة أن يتغنى بما يعتلج في صدره ويشدو بما تزخر به نفسه ، من ألوان ألوان الإحساسات وفنون الانفعالات . فتفتّق بالغناء لسانه ، وتفجر به بيانه ؛ وانطلقت عقيرته . فالغناء ظاهرة فطرية لازمت الإنسان منذ وجوده على هذه الأرض .

اصغى الى ما يحيط به من تناوح الرياح ، واصطفاق المياه ، وخرير الأنهار ، وحفيف الأشجار . وتعاقب الليل والنهار .. وأوحت إليه هذه المظاهر الرائعة التي تهتف بها موسيقى الكون ، أن يشدو بأنغامها الحالمة ، ونبضاتها الخافقة .

أحس بمعان حركت قلبه ، وأثارت نفسه ، وجاش بها صدره ، ثم استفاضت على لسانه في صورة منغومة ربما كانت أول الأمر أصواتاً مبهمة ،

ثم استقرت في كلمات منثورة ذات مدلول يعبر عن إحساسه ، ثم تدرجت هذه الكلمات المتناثرة الى السجع المتحد القافية ، والمتناسق الألفاظ ، لأنه أقرب الى التوقيع الموسيقي وأليق بالغناء ، من النثر المطلق . ثم أخذت هذه الأنغام ، او تلك الكلمات التي يتغنى بها حين تهيجه ذكرى ، او تثيره لوعة ، او يبعثه داع ، أخذت تتطور وتتغير حتى استقرت في أوضاع خاصة هي التي تعرف عندنا الآن بأوزان الشعر ، وهي التي انتهى إليهـا الغناء ، فالتغني بالنثر عسير شاق ولكن الشعر بأوزانه أليق بالغناء وألصق به .

فنشأة الشعر تكاد تكون توأماً لنشأة الغنـاء ، إذ كان الحافز لهذا هو الداعي الى ذاك ؛ وإذ كان الجمال المنبعث منهما له تأثير رائع على الأفئدة والأسماع ، وعلى الغرائز والطباع ، ثم أخذ كل فن منهما يعمل دائبـاً في رسالته ويتطور في أداء مهمته ، ويحاول أن يأخـذ أوضاعاً خاصة به ، فتطورت أوزان الشعر ، وتعددت ، وأخذت سمتها المعروف الآن ؛ كما تطورت ألحان الغناء ، وأصبح فنـاً قائماً بنفسه لا يحتاج الى الشعر ، ولا يتوقف على أوزانه ، وصار كذلك الشعر يستطيع أن يصور خوالجه ، ويرسم أحاسيسه دون أن يقصد الى الغناء ، او يفكر فيه .

قال ابن رشيق في العمدة « كان الكلام كله منثوراً ، فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز نفوسها الى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض ، فعملوها موازين للكلام . فلما تم لهم وزنه سموه شعراً ، لأنهم شعروا به ، أي فطنوا له »[1]؛ فالغناء كان من دأب العربي وهو يقطع المسافات على ظهر راحلتـه ، تهتز به اهتزازات توقيعية في بطئها وإسراعها ، مما يوحي إليه بالأوزان الملائمة لهذه

---

(١) ج ١ ص ٥ .

الاهتزازات ، يحدوها بها ، وكان من دأبه وهو يهجم في الحرب ، او يمتح من البئر ، او تعوزه التسلية ، او تنزل به النازلة ، فينفس عن نفسه بالغناء .

وهكذا كان الشعراء في الجاهلية يغنون بشعرهم وهم ينشدونه ويلقونه ، كان المهلهل يغني بشعره وهو يشرب الخمر ، وكان الأعشى يغني في شعره ، فكانت العرب تسميه « صناجة العرب »[1] . وكان حسان يقول :

تغنّ بالشعر إما كنت قائله

إن الغناء لهـــذا الشعر مضمار

وإن احتفاظ اللغة بلفظ الإنشاد للدلالة على إلقاء الشعر وإن لم يصاحبه غناء لدليل على الصلة الوثيقة بين الشعر والغناء ، فيقال أنشد فلان قصيدة ، ويقول المتنبي لممدوحه :

أجزني إذا أُنشدتَ شعراً فإنما

أتاك بشعري المادحون مردَّدا

وما الدهر إلا من رواة قصائدي

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرًا

وغنَّى به من لا يغني مغرّدا

---

(١) الأغاني جـ ٥ ص ٥١ دار الكتب .

والناس يطلقون الى اليوم على من يغني على الربابة القصص الشعري في أبي زيد الهلالي ، اسم الشاعر : ومن قبل أخذ السجع وهو المرحلة الأولى للشعر من سجع الحمامة وترجيعها :

وكان الشعر اليوناني كذلك مرتبطاً بالغنـــاء ، كان هوميروس يتغنى بالإلياذة على آلة موسيقية خـاصة ، ونشأت بأوربا في العصور الوسطى جماعات من الشعراء الجوالين يطوفون بالبلاد ، ويتغنون بشعرهم ، وقد اتصلوا بالشعر العربي في الأندلس ، وتأثروا به ، وكان يطلق على هذه الجماعة « التروبادور » .

أولية الشعر العربي :

ليس من السهل على الباحث أن يهتدي الى تاريخ صحيح لمولد هذا الفن الجميل عند العرب . فهم أمـــة شاعرة تهدر بالشعر طبائعهم ؛ وتشدو به ملكاتهم . يقولونه إذا حلوا او ارتحلوا في ظعنهم وإقامتهم ، وخوفهم وطمأنينتهم ، وحربهم وسلمهم .

وهم يقولون إن أولية هذا الشعر ترجع الى ما قبل الإسلام بقرن ونصف على الأكثر . وابن سلام الجمحي يقول(١) : ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته ، وإنما قصدت القصائد ؛ وطول الشعر ، على عهد عبد المطلب او هاشم بن عبد مناف ، وقال الأصمعي : إن المهلهل اول من يروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر .

ولا يمكن لباحث أن يطمئن الى أن هـذا التراث الحافل ، وذلك الشعر المهذب الخالد ، يرجع الى قرن ونصف قبل البعثة ، فهل من المعقول أن يولد

---

(١) ١٧ طبقات الشعر لابن سلام .

فن كامل النمو ، تام النضج ، مستوى الخلق ، لا يستولي عليـــه ضعف ، ولا يستبد به هزال ؟ ولقد قضى العرب أزماناً سحيقة بهـذه الجزيرة ، وبادت منهم طوائف ، وقامت دول إثر دول ؛ فلا يعقل أن تعيش الطبائع كليلة غافية ، حتى زمن هاشم او عبد المطلب ، ثم تنفتح دفعة واحدة عن شاعرية بارعة ، وخيال رائع ، ونظم فاخر ، يخلد على وجه الزمن .

ومما يدل على أن الشعر الذي انتهى إلينا قـد نضج وصار فناً رفيعاً ، أنهم أطلقوا على الشعراء أحياناً أسمـاء تدل على خصائصهم فمثلا سمي طُفيل الخيل (المحبّر) لأنه يزّين شعره ، وسمي زياد بن معاوية (النابغة) لنبوغه في الشعر كما يقول ابن رشيق ، وسمي امرؤ القيس بن ربيعـة (المهلهل) لطيب شعره ورقته ، او لأن شعره مهلهل كهلهلة الثوب ، وهو اضطرابه واختلافه ، او لأنه أول من أرقّ المراثي ، وسمي علقمـة (الفحل) لجودة شعره .

إن الذي يتقبله العقل ، ويطمئن إليه ضمير الباحث أن آثار تلك العهود وأشعارها في تلك الحقب ، قد انطوت عليها حجب الزمان ، وأسدلت عليها استار النسيان ، فلم يصل إلينا عنها ، ولم نهتد فيها على اثر او خبر ، وإذا كان الشعر بعـد ذلك قد دخل عليه الزيف ، وشاع فيه الوضع ، واثيرت حوله الشكوك والريب ، فلا جرم يكون للدارس مندوحة حين يغفل تلك الأحقاب التي لم يساعدها تدوين ، ولم تتمكن منها رواية صحيحة .

فاذا جاء بعـد ذلك إنسان ، وقال هذا شعر منسوب الى عاد وثمود ، او الى طسم وجديس ، الى آخر تلك الأسماء التي وعاها التاريخ مجردة عن آثارها ، وحفظها عاطلة خالية من اعمالها ، قلنا له كما قال الله جل شأنه ، وانه اهلك عادا الأولى وثمود فما ابقى .

ولقد اثر عن بعض الشعراء الأوائل من الاشعار ما يدل على انهم تأثروا

بأشعار أسلافهم ، وإن لم ترو لنا هذه الأشعار . هذا امرؤ القيس يقول :

عوجا على الطلل المَحِيل لعلّنا

نبكي الديار كما بكى ابنُ خِذام

فمن هو ابن خذام هـــذا ، وما هي تلك القصائد التي صورت دمعته ، وحملت آهته ؟

وهذا زهير يقول :

ما أرانا نقول إلا مُعـــاراً

أو مُعاداً من قولنـــا مكرورا

فأين هذه الأشعار التي استعاروها ، وتلك الأخيلة والأفكار التي كرروها ورددوها ؟

وهذا عنترة يصيح قائلاً : هل غادر الشعراء من متردّم[1] ؟

نخلص من ذلك كله الى أن الشعر قد تهذبت حواشيه في زمن لا نعرفه ، ولا يمكن أن نهتدي إليـه ، لأن العرب لم تساعدهم كتابة ، ولم يسعفهم تدوين . وكل ما أمكن الوصول إليه تلك الأشعار التي أثرت عن أصحابها قبل الإسلام بقرن او أكثر قليلاً .

ولقد كثر الشعراء في الجاهلية ، حتى كان لكل قبيلة شاعر ، يدافع عن أحسابها ، ويذيع مفاخرها ، وينطق بلسانها ، وإذا نبغ الشاعر في القبيلة أسرعت القبائل إليها بالتهنئة .

---

(١) التردم . الاصلاح ، او الترنم وترجيع الصوت .

وقد تنازعت القبائل أولية الشعر الذي وصل إلينا ، فادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ؛ ادعت اليمانية أن امرأ القيس أول من أطال القصائد ؛ وقال بنو أسد : بل عبيد بن الابرص ؛ ونسب التغلبيون الأولية الى مهلهل ؛ وعزاها البكريون لعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر ؛ وادعاها الإياديون لأبي دؤاد ، وزعم بعضهم أن الأفوه الأودي أقدم من هؤلاء .

وهكذا تتسابق القبائل الى الاستئثار بهذا المجد ، اعتزازاً منها بالشعر ، وفخاراً بالشعراء ، ونخلص نحن من هـذا كله بما قررناه من أننا لا نستطيع الجزم بأولية الشعر ، او تحديد الزمن الذي هُذبت فيه حواشيه ، وأطيلت قصائده .

الفصل الثالث

مكانة الشعر الجاهلي ومنزلة الشعراء

كان الشعر في الجاهلية ديوان العرب ، والمصور لآمالهم وآلامهم وحياتهم ومشاهد الوجود بينهم ، أودعوه وقائعهم ومفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وآثارهم وذكرياتهم وأوصاف بيئتهم .

وكان له سحره وروعة تأثيره في نفوسهم ، إذ كان صوت القبيلة، ولسان القوم ، والذائد الحامي الذمار ، والمدافع عن الاحساب والأنساب والشرف والناطق بالحجة ، والداعي الى الخير . وكان الشعراء ذوي مكانة كبيرة بينهم ، فهم الذين ينطقون بمجد القبيلة ، ويفخرون بجلالها وماضي أيامها . وحسبك من مكانة الشعر عند العرب أنه لما بعث النبي ﷺ بالقرآن المعجز نظمه ، المحكم تأليفه ، وأعجب قريشاً ما سمعوه منه قالوا : ما هـــذا إلا سحر ، وقالوا في النبي : شاعر نتربص به ريب المنون . ويقول الأصمعي : « الشعر جزل من كلام العرب ، تقام به المجالس . وتستنتج به الحوائج ، وتشفى به السخائم » .

ونبغ في الشعر كثير من الشعراء والشاعرات ، ممن خلدت ذكرهم كتب الأدب والشعر ومصادرهما الأولى .

ولا تزال مصادر الأدب والشعر الجاهلي صورة ناطقة ببلاغتهم وسحرهم وشدة تأثيرهم وقوة بلاغتهم وجلالة أثرهم في حياة العرب في جزيرتهم طول هذا العصر الجاهلي الغابر .

ومن قدر الشعر عندهم أن كانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أتت القبائل فهنأتهم بذلك ووضعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، او شاعر ينبغ ، او فرس تنتج[1] .

ولم يترك العرب شيئاً مما وقعت عليه اعينهم او سمعته آذانهم او اعتقدوه في انفسهم إلا نظموه في سمط من الشعر حتى إنك ترى بمجموع أشعارهم ديواناً فيه من عوائدهم وأخلاقهم وآدابهم وأيامهم وما يستحسنون ويستهجنون ، ولذلك قالوا : كان الشعر ديوان العرب ومعدن حكمتها وكنز أدبها .

وقال دعبل : « كان امرؤ القيس من أدباء الملوك ، وكان من اهل بيته وبني ابيه اكثر من ثلاثين ملكاً فبادوا وباد ذكرهم وبقي ذكره الى يوم القيامة ، وإنما امسك ذكره شعره » .

وبعد فقد كان الشعر في الجاهلية هو المقيد لأيامها والشاهد على أخبارها والناطق بمجدها والمصور لمفاخرها ، وكان لكل قبيلة شاعرها الذي يذود عنها ويناضل عن شرفها ، ويساجل خصومها وينازلهم في كل مجال ، وكانت العرب أمة يسحرها البيان وتروعها البلاغة ويستبد بإعجابها الشعر الجيد البليغ.

---

(١) العمدة ١ – ٣٧ .

كان الشعر قوة فعالة في الحياة الجاهلية . . وكان له تأثيره في نفوسهم ، وسلطانه في حياتهم وقدره وخطره فيما بينهم، يرفع الخامل ويضع الفذ العظيم، وينوه بشأن القبيلة ويزري بأعدائها وخصومها ، ويشفع فتقبل شفاعته .

لقد انشد الحارث بن حلزة قصيدته :

آذنتنـــا ببينهـــا أسماء   رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثواء

بين يدي عمرو بن هند ، وكان ينشده من وراء سبعة ستور ، فأمر برفع الستور عنه استحساناً لها ، ثم أدناه وقربه[1] .

وقالوا إن الأعشى قدم مكة ، وتسامع الناس به فأشارت امرأة المحلق عليه أن يسبق الناس الى ضيافته، فنحر له وسقاه ، وبالغ في إكرامه، فسأله الأعشى عن حاله ، فعرف البؤس في كلامه ، وذكر بناته ، فقال الاعشى : كفيت أمرهن ، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته التي يقول فيها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرةٌ
الى ضوء نار باليفـــاع تحرّق
تُشَبُّ لمقـــرورَيْن يصطليـــانها
وبات على النـــار الندى والمحلّق

فما أتم القصيدة حتى انسل الناس الى المحلق يهنئونه ، وتسابق الأشراف الى بناته يخطبونهن ، فلم تمس واحدة منهن إلا وهي في عصمة رجل أفضل

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٣ .

من ابيها ألف ضعف[1] ، وارتفع ذكر المحلق بعد خمول .

ولقد عرفنا كيف استطاع الشعر أن يستل السخائم من النفوس ، ويحيل الضغينة الى مودة ، والحانق الى متهلل الوجه منبسط الأسارير ، عرفنا هذا في يوم حليمة ، لما أسر الحارث الغساني شاس بن عبدة ، فمدحه اخوه علقمة ابن عبدة بقصيدته التي يقول فيها :

فلا تحرَمَنّي نائلاً عن جنـــاية
فإني امرؤ وسط القبـــاب غريب
وفي كل حيّ قـــد خبطت بنعمة
فحُقّ لشـــاس من نداك ذنوب

فقبل الحارث شفاعة الشعر ، وقال : أي والله وأذنبـــة ، وأطلقه مع قومه وأثقلهم بالمنح .

وكان من تأثير الشعر أن يصم بصفات او اعمال قد تكون افتراء ولكنها تلصق بالشخص ، او تعلق بالقبيلة ، وكأنها صدق .

كان العبسيون والعامريون يتنافسون في الحظوة عند النعمان ، ولكن العبسيين استأثروا بها، لأن الربيع بن زياد العبسي كان يؤاكل النعمان وينادمه ويهون من شأن بني عامر ، فغاظهم ذلك ، فدخلوا على النعمان ومعه الربيع يأكل معه ، فقال احدهم وهو لبيد العامري الشاعر المعروف يهجو الربيع وينفر النعمان منه :

---

(١) العمدة ١ - ٢٥ .

مهلا أبيت اللعن لا تأكل معَــهْ

إن استَهُ من بَرصٍ ملمَّعَــهْ

وإنه يُدخل فيهــا إصبَعَهْ

كأنما يطلب شيئاً ضيَّعَــهْ

فتأفف النعمان ، وأبعد الربيع عن مجلسه ، وأمره بالانصراف الى اهله[1] وأدنى العامريين وقضى حوائجهم .

وذهب الأعشى قاصداً رسول الله ليمدحه ويعلن إسلامه وكان قــد نظم قصيدته :

ألم تغتمض عيناك ليـلة أرمدا

وبت كما بات السليم مسهــدا

فتصدت له قريش وحالت بينه وبين ذلك خوفاً من تأثير شعره وأهدت له هدية سنية فرجع .

وهجا حسان بني عبد المدان وكانوا أشرافاً طوال الاجسام بقوله :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر

جسمُ البغــال وأحلام العصافير

(١) أمالي المرتضى ١ - ١٣٧ .

فعيرهم النــاس بذلك ، فقالوا يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحي من طول اجسامنا ، بعد أن كنا نفخر به ، فأصلح منهم ما أفسد بقوله :

وقــد كنا نقول إذا التقينـــا
لذي جسم يعـــد وذي بيان
كأنك أيهـــا المعطى بيـــانا
وجسماً من بني عبـــد المدان

وقد بقي هذا التأثير للشعر في الرفع والخفض بعـد الإسلام ، فقد كان بنو أنف الناقة يخجلون من هذا الاسم، ويحرفون في نسبهم حين يسألون عنه الى أن قال الحطيئة فيهم :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهمو
ومن يُسَوِّي بأنف النـــاقة الذنبا

فصاروا بعد ذلك يتطاولون بهذا النسب .

وكانت نمير إحدى جمرات[1] العرب ، وإذا سئل الرجل منهم عن نسبه مد صوته بقوله (نميري) حتى أطفأ جرير جمرتهم وأخزاهم بقوله :

فغض الطـــرف إنك من نُمير
فلا كعباً بلغت ولا كلابا

---

(١) الجمرة : القبيلة التي تعتز بعصبيتها ولا تحالف غيرها وهي من التجمر بمعنى التجمع . وجمرات العرب ثلاث : ضبة ونمير وعبس .

وكان بنو العجلان يفخرون بلقبهم هـــذا زاعمين أنه من تعجيل القرى للأضياف ، فهجاهم النجاشي بقوله :

وما سمي العجلان إلا لقـــولهم
خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فسلح عليهم كما قال حسان .

ذلك شأن الشعر ، وتلك مكانته عند العرب ، وهـذا تأثيره في الرفعة والضعة ، وكذلك كانت منزلة الشاعر وهيبته في النظام القبلي عند العرب[1].

شاعرية العرب :

وإن من يستعرض الشعر الجاهلي الذي انتهى إلينا وسلم من الضياع ، لتروعه كثرته وكثرة شعرائه ، فما بالك لو انتهى إلينا كله ؟ وحسبك أن تنظر في الاغاني والامالي والحماسة والكامل والمفضليات وطبقات الشعراء وغيرها من الكتب ، لترى البحر الزاخر والمعين الثجاج ، ومع هذا فما نظن احداً من العلماء والمؤلفين استغرق شعر كل قبيلة من القبائل حتى لم يفته منها شاعر ، ولم تعزب عنه قصيدة .

ويذكر ابن قتيبة أن أبا ضمضم أنشد شعراً لمائة شاعر كلهم اسمه عمرو[2]؛ ويذكر المؤرخون أن حماداً كان يحفظ مائة قصيدة لكل حرف من حروف الهجاء[3] ، وأن أبا تمام كان يحفظ اربعة عشر ألف أرجوزة ، وأن خلفاً

---

(١) راجع من رفعه المدح ووضعه الهجاء في العقد ج ٣ ص ٤١٤ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٦ .
(٣) المرجع نفسه .

كان يحفظ ستة عشر ألفـــاً . وان الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف ارجوزة[1] .

فعلام يدل ذلك كله ؟ إنه يدل على أن العرب أقوى الأمم شاعرية ، وأشعر الامم السامية .

والسر في شاعريتهم هو الفـراغ من الاعمال التي تعوق عن الكلام ، والصحراء الساكنة الهادئة التي تملأ القلب روعة ، والنفس عاطفة ، والعقل فكراً وتأملا . وهي غنية بجمالها المطبوع : تشرق فيها الشمس صافية ، ويبزغ القمر وضاحاً ، وتلتمع النجوم التماع قطعة الماس ؛ وفيها هـذا البراح الفسيح ، والحرية المطلقة ، مما يولد في النفوس الانطلاق ، ويطلق اللسان بالتعبير عما في الضمير . ومن أسرار شاعريتهم صفاء قرائحهم ، وسرعـــة خواطرهم ، فالعربي ذكي ، سريع البديهة ، متوقد الإحساس ، جياش العواطف ينافح عن قبيلته ويترصد خصومها ، ويغني بمحامدها ، وتثير مقامات الحروب والغارات مشاعره، وتهيج إحساسه، ويأسره الجمال فيلهمه، ويهزه سرى الركب في الليل فيحـدوه . . ومن اسرار شاعريتهم حريتهم واستقلالهم ، وما فرضته عليهم حياتهم من حل وترحال ، وما يثير ذلك في نفوسهم من لوعة فراق الاحباب ، ويهيج من مشاعرهم نحو المعاهد والأطلال، فكانوا لذلك اهل حب وهيام. كما كانوا اهل حروب وغارات مما يبعث الشعر ويطلق به الألسنة .

يضاف الى ذلك أنهم امة امية تعتمد على الذاكرة لا على التدوين، والشعر اسهل في الحافظة وأعلق بالذهن .

وقد ساعدهم على ذلك كله لغة غزيرة المادة ، كثيرة المفردات ، شعرية برنينها وموسيقاها ، اسعفتهم بحاجاتهم ، وتجاوبت مع مشاعرهم وعواطفهم .

---

(١) الوفيات ج ١ ص ٢٨٨ .

فليس بعجيب إذن أن يكون العرب اشعر من غيرهم ، وأن يقولوا الشعر بالفطرة ، وأن ينظمه كل عربي وعربيـــة ، لا فرق بين ملك وأمير وحكيم وصعلوك . وليس بغريب أن يصلنا عنهم هذا البحر الزاخر مع انه قليل من كثير ضاع معظمه بعدم التدوين وموت كثير من الرواة في الغزو والفتوح . يقول ابو عمرو بن العلاء : « ما جاءكم مما قالت العرب إلا اقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم كثير وشعر كثير[1] .

(١) المزهر ج ٢ ص ٢٩٤ وطبقات ابن سلام .

الفصل الرابع

انواعُ الشِعْـر

يرى أدباء الإفرنج أن الشعر ينقسم الى انواع ثلاثة : الشعر القصصي ، والشعر التمثيلي ، والشعر الغنائي .

١ – الشعر القصصي :

فأما الشعر القصصي فهو الذي يعتمد في مادته على ذكر وقـائع وتصوير حوادث في ثوب قصة تساق مقدماتها وتحكى مناظرها وينطق أشخاصها .

فالشاعر القصصي قد يطوف بحياته حادث من الحـوادث تنفعل به نفسه وتتجاوب له مشاعره ويهتز إحساسه ، فيعمد الى تصوير هذا الحادث كما تمثل لديه في قصة ينسج خيوطها ويرسم ألوانها ويطرز حواشيها .

وقد يبتدع قصة ويخترع حادثة لترويج فكرة أو تشييع لرأي . فيختار لها الأشخاص الذين يتحدث بلسانهم ، وينطق بما في نفوسهم .

والقصة دائماً تعتمد على براعة الخيال وقوة الحبك وحسن الملاءمة بين المناظر ، والاحتيال في إنطاق الاشخاص بما تختلج به جوانحهم ، ويتردد في صدورهم من الأفكار . وقد تصور القصة الأمجاد الحربية وتسجل المفاخر القومية ، وتتغنى بما مر على الأمة من بطولة وشجاعة ، وتذكر أعمال الأبطال ومغامراتهم في الحروب فتسمى حينئذ ملحمة . ولا بد أن تدور وقائعها حول بطل مغامر يقتحم الأهوال ويخوض المغامرات ويأتي بأعمال خارجة عن مألوف الناس وعاداتهم ، ثم لابد كذلك أن يكون من قوة الصوغ وفخامة الأسلوب وجمال الأداء ما يلفت اليها النفوس ويجذب نحوها الأسماع .

ومن هذا النوع : إلياذة هوميروس وهي ملحمة في بضعة عشر ألف بيت متسلسلة الحوادث في موضوع واحد هو حرب طروادة مع اليونان .

والأينياد وهي ملحمة لاتينية . نظمها فرجيل أكبر شعراء الرومان ، مقلداً بها إلياذة هوميروس .

والمهابهاراتة الهندية وهي ملحمة هندية نظمها « فياسه » أحد كهان الهنود وتبلغ مائتي ألف بيت في وصف الحروب بين الشعوب الهندية .

والشاهنامة وهي ملحمة فارسية نظمها أبو القاسم الحسن بن إسحاق الفردوسي المتوفى عام ٤١١ هـ في تاريخ الأكاسرة ، وأخبارهم ووصف الحرب بين ايران وطوران .

٣ – الشعر التمثيلي :

وهو نوع من الشعر يعتمد كذلك على القصة وحوادثها ، ولكن لا بد له من مناظر يقوم بها ابطال وأشخاص يمثل كل منهم دوره ويؤدي مهمته ويبرز أمام العيون بالواقع كما تمثلت على صفحة الحياة نابضة ناطقة وعماد الشعر التمثيلي

الحوار والمجاذبة بين أشخاص مختلفين ، ولا بد ان تصحبه مناظر يراها النظارة .

وإن اسمه ليحمل ما يرمي إليه من مدلول ، فهو تمثيل لما وقع كأنه يحدث ابتداء وقت التمثيل ، دون ذكر لفظ قال او اجاب او نحوهما .

والشعر العربي القديم وإن كان قد خلا من هذا اللون فقد حفل العصر الحديث بدرر قوية نادرة مثل كليوباترة ومجنون ليلى وقمبيز لأمير الشعراء شوقي بك .

٣ – الشعر الغنائي :

وهو الذي يصف به الشاعر ما يحس من خواطر وما يجيش في نفسه من خوالج .. يحب ويبغض ويفرح ويحزن ويرضى ويغضب فيفيض قلبه بما يجد وينطق لسانه بما يشعر ويسكب آلامه المبرحة وهمومه المتلجة وعواطفه المشبوبة في اسلوب مؤثر ، يوقظ غافي المشاعر ويحرك كامن الإحساس .

ولعل الذين قسموا الشعر الى قصصي وتمثيلي وغنائي ، لحظوا ابرز معنى يغلب على كل قسم فالقصصي يظهر فيه القصص واضحاً غلاباً وإن كان مما يمكن ان يتغنى به ، والتمثيلي يبرز فيه التمثيل واستعراض الحركات ، والغنائي يغلب عليه الصلاحية للغناء لأنه ادب ذاتي يصف الإحساس ويصور الوجدان وإن لم يكن في بعض صوره ومظاهره مما يصلح للغناء ، وقد توجد فيه القصة ، ولكنها ليست من قوة المظهر واكتمال المقومات بحيث يمكن ان يسمى بها ؛ فهو إذا كان قد حمل قصة او حكى حادثاً او صور منظراً من مناظر الحياة ، فذلك مما وقع له عفواً لأن سوق الكلام وتصوير ألوان النفس قد اقتضاه واستدعاه .

مكانة الشعر العربي من هذه الأنواع :

نقرأ الشعر العربي من لدن عصر الجاهلية ، ونستعرض قصائده ، وندرس روائعه وأوابده ، فتطالعنا من ظواهره السمة الغنائية . فهو في كل أطواره تسجيل لخلجات الأنفس ونوازعها ، وتصوير لما يحسه الشاعر من نعيم وشقاء ، وراحة وعناء ، وخير وشر ، ومـا يمر أمامه من صور الحياة وأحداث الوجود ، ومـا يكابده من هول الصحراء ، وعصف الرياح ، ولمع البروق ، وعواء الذئاب ، وخداع السراب .

فهو شعر وجداني تبعثه الانفعالات النفسية ، وتزجيه الأحاسيس الذاتية . ومن هنا برع الشاعر العربي أشد البراعة في كل ما يقع عليه حسه ، أو يتصل بسمعه ، أو يراه بصره ، فافتتن أيما افتتان في وصف المرأة ، وتحدث في كل مناسبة عن هيـامه بهـا ، وحبه لها ، وأجـاد في وصف الإبل ، وفي وصف الخيل لأنها عدتهم يوم الطغيان والنزال . كما أبدع في وصف المعـارك الحربية وخلد بطولة الأبطال في قصائد حية باقية .

وإن القارىء ليطـالع قول طرفة يدعو الى اللذة ، ويؤثر اللهو ، ويعلن أن الموت يستوي عنده المسرف والبخيل ، فيرى صيحة رجل أخـذت عليه الشهوة أقطار نفسه ، إذ يقول :

نداماي بيضٌ كالنجوم وقينةٌ
تروح إلينا بين بُرْدٍ ومُجسَدَ (١)

---

(١) الندامى : جمع نديم . والقينة : الأمة المغنية . تروح أي تأتينا عشية ، والمجسد الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران او الثوب الذي يلي الجسد وهو الشعار .

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنـا
على رِسْلِها مطروفةً لم تَشَدَّدِ [1]

إذا رجَّعتْ في صوتها خلت صوتها
تجاوب أظآرٍ على رُبَعٍ ردي [2]

ومـا زال تشرابي الخمور ولذتي
وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي [3]

إلى أن تحامتني العشيرة كلهـا
وأُفرِدْتُ إفراد البعير المعبَّد [4]

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغي
وأن أشهد اللذات: هل أنت مخلدي؟

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أُبادِرْها بما ملكت يدي

---

(١) على رسلها . هينة في رفق وتؤدة . مطروفة العين أى ساكنة الطرف أي لم تبـالغ في صياحها .

(٢) أظـآر . جمع ظئر وهي الناقـة المرضع . والربـع الفصيل الذي ولد في ربيـع . وردي أي هالك .

(٣) الطريف : المال الذي يكسبه الانسان بنفسه . والتليد والمتلد الذي يرثه عن آبائه .

(٤) المعبد الأجرب المطلي بالقطران المبعد عن الابل .

أرى قبر نحّـــام بخيل بمـــاله

كقبر غَوِيٍّ في البطالة مفسد [1]

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي

عقيلة مـــال الفاحش المتشدد [2]

ولعل السر في أن الشعر العربي قد خلا من اللونين القصصي والتمثيلي ،

أن كلا منهما يحتاج الى الكتابة والتدوين واستقرار الحيـــاة ، حتى يتسنى للشاعر ان يجيل فـكره ، ويعمل ذهنــه ويتروى في ترتيب الأحداث ، واستنطاق الاشخاص ، وتحليل الطبائع ودراسة النفسيات ، والإلمام العميق بنزعات القلوب ، وخلجات الأفئدة ، واتجاه الغرائز . وذلك من أبعد الاشياء عن طبيعة العربي . الذي لم تؤهله حياته البسيطة لبحث أو درس ، ولم تدعه الى إعمـــال ذهن ، وكـد فكر ، واكتشاف مقدمات ، وترتيب نتائج ، ولم تمكنه طبيعته من تحليل أو تعمق ، إنمـــا كان يعتمد على اللمحة الخـــاطفة ، والخاطرة التي ينبجس بهـــا الاحساس لأول وهلة . . ومن هنا كان يدل دائمـاً بالقول الموجز . والعبارة المختصرة . قال ابن الأثير : في كتابه . المثل السائر : « إني وجدت العجم يفضلون العرب في الإسهاب ، مع الاحتفـــاظ بالجودة ، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله الى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاهنـــامة ، وهـــو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم . وقد أجمع فصحاؤهم على أنه

---

(١) النحام الشحيح الذى يسعل حين تطلب إليه حاجة ، والغوي الذي يتبع هواه .

(٢) يعتام . يقصد والعقيلة الكريمة على الشخص من مال وغيره . الفاحش البخيل .

ليس في لغتهم أفصح منه . . وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعهـا ، وتشعب فنونهـا وأغراضهـا . . وعلى أن العجم بالنسبـة لهم كقطـرة من بحر » .

لقد نشأ شعر العربي من طبيعة نفسه وممـا يتصل به من رياح متناوحة ، وسماء صافية ، وصحراء جدباء مقفرة، فجاء لوناً واحداً ، تمثلت فيه خواطر أناس تشابهت حياتهم ، وتقاربت معايشهم ، وأنطوت عليهم طبيعة واحدة ، تضن بالرزق ، وتفيض بألوان الحـب والتراحم والتعاطف ، أو تدعـــو الى النزال والقتال .

من أجل ذلك توحدت غالباً مشاعرهم ، وتجاوبت عواطفهم ، وتمـاثلت آمـالهم وأمانيهم ، وكادت ان تتماثل أخيلتهم وألفاظهم ومعانيهم . نستبين ذلك في وقوفهم على الأطلال ، وبكائهم الديار والآثار ، وذكرهم من أقاموا ثم تحملوا ، واستقروا ثم ارتحلوا ، حتى كادت بعض تعابيرهم أن تتشابه الى حد بعيد .

على ان العرب لم يفتهم ان يتخيلوا في شعرهم ما يصح ان يكون بين المحبين من وصل وصد ، وتقـارب وتباعد ، وأسبـاب الإغراء ، وعوامل الإثارة ، فاخترعوا لذلك أقاصيص وحكايات نبض بهـا شعرهم ، وانطوت عليها بعض قصائدهم ، والذي يقرأ شعر امرىء القيس ، او يستعرض ديوان عمر بن أبي ربيعة يلمح فيه من ذلك ألواناً طريفة جميلة .

وهم كذلك لم يغب عنهم أن يسجـــلوا وقـائعهم في الحروب ، ويخلدوا مواقفهم في القتال، فنطقت بذلك أشعارهم ونضحت قصائدهم، وإن اختلف نهجهم ، وغايرت طريقتهم طرائق شعراء القصص والملاحم .

ولقـد تحدث أمثال عنترة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة والمهلهل في

أشعارهم عن الحروب ، وما يتمثل فيها من شجاعة وبطولة . ولكن هؤلاء وأولئك لا يصح ان يسلكوا ضمن شعراء الملاحم والقصص ، لأنهم كانوا يصفون وجدانهم وإحساسهم ، وقد جاءهم ذلك عفوا دون أن يقصدوا الى وضع قصة او يعمدوا الى تصوير ملحمة .

ولعل السر في اعتبار هذا اللون من الشعر بالغنائي ان منشأه في الأصل الرغبة في التغني بما يعتلج في الصدر من هم، او يطوف بالنفس من رغائب .. ثم كان للعرب من حداء الإبل ليستخفها الطرب ، ويأخذ منها النغم ، فتهتز وتنشط ، حافز أي حافز على الغناء ، ومن هنا كانوا يطلقون على إلقاء الشعر إنشاداً ، وكان كثير من الشعراء القدماء يتغنون بشعرهم . ولقد قيل إن هوميروس صاحب الإلياذة لم يكن يلقي أشعاره إلقاء ، بل كان يتغنى بما يحفظه من قصص الأبطال . . ولقد قيل إن كلمة « شعر » العربية مأخوذة من كلمة شير العبرية بمعنى الترتيلة او التسبيحة . . وفي أخذهم السجع من هديل الحمامة ، والرجز من إيقاع مشي الناقة، وقولهم : أنشد فلان قصيدته، ما يدل على ان الشعر مصدره الغناء .

والخلاصة أن لون الشعر العربي عامة والجاهلي خاصة من بين ألوان الشعر الثلاثة غنائي ؛ أما القصصي والتمثيلي فلا أثر لهما فيه والسبب في ذلك هو :

١ — ان مزاولة هذين اللونين من الشعر تقتضي الروية والفكرة، والعرب أهل بديهة وارتجال .

٢ — وأنهما يتطلبان الإلمام بطبائع الناس ، وقد شغل العرب بأنفسهم عن دراسة النفوس والتفرغ لتحليل طبائع الناس .

٣ — وأنهما يفتقران الى التحليل والتطويل، والعرب أشد الناس اختصاراً للقول ، وأقلهم استقصاء في البحث .

٤ — وأنها يحتاجان الى كثرة الأساطير ، ولم تتوفر هذه الكثرة للعرب.

٥ — على أن قيود الوزن والقافية في الشعر العربي لا تساعد على الاطالة وإنشاء الملاحم الطويلة .

٦ — وعلى ان الشعر القصصي والتمثيلي يحتاجان الى تدوين وكتابة لأنها لون من ألوان التدوين والحضارة ، والعربي في الجاهلية لم يكن يعرف هذه الوسائل ، وكان بعد العصر الجاهلي محتذياً للقدامى في مناهجهم الادبية وألوان شعرهم الفنية .

على ان الشعر العربي لا يعيبه أن ليس فيه هذان اللونان : فقد جال بلونه الغنائي في كل ميدان، وضرب بسهم في كل غرض، وتحدث عن خفي العواطف ودقيق المشاعر ، ووصف الحرب وأبطالها .

ومع ذلك فقد جاءت بعض القصص في الشعر العربي ، وإن كانت قصيرة ساذجة ، لا تصل الى الملاحم الكبيرة التي عرفها الفرنج، فامرؤ القيس يصور دبيبه الى النساء ، وحوادثه مع معشوقاته ، في مقطوعات من قصائده كما يقول في المعلقة :

ويوم دخلت الخدر خدر عُنَيزةٍ
فقالت لك الويلات إنك مُرْجلي

الخ . . . .

وكما يقول في أخرى :

سموت إليها بعد ما نام أهلها
سُموَّ حَباب الماء حالاً على حال

فقـــالت سبـاك الله إنك فاضحي

ألست ترى السُّمَّار والناس أحوالي

الى آخر القصيدة ... وقصيدة الحطيئة التي يقول فيها :

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل

ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

قصة جميلة تصور التضحية والكرم . وكذلك ما جـــاء في معلقة عمرو ابن كلثوم ، وقصيدة الحارث بن حلزة ، من قصص البطولة والفخر .

ويقول الأعشى في حادثة السموأل ووفـائه لامرىء القيس ، إذ أبى أن يسلم دروعه ورضي بقتل ابنه :

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به

في جَحْفَلٍ كهزيع الليـــل جرّار

إذ سامه خطتي خسف فقال له :

قل مـا تشاء فإني سامع حـــار

فقـــال : غدر وثُكل أنت بينهما

فاختر ومـا فيهما حظ لمختـــار

فشك غير طويل ثم قـــال له :

اقتل أسيرك إني مانعٌ جـــاري

فاختار أدراعه كي لا يُسَبَّ بها

ولم يكن وعده فيهـــا بختّار

وهكذا نجد كثيراً من قصص الغزل في شعر عمر بن أبي ربيعـة وغيره ، كما نجد تصويراً لبعض الوقائع والأحداث في شعر شعراء العربية .

ولكنها على كل حال قصص صغيرة لا تتجاوز المقطوعات .

أما الشعر التمثيلي فقد نهض في العصر الحديث على يد شوقي ، كما نرى في رواياته : عنترة ، وكليوباطره ، ومجنون ليلى وغيرها . وتبعه عزيز أباظه في مسرحياته المعروفة .

ولا شك أن ذلك من أثر الحضـارة والمدنية والتـأثر بالأدب الافرنجي ، والتحرر من قيود القـافية والوزن ، والاستمداد من التاريخ ، واتساع أفق الخيال .

الفصل الخامس

التكسب بالشعر

وأثره فيه

كان الشعر العربي ينبع دائماً من طبع الشاعر ، ويتفجر من إحساسه ، لا تتحكم فيه صنعة ، ولا تستبد به كلفة ، ولا يعمد صاحبه الى تنقيح او تجويد ، ليكتسب رضا كبير ، او يصل الى عطف عظيم ، إذ هو رجل معدود في اشراف الناس، يضعونه في موضع الرياسة والتعظيم ، وهو لا يقول الشعر إلا استجابة لإحساسه ، وانقياداً لعاطفة يشتعل بها خاطره .

قال ابن رشيق[١] : كانت العرب لا تتكسب بالشعر ، وإنما يصنع احدهم ما يصنعه ، فكاهة او مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها . كما قال امرؤ القيس يمدح بني تيم رهط المعلى :

---

(١) ص ٦٤ ج ١ العمدة .

أقرّحشا امرىء القيس بن حُجْر

بنـــو تَيْمٍ مصــــابيح الظلام

لأن المعلي أحسن إليه ، وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء لقتله بني ابيه الذين قتلوا بدير مرينا . فقيل لبني تيم مصابيح الظلام من ذلك اليوم لبيت امرىء القيس .

فلما شعر الكبراء والقادة بأن مظاهر سيادتهم . ودلائل عظمتهم أن يكون هناك شاعر يعلن من شأنهم ، ويرفع من اقدارهم ، ويذيع مفاخرهم ، ويلبسهم من شعره حللاً فضفاضة من الإجلال والمهابة، أخذوا يقربون الشعراء ويغدقون عليهم العطايا السنية والهبات الجزيلة .

وبدأ الشعراء ينساقون في هذا السبيل . دون ما تحرج او حفاظ على ما اكتسبوا من عظيم المنزلة ، ورفيع الدرجة . ولقد نشأ النابغة الذبيـــاني فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، فسقطت منزلته .

مدح النعمان بن المنذر ، ومن قوله فيه :

ألم تر أن الله أعطاك سورة

ترى كل مَلك دونهـــا يتذبذب

فإنك شمس والملوك كواكب

إذا طلعت لم يبد منهم كوكب

ومدح عمرو بن الحارث الغساني فكان مما قال فيه :

عليّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمـــة

لوالده ليست بذات عقـــارب

لهم شيمة لم يُعطهـــا الله غيرهم

من الجود والأحلامُ غير عوازب

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم

بهن فلول من قـــراع الكتائب

وتكسب مالاً جسيماً من هذا المدح ، حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة ، مما صار اليه من عطاء الملوك .

وتكسب زهير بن أبي سلمى بشعره حين قبل عطايا هرم بن سنان حتى حلف لا يمدحه زهير ولا يسلم عليـــه إلا أعطاه ، وخجل زهير من كثرة ما أخذ ومن طول ما اغدق عليه ، فكان يمر بالقوم ويقول عموا صباحاً غير هرم وخيركم استثنيت .

ولقد سأل عمر بن الخطاب ابنة زهير : ما فعلت حلل هرم التي كساها أباك ؟ فقالت أبلاها الدهر . قال: ولكن ما كساه ابوك هرماً لم يبله الدهر.

ومما قاله في هرم وقومه :

وفيهم مقامات حســـان وجوهم

وأندية ينتابهـــا القول والفعل

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم
مجالس قد يُشفى بأحلامها الجهل

ومدح حصين بن حذيفة فكان مما قال :

وأبيض فيــــاض يداه غمامة
على مُعتفيه ما تُغِبّ فواضــــله

تراه إذا ما جئتــــه متهللا
كأنك تعطيـــه الذي أنت سائله

وجاء الأعشى فامتهن الشعر وابتذل جلاله، وجعله وسيلة الى كسب قوته وانتجاع رزقه ، وقصد به ملوك العرب والعجم .

وممن مدحهم الأسود بن المنذر الذي يقول فيه مخاطباً الناقة :

لا تَشكَّيْ إليّ وانتجعي الأسو
دَ أهل النــــدى وأهل الفعال

عنده البر والتقى وأسا الصـــد
ع وحمل للمشكلات الثقـــال

كما مدح قيس بن معد يكرب فقال :

ما النيل أصبح زاخراً في مَدّه
جاءت له ريح الصبـــا فجرى لها

يوماً بأجـــود نائلاً منه إذا
نفسُ البخيل تجهّمتْ سُؤّالها

وألح الحطيئة في التكسب بالشعر حتى لم يترك احداً لا يرجى منه نفع إلا مدحه طمعاً في نواله او هجاه يأساً من عطائه .

مدح علقمة بن علاثة فقال :

تكاد يــــداه تسلمان رداءه
من الجود لمـــا استقبلته الشمائل

ومدح آل شماس فقال :

يسُوسون أحلاماً بعيـــداً أناتُها
وإن غضبوا جاء الحفيظة والجدُّ

أولئك قوم إن بَنوا أحسنوا البِنا
وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدّوا

ومن ممدوحيه كذلك بغيض ، وطريف بن قتادة الذي يقول فيه :

سرينا فلمـــا أن أتينا بلاده

أقمنـــا وأرتعنـــا بخير ومرَبع

فتى غير مفراح إذا الخير مسّه

ومن نائبات الدهر غير جزوع

ولئن كان الشعراء يمدحون الملوك ويزدلفون الى الرؤساء استدراراً لمـــا عندهم من منح ، فإن الحطيئة على جلالة شعره وعظم منزلته فيه لم يأنف من أن يقصد العامة ويسترفد أطراف الناس وغمارهم .

هنا يأخذ الشعراء سمتاً جديداً ، ويتسم بطابع لم يكن له من قبل . ذلك أن الشاعر الذي كان ينطق عفو الخـــاطر ، ويستوحي ما يمر به من صور وما يؤثر في نفسه من أحداث ومناظر . أخذ يشحذ همته ، ويصقل ذهنه ، ويراجع فكره، ويهذب بيانه، ويجود فيما تفيض به شاعريته من ألوان القول، ليكتسب رضا الممدوح ، ويصل الى ما يريد من نفسه . حتى قيل إن زهيراً كانت له قصائد تسمى الحوليات ، لأنه ينشئها ثم يراجعها ، ثم يعرضها في حول كامل حتى ترضى بها نفسه ، ويسكن إليهـا خاطره ، وبذلك قيل لهؤلاء المجودين « عبيد الشعر » .

وكما تأثر جوهر الشعر حين جعله الشعراء سلماً الى الأغراض المادية وذريعة الى المنافع الشخصية ، كذلك تطأمنت منازل الشعراء وغض هذا التكسب من اقدارهم فانصرف عنه كثير من رؤسائهم وأنفوا من قوله ، وإن ظلوا يرهبون سلطانه ، ويفرقون من سوطه ، ويضعونه الموضع اللائق به .

قال صاحب العمدة : « كان الشاعر في مبتدأ الأمر ، أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم الى الشعر في تخليد المآثر ، وشدة المعارضة وحماية العشيرة،

وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل ، فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته . فلما تكسبوا به وجعلوه طعمة ، وتناولوا به الأعراض ، صارت الخطابة فوقه[1] » .

وهكذا نرى كيف حط التكسب بالشعر من مكانته ، وإن كان هـــذا التكسب قد عاد عليه بالجودة والتنقيح ، ومعاودة النظر فيه حتى يبرأ من العيب. وليس معنى هذا أن الشعراء لم يكونوا من قبل يحفلون بهذه المراجعة، او يرون أن الشعر فن يفتقر الى التجويد والتنقيح ؛ فهم قد شبهوا القصـائد ببرود العصب ، وهي ثياب جيدة محكمة النسج من اليمن ، وبالحلل والمعاطف والديباج والوشى وأشباهها[2] . قال ابو قردودة يرثي قتيلاً ويصف كلامه :

يا جفنةً كإزاء الحوض قد هَدمُوا
ومنطقاً مثل وشي اليَمْنةِ الحِبَرَه

وقال امرؤ القيس يصف ما يعانيه حين تنثال عليه القوافي ، فيرد بعضها، ويتخير ما يستجاد من درها :

أذود القـــوافيَ عني ذياداً
ذيادَ غلامٍ جريءٍ جـــرادا
فلمـــا كثُـــرْنَ وعنَّيْنَه
تخير منهن شتّى جيـــادا

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٦٦ .
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٧٩ السندوبي .

فأعزل مرجانها جانباً

وآخذ من دُرّها المستجادا[1]

وإنما افرط عبيد الشعر في ذلك ، حتى إن الحطيئة قال : « خير الشعر الحولي المحكك » . وكان الأصمعي يقول : زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما « عبيد الشعر » وكذلك كل من يجود في جميع شعره ، ويقف عند كل بيت قاله ويعيد النظر فيه ، حتى يخرج ابيات القصيدة كلها مستوية في الجودة[2] .

---

(١) ديوان امرىء القيس ٦٣ ونسبها بعض الرواة الى شعراء جاهليين آخرين .

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ١١ .

الفصل السادس

فنون الشعر الجاهلي

عرفنا أن الشعر العربي كان مبعثه الاستجابة لأحاسيس النفوس من حب وبغض ، والتعبير عن رغباتها من إذاعة المكارم ونشر المحامد ، وتصوير عاطفة آلمها فقد حبيب ، وموت عزيز ، او اغتراب خلّ وفيّ .

ومن هنا تنوعت أغراضه وتشعبت فنونه ، وتناول الغزل والمدح والفخر والهجاء والرثاء والوصف والحماسة والاعتذار ، ولكل مذهب وفن لغته التي تناسبه، وأسلوبه الذي هو ألصق به، فالغزل يحتاج الى رقة اللفظ وعذوبته، والفخر يستدعي الجلبة وقوة الأسلوب وضخامة المعنى وهكذا . ومن ثم قد يجيد الشاعر في فن منها ويقصر في الآخر .

قال ابن قتيبة : « الشعراء بالطبع مختلفون ، فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء ، ومنهم من تسهل عليه المراثي ، ويتعذر عليه الغزل . وقيل للعجاج : إنك لا تحسن الهجاء فقال : إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نظلم وأحساباً تمنعنا من أن نظلم . وهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيباً وأجودهم

تشبيهاً ، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة ومـاء وقراد وحية ، فإذا صار الى المديح والهجاء خانه الطبع ، وذلك الذي أخره عن الفحول فقالوا في شعره: أبعـار غزلان ونقط عروس . وكان الفرزدق زير [1] نساء وصاحب غزل ، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب .. وكان جرير عزهاة [2] عن النساء عفيفاً ، وكان مع ذلك احسن تشبيباً ، وكان الفرزدق يقول « ما أحوجه مع عفته الى صلابة شعري ، وأحوجني الى رقة شعره لما ترون [3] » .

وقال ابن رشيق في العمدة [4] : قال بعض العلماء : بني الشعر على أربعة أركان وهي المدح والهجاء والنسيب والرثاء .

وقالوا : قواعد الشعر أربع : الرغبة والرهبـة والطرب والغضب . فمع الرغبة يكون المدح والشكر ؛ ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع .

وإن الناظر في ما بين أيدينا من آثار العرب وأشعارهم يجد أن فنون الشعر كلها ظاهرة لامعة متحققة بأروع وأجلى بيان .

الحماسة والفخر :

مصدر حمس بمعنى اشتد وقوي ، والحماسة في الشعر التغني بالصفات التي تنبىء عن القوة ، وتدل على الشجاعة والاستهانة بالصعب من الأمور والعسير من المخاطر وخوض غمار الحروب ، وذم الجبن والخور والفرار .

---

(١) يكثر من زيارتهن والتودد اليهن والحديث معهن .
(٢) عفيفاً .
(٣) الشعر والشعراء ٢٦ .
(٤) جـ ١ ص ١٠٠

وقد أكثر شعراء العرب من تناول هذه المعاني والإلحاح على هذا الغرض لأن الشجاعة والإقدام وركوب الأهوال من الخلائق الطبيعية المركوزة في أعماق نفوسهم ، حتى لقد رأينا من يجمع حماسة العرب فقط فيؤلف فيها الأسفار ، ويجمع المجلدات الضخام .

والفخر تمدح المرء بكرم الخلال ، وطيب الشمائل ، ومباهاته بنفسه او قبيلته ، وهو من أخص صفات العرب ، ومن اوسع الأبواب في اشعارهم ، حتى إن بعض قصائدهم الطوال قيل في هـذا الغرض كمعلقة عمرو بن كلثوم وبجمهرة امية بن ابي الصلت . وكانوا يفخرون بالشجاعة والإقدام ، والنجدة وإغاثة الملهوف ، وحماية الجار ، والكرم ونحو ذلك مما كانوا يتمدحون به . ولكنهم كانوا لا يبالغون في الفخر ، ولا يسرفون في التمدح .

ومن أمثلة الحماسة والفخر قول عمرو بن كلثوم يفتخر بأيام قومه وغاراتهم المشهورة :

أبا هنــد فلا تعجَل علينـــا
وأنظِرنا نُخَبِّرْكَ اليقينـــا[1]

بأنا نُورِدُ الرايات بِيضـاً
ونُصْدِرُهن حُمْراً قد رَوِينا[2]

وأيامٍ لنـــا غُـــرٍّ طِوال
عصينا المَلْكَ فيها أن نَدِينا[3]

---

(١) أنظرنا : أمهلنا .
(٢) روينا من دماء أعدائنا .
(٣) أي ونخبرك بأيام حرب لنا .

وسيد معشر قـــد توّجوه

بتاج الملك يحمي المُحْجَرِينا[1]

تركنا الخيل عاكفةً عليه

مُقلَّدَةً أعِنّتهـــا صُفُـــونا[2]

متى ننقل إلى قوم رحـــانا

يكونوا في اللقـــاء لها طحينا

وقد علم القبـــائل من معد

إذا قُببٌ بأبطحها بُنينـــا

بأنا الحاكمون بمـــا أردنا

وأنا النـــازلون بحيث شينا

ونشرب إن وردنا المـــاء صفواً

ويشرب غيرُنا كدرا وطينا

إذا بلغ الفطام لنـــا رضيع

تخـــرّ له الجبابر ساجدينا

---

(١) المحجرون اللاجئون .

(٢) أي قتلناه ونزلنا لأخذ سلبه فبقيت خيولنا واقفة عليه صافنة والصافن القـــائم ، او الذي يرفع إحدى قوائمه لعباً .

ويقول ودّاكُ بنُ ثُمَيْل المازني في يوم لهم على شيبان :

رويداً بني شيبان بعضَ وعيدكم
تلاقوا غداً خيلي على سفوان[١]

تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى
إذا ما غدت في المأزِق المُتَداني

عليها الكُماة الغُرُّ من آل مازن
ليوثُ طِعان عنـد كل طِعَان[٢]

مقاديمُ وصّالون في الرّوع خَطوهم
بكل رقيق الشفرتين يمــاني

إذا اسْتُنجِدوا لم يَسألوا من دعاهمو
لأية حـــرب أم بأي مكان

وقال الحُصين بنُ الحُمَام المُرّي وهو شاعر جاهلي مقل :

تأخّرتُ أستبقي الحياة فلم أجد
لنفسي حيــاة مثل أن أتقدما[٣]

---

(١) صفوان : اسم ماء كانت عنده الموقعة .

(٢) الكماة : جمع كمي وهو الشجاع او لابس السلاح .

(٣) يريد أنه لما تأخر طمع فيه العدو فاجترأ عليه فلم يجد لنفسه حياة مثل التقدم لأن الجبان يطمع فيه كل أحد فيكون سريع العطب .

فلسنا على الأعقاب تَدْمَى كلُومُنا
ولكن على أقدامنا تقطُر الدِّما[١]

نُفَلِّق هــــاماً من رجال أعزةٍ
علينا ، وهم كانوا أعقَّ وأظلما

ويقول عمرو بن الإطنابة :

إني من القوم الذين إذا انتدَوْا
بدأوا بحق الله ثم النــــائل[٢]

ألمــــانعين من الخَنَا جاراتهم
والحاشدين على طعام النازل[٣]

والخالطين فقــــيرهم بغنيــــهم
والبــــاذلين عطاءهم للســــائل

والقاتلين لدى الوغى أقــــرانهم
إن المنيــــة من وراء الوائل[٤]

---

(١) كناية عن أنهم يقدمون على الحرب ويستقبلون السيوف بوجوههم فإذا جرحوا قطرت الدماء من اقدامهم ولا يولون حتى يجرحوا في ظهورهم .
(٢) انتدوا : جلسوا في النادي يريد أنهم يؤدون الفرض والنفل .
(٣) اي انهم اهل عفاف يوفون بحق الجوار .
(٤) الوائل الذي ولى عن الحرب . أي أن الفار من الحرب لا ينجيه فراره منهم .

وقد كان حاتم الطائي يفخر بأنه سيد ماله ، ينفقــه في فك الأسرى وإغاثة المحتاجين :

إذا كان بعض المــال ربا لأهله

فإني بحمـــد الله مالي مُعبَّد

وهو يقسم أنه يؤثر الضيفان على نفسه وهو جائع اتقاء الذم، وإنه ليستحيي أن يأكل وحده ، فهو يوقد النار ليهتدي بها الأضياف :

أما والذي لا يعلم السر غيره

ويحيي العظام البيض وهي رميم

لقد كنت أختار القرى طاويَ الحَشا

محافظة من أن يقـــال لئيم

وإني لأستحيي يميني وبينهــا

وبين فمي داجي الظـــلام بهيم

وقد تبرأ طرفة بن العبد من أن يعتصم بالتلاع تهرباً من القرى :

إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلتُ أنني

عُنيتُ فلم أكسل ولم أتبلّد

ولست بحلال التلاع مخافــة

ولكن متى يسترفد القوم أرفــد

ويقول عنترة في معلقته :

هلا سألت الخيل يا ابنةَ مالك
إن كنت جاهــلة بما لم تعلمي
يُخبرك من شهد الوقيعـــة أنني
أغشى الوغى وأعِفُّ عند المغنم
ومدَّججٍ كره الكماة نزاله
لا مُمْعِنٍ هرباً ولا مُستسلم[1]
جادت له كفي بعاجل طعنـــة
بمثقَّفٍ صَدْقِ الكعوب مقوَّم[2]
فشككتُ بالرمح الأصَمِّ ثيابَه
ليس الكريمُ على القنا بمحرّم[3]

ونلاحظ بوجه عام أن الشعراء يستمدون مفاخرهم من المظاهر البدوية الصادقة، دون تكلف للمغالاة، او إمعان في المبالغة ، او جنوح عن المعقول، وربما بدت المغالاة في مثل شعر عمرو بن كلثوم الذي اوردناه ، او في مثل قول عنترة :

(١) المدجج المتغطي بالسلاح .
(٢) المثقف : المقوم . صدق : صلب . الكعوب : عقد الرمح .
(٣) الأصم : الصلب .

وأنا المنية في المواطن كلها
والطعن مني سابق الآجال

ولكنها مبالغات قريبة ونادرة في الشعر الجاهلي ، لم تصل بعد الى مثل قول ابن سناء الملك مثلاً في العصور التالية :

توقد عزمي يترك الماء جمرةً
وحيلةُ حلمي تترك السيفَ مِبردا
ولو مدّ نحوي حادث الدهر كفَّه
لحدثتُ نفسي أن امد له يدا
وإنك عبدي يا زمان وإنني
على الرغم مني ان ارى لك سيدا

الفتوة والصعلكة (١) :

ويتصل بالحماسة والفخر ذلك النوع من الشعر الذي كان يقوله طائفة خاصة من الشعراء امتازوا بالشجاعة والحمية في قلوبهم ، والقوة والفتوة في أجسامهم ؛ ولكنهم كانوا فقراء ضاقوا بالحرمان ، وتبرموا بالفقر ، وحقدوا

---

(١) في القاموس : صعلكه : أفقره ، والصعلوك الفقير ، وتصعلك افتقر ، وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم . وكان النبي (ص) يستفتح بصعاليك المهاجرين أي يستنصر بفقرائهم ، فالصعلوك هو الفقير الذي لا مال له ، وإن تطور مدلول الكلمة فيما بعد . وهؤلاء الذين نتحدث عنهم لم يكونوا فقراء فحسب بل كانوا كذلك أقوياء شجعاناً ، وكانوا يضيقون بالفروق بين الأغنياء والفقراء .

على الأغنياء ، وثاروا على النظام المالي ، فراحوا يغنمون عنوة ما حرموه ، ووجدوا السعادة في أن يثأروا لأنفسهم وللفقراء من امثالهم ، من ذوي الجدة واليسار . وقد وحد بينهم الحرمان، وألف بينهم المبدأ ، فعطف بعضهم على بعض ، وتقاسموا ما كانوا يغنمون ، وأوى بعضهم الصعاليك العاجزين عما قدروا عليه من السلب والنهب .

وقد عرف هؤلاء بالشعراء الصعاليك او اللصوص او العدائين ، لما كانوا يتمازون به من سرعة الحركة والخفة ، وشدة العدو ، والخبرة بدروب الصحراء .

ومن أشهرهم في الجاهلية: عروة بن الورد، وكان يلقب بعروة الصعاليك، لأنه كان يجمعهم ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى[1] . ومنهم تأبط شراً[2] . والشنفرى ، وسليك بن السلكه .

وكانوا يفخرون بالصعلكة لأنها شيمة الشجعان الأقوياء ، ويتغنون بالأنفة والكرم والحمية وشدة البأس وقوة الشكيمة وعدم الخوف من التهديد والوعيد . كما كانوا يباهون بمغامراتهم ، وبصبرهم على الشدة ، واحتمالهم الجوع وإيثارهم له على أن يكون لأحد نعمة عليهم . والظاهر أنهم كانوا لا يهجمون إلا على البخلاء فقط من الأغنياء .

وكان أدبهم او اكثره مقطوعات لا قصائد ، ولعل مرد ذلك الى أنهم ذوو خفة وسرعة واختلاس ، لم يألفوا التمهل والتروي ، فجاء شعرهم صورة من حياتهم ، كما يتميز ادبهم بوحدة الموضوع ، فليس فيه غزل ولا بكاء أطلال او نحو ذلك .

---

(١) أغاني دار الكتب ٣ - ٧٣ .

(٢) قيل إنه تأبط سكيناً ذات يوم وخرج فسئلت عنه امه ، فقالت لا ادري ، إنه تأبط شراً وخرج ، فسمي بذلك .

وشعرهم على العموم يصور ضرباً من ضروب الحيـاة العربية ، ويسجل اعمالهم ونفسياتهم ؛ فهو صدى للواقع ، وصورة للحقيقة ، ولهذا لا نجد فيه غزلاً مثلا ، وكيف يتغزل من يقضي نهاره يترقب، وليله يترصد ، ولا يستقر في مقام ؟[1] .

يقول عروة الصعاليك مصوراً منهجه :

إذا المرء لم يبعث سَوَاماً ولم يرحْ
عليه ولم تَعطف عليه اقاربُهْ

فللموتُ خيرٌ للفتى من حيـــاته
فقيراً ومن مولى تدبُّ عقاربُهْ

وسائلة اين الرحيل ؟ وســـائل
ومن يسأل الصعلوك اين مذاهبُه

فلا اترك الإخوان ما عشت للردى
كما انه لا يترك المــــاء شاربه

وهو الذي يقول في المغامرة :

ومن يك مثلي ذا عيال ومُقتراً
من المال يَطرحْ نفسه كل مَطرَح

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي للحوفي ٢٣٨ .

ليبلغ ُعذراً او يصيب رغيبـــة
ومُبلغُ نفسٍ عذرَها مثلُ منجحِ[1]

ويقول مفتخراً بكرمه ومشاركة الناس له في طعامه وإنائه :

وإني امرؤ عـــافي إنائيَ شِركةٌ
وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحد[2]

أُقسِّم جسمي في جسوم كثيرةٍ
وأحسُو قَراحَ الماء والماء بارد[3]

ويخاطب زوجته بأنه يجوب البلاد ليغتني فيتحمل حقوقاً يعجزه الفقر عن تحملها :

دعيني اطوف في البـــلاد لعلني
أفيد غنى فيـــه لذي الحق مَحْمِلُ

---

(١) ليبلغ عذراً أي ليقيم لنفسه عذراً فلا ينسب الى الكسل . اي إما أن يبلغ عذراً لنفسه او يصيب مغنماً .

(٢) العافي طالب المعروف ، وشركة اي خلق كثير كناية عن الكرم ، والشطر الثاني كناية عن البخل .

(٣) اي اقسم قوت جسمي ، والقراح الماء الذي لم يخالطه غيره ، والمراد بالماء البارد زمن الشتاء وهو وقت الجدب . اي انه يؤثر الناس على نفسه ايام الشدة والجدب ويستكفي بحسو الماء البارد عن القوت .

أليس عظيماً ان تُلمّ مُلمّـــةٌ
وليس علينا في الحقوق مُعوّل ؟

وقد ذم عروة الصعلوك المتـكاسل الذي يقتنع بأن يعرق العظم ، ويجلس حول المجازر ، ويقنع بأن يملأ بطنه وينام ، ويخـدم نساء الحي ، فإذا جاء الليل صار هزيلا منكسراً ، ومدح الصعلوك المغامر :

لحا الله صُعلوكاً إذا جن ليلُه
مُصَافِي المُشَاشِ آلفاً كلّ مجزَر[1]

ينام عشـــاء ثم يصبح ناعساً
يحثّ الحصـــا عن جنبه المتعفّر

يُعين نســـاء الحي ما يَستعِنَّه
ويمسى طليحـــاً كالبعير المحسَّر[2]

ولكن صعلوكاً صفيحةُ وجهـــه
كضوء شهاب القابس المتنوّر

مُطلاًّ على أعـــدائه يزجرونه
بساحتهم زجر المَنيح المشَهَّر[3]

(١) المصافي المختار والمشاش العظيم الممكن مضغه والمجزر موضع نحر الإبل .
(٢) الطليح والمحسر : الذي اقعده الأعياء والكلال .
(٣) المنيح : من قداح الميسر لاحظ له، يجال مع القداح ويزجر فشبه به الصعلوك الممدوح.

فذلك إن يَلق المنية يلقهـــا

حميداً وإن يستَغْن يوماً فأجـــدر

ويصف تأبط شراً نفسه فيقول :

قليلُ غرار النوم اكبر همـــه

دمُ الثأر او يَلقى كمياً مُسفَعَّا[1]

يبيت بمغنى الوحش حتى ألِفْنَـهُ

ويُصبح لا يحمي لها الدهر مرتعًا[2]

رأيْن فتى لا صيْدُ وحش يهُـمُّه

فلو صافحتْ إنساً لصافَحْنَه معا[3]

حقـاً إنهم لا ينامون إلا غراراً وغراراً قليلاً . يقول عمرو بن براقـة الهمداني :

ألم تعلمي ان الصعاليك نومهم

قليل إذا نام الخـــليُّ المُسالمُ

---

(١) الغرار القليل الكمي الشجاع المسفع المتغير لون الوجه .

(٢) طالت ملازمته الوحوش حتى ألفته ، فلا يمنعها من الرعي فهي لا تخاف منه لأن همته مصروفة الى غيرها .

(٣) رأت الوحش فتى لا يخطر صيده لها على بال ، فلو كان في الإمكان ان تصافح إنسانا لصافحته كلها من طول ما ألفته .

متى تجمع القلب الذكيّ وصارما

وأنفاً حميّاً تجتنبْكَ المظـــالمُ

متى تطلب المال المقنَّع بالقنا

تعش ماجداً او تخترمْك المخارم

وقد عبر الأحيمر السعدي في الاسلام عن هذا المبدأ الاشتراكي العنيف الذي يعتنقه الصعاليك ، فقال :

وإني لأستحيي من الله ان أرى

اجرِّر حبلاً ليس فيــــه بعير

وأن اسأل النذل البخيل بعيره

وبعران ربي في البلاد كثير

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت اطير(١)

المدح :

المدح : هو الثناء على إنسان بذكر أفضاله وتعداد خلاله الكريمة وخصاله العظيمة . ولم يكن لذلك في أول الجاهلية مظهر خـاص يجني من ورائه المرء

(١) معجم الشعراء ٣٧ .

مغنيا ، أو يستدر هبة ، او يجتلب به اخلاف الرزق . وإنما كان في بدء امره إحساساً بفضيلة ، او شعوراً بيد ، يدفع الانسان الى يمدح ويثني على من قدم له المعروف ، او أسدى اليه اليد ، كما قال امرؤ القيس يمدح رهط المعلى .

أقرّ حشَا امرىء القيس بن حُجْر
بَنُـو تَيْم مصابيحُ الظـلام

فلما عرف الشعراء طريق العطايا والهبات أكثروا من المديح ، وبالغوا في الزلفى ، وانقطعوا للرؤساء والأمراء والملوك يثيرون فيهم كامن الغرور ، ويوقظون هاجع الكبرياء والعظمة ، بما يضفون عليهم من صفات ، ويسبغون من نعوت . وكانوا لهذا يراجعون شعرهم ويجودونه ويهذبونه ، حتى سموا بعبيد الشعر .

ومن هؤلاء النابغة وزهير والأعشى والحطيئة ، وقد مدح الأخيران الملوك والسوقة .

وقد قالوا إن أمدح بيت قالته العرب قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة
ترى كل مَلْك دونها يتذبذب
بأنك شمسٌ والملوك كواكب
إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهن كوكب

وكان الجاهليون يمدحون بكرم الخلال ، كالشجاعة والكرم ، والعفة

والنجدة والبأس، والعدد ، ونحو ذلك من الشمائل التي كانت من دأبهم ، والتي كانوا يفاخرون بها .

ولقد شاع المدح وكثر بعد تبذل الشعراء، واتخاذه أداة للارتزاق ، ومهنة للتكسب ، وعاد ذلك على الشعر بالجودة ، وعلى مكانته بالابتذال .

ومن المدائح قول المسيب بن علس يمدح مالك بن سلمة الخير :

كفَّاهُ مُخلفةٌ ومُتْلفةٌ
وعطاؤه مُتَخَرِّقٌ جَزْلُ[1]

يهب الجياد كأنها عُسُبٌ
جُرْدٌ ، أطار نسيلها البقْلُ[2]

للضيفِ والجار الغريب وللط
فل التِّريك ، كأنه رَأْلُ[3]

ولقد تناولني بنائله
فأصابني من ماله سَجْلُ[4]

(١) متخرق واسع ، جزل . كثير

(٢) العسب : جمع عسيب الجريدة لا خوص فيها . ونسيل الخيل شعرها ، والبقل نبت يرعى .

(٣) التريك : المتروك . الرأل : ولد النعام .

(٤) النائل : العطاء . السجل بفتح السين الدلو العظيمة المملوءة فاذا لم يكن بها ماء فلا تسمى سجلا ولا ذنوبا .

ويقول زهير بن سُلمى في حصن بن حذَيفة الفزاري :

بكرتُ عليه غُــدوةً فرأيتُه
قُعــودا لديه بالصريم عـواذلُهْ
يُفدّينه طــوراً وطـوراً يَلُمْنَه
وأعيا فما يدرين أين مخــاتلُهْ
فأقصرْن منه عن كريم مُرَزَّإٍ
عزوم على الأمر الذي هو فاعله
أخي ثقة لا تُتْلف الخمر مــاله
ولكنه قـد يُتْلِف المــالَ نائله
تراه إذا مــا جئته متهلــلا
كأنك تعطيه الذي أنت ســائله

ويقول الحطيئة في مدح آل شماس :

فإن الشقيّ مَنْ تعـادي صدورُهم
وذا الجدِّ مَن لانوا إليه ومَن ودُّوا
يسوسون أحلامــا بعيد أناتهــا
وإن غضبوا جاء الحفيظة والجدُّ

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا

وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدُوا شدوا

مطاعين في الهيجا مكاشيف للدجى

بنى لهمو آباؤهم وبنى الَجدُّ

وهم في مدحهم كما ترى يجنحون الى جانب الحق ، ويؤثرون إصابة الصواب ، ويستوحون الفضائل الحقيقية التي يتحلى بها الممدوح في بساطة وصدق ، متأثرين بحياتهم البسيطة وبيئتهم التي لم تتلوث بعد بأكاذيب المدنية وعقدها والتواءاتها التي تحمل على النفاق والكذب ، وتدفع الى المبالغة والإغراق . ولنقس هذا بما نسمعه في عصور المدنية والحضارة ، كقول بعض الشعراء في ممدوحه :

وأخفت أهلَ الشرك حتى إنه

لتخافك النطف التي لم تخلق

او كقول علي بن جبلة في بعض الأمراء العباسيين :

أنتَ الذي تُنْزل الأيام منزلها

وتنقل الدهر من حال الى حال

وما مددتَ مدى طرف الى أحدٍ

إلا قضيت بأرزاقٍ وآجالِ

الهجاء :

وهو ضد المدح فإنه يكون بسلب المرء مـا يعتز به من فضيلة ، أو رميه بما ينفر منه من رذيلة، وهو والمدح من الصفات الطبيعية في النفس . فالإنسان قد يرضى فينطلق لسانه بالثناء والمدح ، وقد يسخط فتهدر طبيعته بما يوجع ويؤلم . ولقد عبر عن ذلك أبلغ تعبير الزبرقان بن بدر حين مدح وهجا في آن واحد ، وقال لرسول الله ﷺ : رضيت فقلت أحسن مـا علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمت، وكان الهجاء في الجاهلية بسلب الفضائل والرمي بضعف الهمة وفتور العزيمة ، وتخاذل المروءة ، كما قال الحطيئة في هجاء الزبرقان .

دع المكارم لا ترحل لبغيتهـا
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

ولذلك قال حسان حين طلب اليه ان يحكم في هذه القضية : لم يهجه ولكن سلح عليه .

ولقد قيل إن الأعشى هجا علقمة َ بنَ ُعلاَثة بقوله :

تبيتون في المشتى مِلاءً بطونُكم
وجاراتكم غَرْثَى يبِتْن َخمائصا

فلما سمع علقمة هذا البيت بكى ، وقال أنحن نفعل ذلك بجاراتنا ؟

ومهما يكن من شيء فإن الشعراء الهجـائين كانوا يقتصدون في الاقذاع ، ولا يسرفون في السب والمثـالب ، بل إنهم كانوا يكتفون أحيـانا بالتهكم والتشكيك في فضل المهجو ، كما قال زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري

أقــوم آل حصن أم نساء ؟

او التعريض بمدح الغير كما يقول محرز الضبي :

فهلا سعيتم سعي عصبة مـــازن

وهل كفلائي في الوفــاء سواء ؟

ثم خرج المتكسبون بالشعر عن ذلك الى الافحاش كالحطيئة وهـو من المخضرمين .

ومن أمثلة الهجاء قول قُرَيْطِ بنِ أُنَيْف العَنْبري يهجو قومه معرضاً بمدح أعدائهم :

لو كنتُ مِن مازن لم تَستَبحْ إبلي

بنو اللقيطة من ذُهْلِ بنِ شَيْبانَا[1]

إذاً لقـام بنصري مَعشرٌ خُشُنٌ

عند الحفيظة إنْ ذو لُوثَةٍ لانا[2]

---

(١) كان ناس من بني شيبان اغاروا عليه واخذوا له ثلاثين بعيراً فاستنجد قومه فلم ينجدوه، فأنجده مازن تميم وردوا له الابل .

(٢) الحفيظة : الغضب واللوثة : الضعف .

قومٌ إذا الشر أبدى ناجذيه لهم

طاروا إليه زَرافات ووُحدانا

لا يسألون أخاهم حينَ يندبهُم

في النائبات على ما قال برهانا

لكنَّ قومي وإن كانوا ذوي عَدَدٍ

ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

كأن ربك لم يخلق لخشيته

سواهمو من جميع الناس إنسانا

فليت لي بهمو قوماً إذا ركبوا

شدوا الإغارة فرساناً وركبانا

وقال يزيد بن قُنافة يهجو حاتماً إذ استنجد به ففر وتركه للأعداء :

لعَمْرِي وما عَمْري عليّ بهيِّن

لبئس الفتى المدعُوُّ بالليل حاتمُ (١)

---

(١) خص الليل لشدة الهول فيه .

غـــداة أتى كالثّور أُحْرِجَ فاتقى
بجبهته أَقْتَـــالَهُ وهو قـــائم[1]

كأن بصحـــراء المُرَيْطِ نعـــامةً
تُبادرها جُنْحَ الظلام نعـــائم

أعارتْك رجليها وهـــافِيَ لُبِّهَا
وقد جُرِّدَتْ بيضُ المُتونِ صوارِمُ[2]

الرثاء :

هو بكاء الميت ، والتفجع عليه ، وإظهار اللوعة لفراقـه ، والحزن لموته وعد خلاله الكريمة التي يروع الأعداء فقدها ، والاشادة بمناقبه وشمائله .

وكانوا في الرثاء على شرطهم في غيره لا يبالغون، ولا يهولون ، فيتصورون الارض تميد ، والسماء ترمي بالشهب . وإنمـا كانوا يبكون في الميت الشجـاعة والنجدة والكرم والوفاء ونحو ذلك مما كانوا يتمدحون به .

وكان من عـاداتهم — كما يقـول ابن رشيق — أن يضربوا الأمثـال بالملوك الأعزة ، والأمم السـالفة ، والوعول الممتنعة في الجبـال ، والأسود الخـادرة في الغياض ، ونحو ذلك .

---

(١) أحرج : ضيق عليه والأقتال جمع قتل بكسر القـاف وسكون التاء وهو العدو المقاتل أي انه خرج كالثور الهائج ثم ولى وقت الدفاع .

(٢) هافي لبها أي ضعيف عقلها .

وقد شاركت فيه النساء ، وبرزن فيه ، لرقة قلوبهن ، وغزارة دموعهن، كجليلة امرأة كليب ، والخنساء وعاتكة بنت زيد وغيرهن .

وكانوا أحيـاناً يستهلون قصائد الرثاء بالغزل ، كما فعل دريد بن الصمة في رثاء أخيه عبد الله ، حيث يقول :

أرث جديد الحبل من أم معبد
بعـــاقبة أم أخلفت كل موعد

وكقول أبي ذؤيب الهذلي في رثاء صديق :

هل الدهر إلا ليلةٌ ونهـــارُها
وإلا طلوعُ الشمس ثم غِيارُها
أبى الله إلا أمَّ عمرو وأصبحت
تَحرَّقُ نارِي بالشَّكاة ونارُهـــا

ومن أمثـلة الرثاء قـول دريـد بن الصمـة في قصيـدته المذكـورة يرثي أخـاه :

دعاني أخي ، والخيل بيني وبينه
فلما دعاني ، لم يجدني بقُعْدَدِ(١)

(١) القعدد : الجبان اللئيم والخامل .

أخٌ أرضعتني أمــه من لِبَانِها

بثَدْيِ صفاءِ بيننا لم يُحــدَّدِ[1]

فجئت إليه ، والرمــاح تَنُوشَه

كوقع الصياصي في النسيج الممدد[2]

تنادَوْا فقالوا : أردت الخيل فارسا

فقلتُ أعبــدُ الله ذلكم الردي

فإن يَك عبدُ الله خَلّى مكانه

فما كان وَقّافاً ، ولا طائشَ اليد

قليلُ التشكي للمصيبــات ذاكرٌ

من اليوم أعقابَ الاحاديث في غد

تراه خميصَ البطن والزاد حاضر

عَتيدٌ ويغدو في القميص المقَدَّدِ[3]

---

(١) يحدد : يقطع .

(٢) تنوشه : تتناوله ولها صوت كصوت شوكة الحائك في الثوب الذي ينسجه . فالصياصي جمع صيصاة وهي شوكة الحائك .

(٣) عتيد : مهيــأ والمقــدد الممزق يريد انه كريم يؤثر غيره على نفسه ويرضى بالقليل في سبيل ذلك .

وإن مسه الإقواء والجهدُ زاده

سماحاً وإتلافاً لما كان في اليد[1]

صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسه

فلما علاه قال للباطل : ابْعَـد

وطيَّبَ نفسي أنني لم أقـل له

كذبت ، ولم أبخل بما ملكت يدي

وقال أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة . وقد قيل إنها لا نظير لها في مطلعها . .

أيتهـا النفس أجْمِلي جزعـاً

إن الذي تَحذرينَ قد وقعـا

إن الذي جمّع السماحة والنجـ

ـدة والحزم والقُوَى جُمَعَـا

الألمعيُّ الذي يظن بك الظـ

ـنَّ كأن قد رأى ، وقد سمعا

---

(١) الأقواء : الفقر

لِيَبْكِكَ الشَّرْبُ والمدامة والفتيـ
يـــان طرا ، وطامعٌ طمعا [١]

وذاتُ هِدْمٍ ، عـــارٍ نواشرُها
تُصْمِتُ بالماء تَوْلَباً جَدِعَا[٢]

والحيُّ إذ حاذروا الصباحَ ، وإذ
خافوا مغيراً وسائراً تَلِعَـــا [٣]

وهكذا نجد الصدق في الرثاء ، والرزانـة في مواقف الدمع . وأين تلك الرزانة وذلك الصدق الذي طالعنا به ابن الصمة في رثاء أخيه عبد الله . من تهويل البحتري مثلاً حين يقول :

الشمس في كبـــد السماء مريضة
والأرض واجفـــة تكاد تمور

أو قول شوقي في رثاء سعد :

---

(١) الشرب جمع شارب ، كركب جمع راكب .

(٢) الهدم بالكسر : الثوب الخلق ، والنواشر : عروق ظاهر الكف ، وتصمت ، تسكت والتولب : ولد الأتان أي الجحش ، وجـدع ككتف سيء الغذاء يريد البـائسة المعدمة التي تعلل ابنها بالماء بسبب العدم .

(٣) تلع ككرم وفرح : طلع .

شيّعوا الشمسَ ومالُوا بضُحاها
وانحنى الشرق عليها فبكاها

الغزل :

أكثر أشعـــار العرب وأروع قصائدهم وأبرع آثارهم يتصل بالمـرأة ، ويصف حسنها ، ويشيد بجمالها ، ويعلن الفرح بقربهـا والألم والحزن على بعدها ، ويذكر تأثيرها على النفس ، ومـــا تجود به من وصل ، أو توزعه على صرعاها من دلال وصد ، ومن ازورار وهجران .

وكانت المرأة العربية ذات تأثير ساحر على عقل الرجل وقلبه وعواطفه ومشاعره ، يقتحم الصعاب ، ويخوض الغمرات ويركب الأهوال من أجلها . لذلك كان الشعراء لا يفتأون يرددون ذكرها في كل مناسبة للقول . يفتتحون بها أشعارهم ويبدأون قصائدهم، ويقفون على أطلالها باكين ، ويلمون بمنازلها متشوقين .

ولقـد كان من شعرائهم من يتحـدث عن المـرأة حـديث الذي تتملكه الشهوة ، وتستبد به الصبوة ، فيصور محـاسن جسمهـا من أرداف واعجـاز ووجـه وبطن وعيون تشبه عيون المهـا . ويعمـد الى كل مـا يثير العاطفة والمشاعر ، فيلح عليه إلحاحاً شديداً مثل مهلهل الذي لقب بأنه زير نساء ، ومثل امرىء القيس الذي أفحش في غزله وابتذل في دبيبه ، ولم يتورع عن ذكر أسمـاء المحبوبات في وصف فاحش وغزل مـاجن . كما في معلقته ، وكما في قصيدته التي يقول فيها :

سموتُ إليها بعد مـــا نام أهلها
سموَّ حَباب الماء حالاً على حال

وكان كذلك النابغة الذبيـاني الذي أسرف في الفحش وبالغ في تكشيف المرأة والنفاذ الى أدق المواطن وأكثرها ستراً واستخفاء . كما في قصيدته في وصف (المتجردة) .

على أن هناك من شعراء العرب من غلب عليه الطبع العربي والأنفة البدوية فذكر المرأة ، وأضاف إليها ما يجب أن يتوفر لهـا من ستر وحصانة ، ومن عزة ومنعة كما قال علقمة بن عبدة في قصيدته :

طحابك قلبٌ في الحسان طَرُوب
بُعَيْد الشباب عَصْرَ حانَ مَشيب[1]
يُكلِّفُني ليلي وقد شَطَّ وَلْيُهَـا
وعادت عواد بيننا وخطوب[2]
مُنعّمةٌ مـا يستطاع كلامُهـا
على بابهـا من أن تُزارَ رَقيبُ
إذا غاب عنها البعلُ لم تُفْشِ سِرَّه
وتُرْضي إيابَ البَعْلِ حينَ يَؤُوبُ

فالطبـاع العربية والصفـات التي كانت تملك نفس البدوي وتملؤهـا عزة

---

(١) طحابه : ذهب به .

(٢) شط : بعد ، وليها : قربها .

وأنفة هي التي تسيطر على أمثال هؤلاء المتغزلين أمثال علقمة .. وإذا كان حق النسيب كما قال ابن رشيق[1] : « أن يكون حلو الألفاظ رسلها ، قريب المعاني سهلها ، غير كز ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ، رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ويستخف الرصين » فقد بلغ شعراء العرب الغاية في ذلك وأتوا بالعجب ، وإن المرء ليجد القصيدة مفتتحة بالنسيب وذكر الأطلال وبكاء الديار والشوق والحنين فتنشط نفسه ، ويتفتح لذلك حسه ، ويقبل على القصيد بكل ما فيه من رغبة ونهم .

وهذه هي قصائدهم الطوال المسماة بالمعلقات نجدها كلها تبدأ بالغزل وذكر الديار والأطلال . ولم يشذ عن القاعدة إلا قصيدة عمرو بن كلثوم التي افتتحها بحديث الخمر :

ألا هبي بصحْنك فاصبحينا
ولا تُبقى خُمور الأندرينا

على أنه لم يلبث أن استجاب للطبيعة المتحفزة ، فعاد الى ذكر الفراق بقوله :

قفي قبل التفرق ياظَعِينَا
نُخَبِّرْك اليقينَ وتُخْبرينا

والأدباء دائماً يطلقون ألفاظ الغزل والنسيب والتشبيب على هذه الأشعار

---

(١) ج ٢ ص ١١٠ العمدة .

التي تحمل حب المرأة والحديث عن جمالها وما تثيره في القلوب من هيـــام وصبوة . والتي تنطق بكل ما يتعلق بها من حب ووصل وصد وتقريب وهجران .. قال ابن رشيق في العمدة[1] :

والنسيب والتغزل والتشبيب كلهـا بمعنى واحد » ، وبعضهم يفرق بين معاني هذه الألفاظ ، فقـدامة يقول : النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف احوال الهوى به معهن ، وقد يذهب على قوم موضع الفرق بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة الى النساء نسب بهن من اجله ، فكأن النسيب ذكر الغزل، والغزل المعنى نفسه ، والغزل إنما هو التصابي والاشتهار بمودات النساء » .

وبعض الأدباء يخص الغزل بالاشتهار بمودات النساء وتتبعهن والعبث بذلك في الكلام ، ويريد بالتشبيب ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام وما يضاف الى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال ، أما النسيب فهو أثر الحب الصادق والصبابة المبرحـــة ، فيما يبثه الشاعر من شكوى ، وما يصفه من حرمان .

ونحن نميل الى أن هـذه الألفاظ اصبحت كلها تحمل معنى واحداً ، هو الحديث عن المرأة وما يتصل بها .

والغزل الجاهلي كان قاصراً على المرأة ووصف جمالها ، فلم يتجاوزها الى الغلمان ، كما حدث في العصر العباسي . وتتجلى في النسيب الجاهلي البساطة والبعد عن التكلف ، والتشبيه بالمحسوس المرئي لديهم ، وعلى الرغم من إكثارهم فيـــه وشهرتهم به ، لم يقولوه مستقلاً ، إنما مزجوه بكل غرض ، وألموا به في كل موطن ، فما من قصيدة قيلت في مدح او هجاء او فخر او

(١) جـ ٢ ص ١١١ .

وصف إلا كان النسيب جزءاً منها ، بل لقد غلب على بعضهم في موطن الدمعة ، ومكان الحزن واللوعة ، كما تقدم في رثاء دريد بن الصمة لأخيه ..

ولم تعرف قصيدة مستقلة بالغزل غير قصيدة المرقش . . ويمكن أن يقال بوجه عام إن الغزل الجاهلي غزل مادي يتصل بمحاسن المرأة الظاهرة ، ويلم بأعضائها من قوام وخصر وردف وثدي وشعر وأنف ونحو ذلك ، كما يلم بزينتها وطيبها وحليها ، فهو غزل حسي يتصل بالغريزة، وقلما يعبر عن معنى روحي عميق يدل على العشق العذري وعفته ، وفناء المحبين فيه ، وتضحيتهم من اجل من يحبون ، كما شهدنا عند الشعراء العذريين فيما بعد ، ويتسم غزل الجاهليين على وجه العموم بالدقـــة والسلاسة والعذوبة دون شعر الاغراض الاخرى .

قال أعشى قيس يصف محبوبته :

غرَّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارِضُهـــا
تمشي الهَوينى كما يمشي الوَجي الوَحِلُ[1]

كأنّ مشيتها من بيت جارتهـــا
مرّ السحابة لا رَيْث ولا عجلُ[2]

---

(١) غراء : بيضاء واسعة الجبين. والفرعاء : الطويلة الفرع أي الشعر والعوارض الرباعيات والأنياب من الأسنان . الوجي : الذي يشتكي حافره ولم يحف بعد فيكون متثاقلاً ، فكيف إذا كان وحلاً يمشي في الوحل .

(٢) الريث : البطء .

تَسْمَعُ للحَلْيْ وسْواساً إذا انصرفت
كما استعان بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ(١)

يكادُ يصرعُها لولا تشــدُّدها
إذا تقُوم إلى جاراتها الكسل(٢)

إذا تقوم يضُوع المِسكُ أَصْوِرَةً
والزنبقُ الوَرْدُ من أرْدَانها شَمِلُ(٣)

ما روضةٌ من رياض الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ
خضراءُ جاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ(٤)

يوماً بأطيبَ منها نَشْرَ رائحةٍ
ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُل(٥)

---

(١) الوسواس : صوت الحلى . والعشرق . شجيرة مقدار ذراع لها أكام فيها حب صغار إذا جفت فمرت بها الريح تحرك الحب فسمع له خشخشة على الحصى . والزجل رفع الصوت بالطرب. والزجل بالكسر صفة منه .

(٢) يصفها بالسمن والترف وذلك من صفات المدح عندهم إذ تكون مخدومة منعمة .

(٣) يضوع المسك : تنتشر رائحته ، وأصورة : جمع صوار بالضم وهو نافجة المسك او حقه والزنبق عند العرب زيت الياسمين وأجوده ما كان يميل الى الحمرة ولذلك وصفه بالورد وشمل اي عام .

(٤) الحزن : الأرض الغليظة ، والمراد به هنا موضع من بلاد اليمامة فيه رياض وقيعان .

(٥) الأصل جمع أصيل وهو من العصر الى الظلام ، وخصه لأن الجو يبرد فيـه فيهب النسيم حاملا رائحة الأزهار .

ويقول امرؤ القيس :

وبيضةِ خِـــدْرٍ لا يُرام خِبَاؤُها
تمتعتُ من لَهْوٍ بهـــا غيرَ مُعْجَلِ

تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشراً
عليَّ حِراصاً لو يُسِرُّونَ مَقْتَلي[3]

فجئتُ وقد نضّتْ لنوم ثيابهـــا
لدى الستر إلا لُبسَةَ المتفضِّل[4]

مهفهفةٌ بيضـــاءُ غيرُ مفاضَة
ترائبُهـــا مصقولةٌ كالسجنجل[5]

تَصُدُّ وتُبدي عن أثيلٍ وتتقي
بناظرةٍ من وحش وجرة مُطفل[6]

---

(١) الأحراس : جمع حارس . والحراص : جمع حريص ، ويسرون : يضمرون .

(٢) نضت : خلعت .

(٣) مهفهفة : ضامرة . ومفاضة : مسترخية البطن والترائب ؛ عظام الصدر او ما بين الترقوتين . والسجنجل : المرآة .

(٤) تصد : تعرض . وتبدي : تظهر . عن أسيل : اى عن خد اسيل وهو ما فيه امتداد وطول . ووجرة موضع والمطفل : التي لها طفل .

وجيدٍ كجيد الرئم ليس بفاحش
إذا هي نصّتْــه ولا بمُعَطَّل[١]

وفَرْعٍ يزين المتْن أسودَ فاحِم
أثيثٍ كقِنْو النَّخْلة المتعثكِل[٢]

وتُضْحي فَتيتُ المسك فوقَ فراشِها
نَؤومُ الضحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّل[٣]

وقال المرقش الأكبر من قصيدته المفردة في الغزل[٤] :

سرى ليلاً خيــالٌ من سُلَيمى
فأرّقني وأصحــابي هجــودُ

فبتُ أدير أمري كل حــال
وأرقب أهلها وهمو بعيــد

(١) الرئم : الظبي الخالص البياض . ونصته : رفعته . والفاحش : الذي تجاوز قدراً معلوماً والمعطل : الخالي من الحلى .

(٢) الفرع : الشعر التام . والمتن : الظهر . والاثيث : الكثير . والقنو : العــذق . والمتعثكل : المتدلي .

(٣) الفتيت والفتات اسم لدقاق الشيء الحاصل بالفت ، لم تنتطق : لم تلبس النطاق بعد تفضل أي بعد لبس الفضلة كما يقال فلان استغنى عن فقر أي بعد فقر . والفضلة : ثوب واحد يلبس للخفة في العمل : يريد أنها مخدومة لا خادم .

(٤) راجعها في المفضليات ٢٣ جـ ٢ طبع دار المعارف ١٣٦١ هـ .

وربَّ أسيلة الخـــدين بِكْرٍ

منَعَّمةٍ لهـــا فرعٌ وجيـــد

وذو أَشَرٍ شَتيتُ النبت عَذبٌ

نَقيٌّ اللـــون برَّاقٌ بَرُود

لهوتُ بها زماناً من شـــبابي

وزارتْها النجائب والقَصيـــد

أُناسٌ كلما أخْلَقْتُ وصـــلا

عنَاني منهمُو وصلٌ جـــديد

وربما كان هذا الغزل مطلقاً لقصيدة لم يعثر عليها الرواة :

الوصف :

الوصف من أدق موضوعات الشعر التي لا ينهض بها إلا نافـذ البصيرة ، صافي الذهن ، دقيق الإحساس ، وقد برز فيه العرب ، وكان لشعرائهم حظ وافر ونصيب كبير منه . وكان شعرهم تصويراً صادقاً لكل ما وقعت عليه أنظارهم من ارض وسماء ، وشجر وجبال، وحيوان ورمال ورياح وأمطار ، وبرق وسحاب ، وقد أجادوا في وصف المرأة ومحاسنها وطباعها ، ونبغوا في وصف الخيل والإبل والبقر الوحشي ، كما أبدعوا في وصف الليل وأهواله ، والعراك وآلاته ، وكل ما مر بهم من ظواهر الطبيعة وأحداث الحياة .

قال الاعشى يصف فرساً :

ولقد أغتدي إذا صقَعَ الدِّيكُ
بمُهْرٍ مُشَــذَّبٍ جَـوّالِ[1]

مُدْمَجٍ سَابغ الضلوع طويلِ الشد
خص عَبْلِ الشَّوَى مُمَرِّ الأعالي[2]

يملأ العينَ عــادياً وَمقُوداً
وَمُعَرًّى وصافِناً في الجلال[3]

مُستَخِفّاً على القيــاد ذَفِيفاً
تَمَّ حُسناً فصــار كالتِّمثال[4]

وقال عنترة بن الأخرس يصف ثعباناً :

لعلّك تُمْنَى من أرَاقم أرضِنــا
بأرقم يُسقَى السمَّ مِن كل مَنْطَفِ[5]

---

(١) صقع : صاح . مشذب : مهذب .

(٢) مدمج : محكم . سابغ : عظيم . الشوى : الأطراف . الممر : المفتول .

(٣) الصافن : الذي يثني سنبكه .

(٤) الذفيف : النشيط الحاد .

(٥) الأرقم : أخبث الحيات ، المنطف من نطف ، أي سال أي موضع السم .

تراه بأجواز الهشيم كأنما

على مَتْنِه أخلاقُ بُرْدٍ مُفوَّفِ[١]

كأن بضاحي جِلده وسَرَاته

ومجمع ليتيه تهاويلُ زُخْرف[٢]

وقال امرؤ القيس يصف الفرس :

وقد اغتدى والطير في وُكُناتها

بمُنجرد قَيْدِ الأوابد هيكل[٣]

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبل مُدبرٍ معاً

كجلمود صخرٍ حطَّه السَّيلُ من عل[٤]

مِسَحٍّ إذ ما السابحات على الوَنى

أثَرْنَ الغُبارَ بالكديد المُرَكَّلِ[٥]

---

(١) الأجواز جمع جوز وهو الوسط . الهشيم اليابس المتكسر من النبات وغيره . المتن الظهر . المفوف المنقوش أي كأن على ظهره أثوابا بالية منقوشة .

(٢) السراة الظهر . الليتان عرقان في جانبي العنق . التهاويل . النقوش . الزخرف الزينة

(٣) الوكنات عشاش الطير . المنجرد . الماضي في السير . الأوابد . الوحوش وهو يدركها فكأنه قيد لها هيكل . ضخم .

(٤) مكر مفر . مقبل مدبر ، الجلمود الحجر الصلب .

(٥) مسح كثير الجري والسابحات . الخيل التي تمد يدها في عدوها ، الونى الضعف . الكديد . الصلب والمركل الذي يركل مرة بعد أخرى .

يَزل الغلامُ الخِفُّ عن صَهَواتِه

وَيلْوي بأثواب العَنيف المثقّل[١]

دَريرٍ ، كخُذْرُوف الوليد أمَرَّهُ

تَتَابُع كفيه بخَيطٍ مُوَصَّل[٢]

له أيطلا ظبي ، وساقا نعـــامة

وإرخاء سِرْحان وتَقْريبُ تَتْفُلِ[٣]

كأن على المتنين منه إذا انتحى

مَدَاكُ عروسٍ أو صلاية حنظل[٤]

كأن دماء الهـــاديات بنحره

عُصَارةُ حِنّاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّل[٥]

---

(١) يزل يزلق والخف الخفيف . والصهوات جمـــع صهوة مقعد الراكب على ظهر الفـرس . ويلوي يرمي . والعنيف المثقل . الحاذق الماهر .

(٢) درير . دار ، والخذروف حصاة مثقوبة يجعل الصبي فيها خيطـــاً فيديرها على رأسه . وأمره . أحكم فتله .

(٣) أيطلا ظبي خصراه . وإرخاء سرحان . عـــدو للذئب يشبه الخبب . والتقريب وضع الرجلين موضع اليدين في العدو والتتفل ولد الثعلب .

(٤) المتنان ما على يمين القفا وشمالها . وانتحى اعتمد . ومداك العروس الحجر يسحق الطيب والصلاية مدق الطيب .

(٥) الهاديات المتقدمات من الوحوش .

وقال عنترة بن شداد في معلقته ، يصف روضة مشبهاً بها محبوبته :

وكأنَّ فأرَةَ تاجـــرٍ بقَسيمَةٍ
سبَقَتْ عوارِضَها إليكَ من الفمِ (١)

أو روضةً أُنفـــاً تضَمَّنَ نَبْتَها
غيثٌ قليلُ الدِّمْنِ ليسَ بمَعْلَمِ (٢)

جـــادتْ عليه كلُّ عينٍ ثرَّةٍ
فتركْنَ كلَّ قرارةٍ كالدِّرْهمِ (٣)

سَحًّا وتَسْكاباً ، فكلُّ عشية
يجري عليها المـــاء لم يتصرَّم (٤)

وخلا الذباب بها ، فليس ببارح
غَرِداً كفعل الشارب المترَنّم (٥)

---

(١) الفأرة ، أصلها فائرة لشدة ريحها ، والقسيمة السوق أوحك المسك أو الساعة التي تقسم الليل والنهار وفيها تتغير الأفواه ، والعوارض الأسنان التي تبدو عند الضحك .

(٢) الروضة المكان المطمئن العامر بالنبات والذي فيه الشجر ، أو هي الحديقة ، والروضة الأنة التي لم ترع بعد ؛ والدمن السرقين المتلبد والبعر .

(٣) الثرة الثرثارة والقرارة كل قاع مستدير .

(٤) السح الصب وتصرم ، ينقطع .

(٥) الذباب هو ذلك الطائر الأسود الذي يسقط على الأقذار وهو أيضاً النحـــل وهو المراد هنا ، والغرد الطرب ، والمترنم الذي يرجع صوته بينه وبين نفسه .

هَزِجاً يَحُــكُّ ذارعَه بذراعِه
قَدْحَ المُكِبِّ على الزناد الأجذَمِ (١)

الحكم والأخلاق :

هي كثيرة في الشعر الجـاهلي ، تمثل الخلال الكريمة كالحـلم والشجاعة والكرم والدفاع عن الحوض واحتمال الأذى ونحو ذلك من الأخلاق الكريمة ، وقد تهيأ للعرب من الفراغ والصحراء ما أتاح لهم التأمل، واستعراض أحداث الحياة وتجاربها ، واستخلاص العبر منها في جمل مسلية هي الحكمة .

يقول طرفة :

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر ينفد

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى
بعيداً غدا ما أقرب اليوم من غد (٢)

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبـــار من لم تزود

(١) الهزج المتغني والأجذم مقطوع اليد أو الأنامل .

(٢) أعداد ، جمع عد بكسر العين وهو المـاء الجـــاري بلا انقطاع ، أي أنه المورد الدائم الذي ترده كل النفوس .

وقال حاتم الطائي في حسن الخلق :

تحلَّمْ عن الأَدْنَيْن واستَبْقِ وُدَّهُم
ولن تستطيع الحـــلم حتى تَحَلَّمَا

ونفسَكَ أكرمهـــا فإنك إن تهن
عليك فلن تلقى لها الدهر مُكْرِما

وعوراءَ قد أعرضتُ عنها فلم تَضِرْ
وذِي أَوَدٍ قوّمْتُه فتقومـــا (١)

وقال الأفوه الأودي :

لا يصلح الناس فوضى لا سَرَاة لهم
ولا سَرَاة إذا جُهَّـــالهُم سَادوا

تهدي الأمور بأهل الرأي ماصلُحت
فان تولّت فبالأشرار تنقـــاد

وقال زهير في معلقته في الحكمة :

---

(١) العوراء ، الكلمة القبيحة — الأود العوج .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تُمِتْه ، ومن تُخطِئْ يُعَمَّر فيَهْرم

ومن لم يصـــانع في أمور كثيرة
يُضَرَّسْ بأنياب ويوطأ بمنسم[1]

ومن يك ذا فضل فيبخـل بفضله
على قـــومه ، يُستَغْنَ عنه ويذْمَم

ومن هـــاب أسباب المنايا ينَلْنَه
وإن يَرْقَ أسبابَ السماء بسُلَّم

ومن لم يذُدْ عن حَوْضه بسلاحه
يُهدَّمْ ، ومن لا يَظلم الناسَ يُظلَم

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تَخفى على الناس تُعْلَم

الاعتذار :

هذا الغرض قليل في شعر الجاهليين ، وفارسه الذي اشتهر به هو النابغة

(١) المنسم – خف البعير .

الذبياني، فاعتذارياته الى النعمان بن المنذر ملك الحيرة من عيون الشعر الجاهلي فمن قوله في ذلك يعتذر له عن صلته بالغساسنة .

أتاني أبيت اللعن أنـــك لمتني
وتلك التي أهتم منـــها وأنصب

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبـــةً
وليس وراء الله للمـــرء مطلب

لئن كنتَ قد أبلغت عني خيانةً
لمُبلِغُكَ الواشي أغشُّ وأكذب

ولكنني كنت امرأ لي جـــانب
من الأرض فيه مُستَراد ومُذْهَبُ

ملوك وإخوان إذا مـــا مدحتُهم
أُحَكَّمُ في أمـــوالهم وأقـــرّب

كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم
فلم ترهم في شكر ذلك أذنبـــوا

فلا تتركنّي بالوعيد كأنني
إلى الناس مَطْلِيٌّ به القارُ أجربُ
ولستَ بمستَبْقٍ أخاً لا تلمّه
على شَعَثٍ، أيُّ الرجال المهذب؟

الفصل السابع

صُوَرٌ مِنَ الشِعْرِ الجاهِليّ

وصف الناقة :

(١)

يصف لبيد ناقته ، فيشبهها تارة بالأتان التي حملت من عير أحقب شديد الغيرة عليها من الفحول المطاردة لهـــا فهي تسرع في سيرها . وتارة بالبقرة الوحشية المسبوعة التي افترس السبع ولدها ، وقـد خذلت وتأخرت عن القطيـع ؛ فأسرعت في السير تطلبه وتجد في طوفها وبغامها حنيناً الى ولدها المعفر الملقى على الأرض ، وقد تنازعت أشلاءه الذئاب الغبس التي تكسب طعامها فلا يمن او يقطع :

أو مُلْمِعٌ وسقَتْ لأَحقب لاَحه
طرْدُ الفحول وضربُها وكِدَامُها[١]

---

(١) الملمع : الأتان احتفل طبياها باللبن . وسقت : حملت . الأحقب العير في ركبه بياض لاحه . غيره وأهزله .

يعلُو بها حدب الإكامِ مُسَجَّعٌ
قد رابَه عصيانُها ووحامُها[1]

أفتلك أم وحشــية مسبوعةٌ
خُذِلَتْ وهاديةُ الصِّوار قوامُها[2]

خنساء ضيّعَت الفريرَ فلم يَرِم
عُرض الشقائق طَوْفُها وبُغامُها[3]

لمعَفَّر قَهْدٍ تنــازع شِلْوَه
غُبْسٌ كواسبُ ما يُمَنَّ طعامُها[4]

صادفن منهــا غرة فأصبنها
إن المنــايا لا تطيش سهامُها

(٢)

أما النابغة فإن ناقته تشبه الثور الوحشي المستأنس ، المنفرد خوفاً من

---

(١) مسجح : مخدوش . الوحام : اشتهاء الحبلى .

(٢) مسبوعة : أصابها السبع . الهادية : المتقدمة . الصوار : القطيع من البقر . قوامهـا أى قصدها وقد تأخرت عن القطيع .

(٣) الخنس تأخر في ارنبة الأنف . الفرير : ولد البقرة ، الشقائق أماكن صلبة من الأرض.

(٤) قهد : ابيض ، والأغبس : من الغبسة لون يشبه الرماد ، يمن : يقطع .

الإنس، وهو من وحش وجرة ، ضامر البطن كالسيف الصقيل ، وقد اصابته عاصفة هوجاء فازداد خوفه ، وصادفه في هذه الحال صائد بث عليه كلابه ، فراح يعدو على قوائم صلبة ممعناً في الهرب، ولكن احد الكلاب وهو ضمران أدركه ، وهنا تلتحم المعركة بين الثور والكلب ، فيطعن الكلب بقرنه ، فيخرق فريصته ، وينفذ فيهـــا القرن كما ينفذ مبضع البيطار في لحم الدابة وكأن هذا القرن سفود يشك فيه اللحم ، والكلب يعضه ويعضه ، وهو متقبض لما أصابه من الوجع حتى قتل .

فناقة النابغة كهذا الثور الفـزع المتوجس ، في السرعة والخفة والحركة والنشاط ، لهـــذه الظروف التي ألمت به وهكذا نقرأ تلك الصورة البدوية البارعة الرائعة :

فَعدِّ عما ترى ، إذ لا ارتجاع له ،
وانم القُتُود على عَيْرانَةٍ أُجُدِ[1]

كأن رحلي ، وقد زال النهار بنا
يوم الجليل ، على مُسْتأنس وَحِدِ[2]

---

(١) عما ترى : في رواية عما مضى ، وعد عنه : تجاوزه الى غيره ، انم : ارفع القتود ، جمع قتد – خشبة الرحل . العيرانة : الناقة المشتبهة بالعير لصلابة خفها ، الأجد : الموثقة الخلق .

(٢) زال النهار : انتصف. الجليل موضع ، وفي رواية – بذي الجليل : واد قرب مكة . مستأنس: صفة الثور الوحشي الذي يخاف الإنس فينظر يمنة ويسرة. وحد: منفرد، يصف سرعة ناقته حتى في شدة الحر في منتصف النهار فيشبهها بالثور الوحشي المسرع من وجه القناص .

من وحش وجرة موشيٍّ أكارعه

طاوي المَصير، كسيف الصيْقل الفَرِدِ[١]

سرتْ عليه من الجوزاء سَاريةٌ

تُزْجي الشَّمال عليه جامِدَ البَرَدِ[٢]

فارتاع مِن صوت كَلَّاب، فبات له

طَوْعَ الشَّوامتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ[٣]

وكان ضَمرانُ منه حيثُ يُوزِعُه،

طَعْنَ المُعَارِكِ عند المَحْجَر النَّجِدِ[٤]

---

(١) يتابع وصف الثور فيقول إنه من وحش وجرة ، فلاة بين مران وذات عرق ، قليلة الماء ، تجتمع فيها الوحوش – موشي أكارعه : اي ابيض وفي قوائمه نقط سود – المصير جمع مصران . كنى به عن البطن . وطاويه : ضامره . كسيف الصيقل . اي انه ابيض يلمع ويلوح عن بعد . الفرد : الوحيد :

(٢) سرت : جاءت ليلا . الجوزاء : نجم يطلع بالليل في صميم الحر وتكون في اوقاته أنواء وأمطار . سارية : عاصفة اتت في نوء الجوزاء . اراد أن الثور لما اصابه المطر والبرد وهو خائف من الصائد احتدت نفسه وتضاعف خوفه .

(٣) الكلاب: صاحب الكلاب. له : الضمير للصوت. او للكلاب. الصرد: البرد. الشوامت قد يكون أراد بها الأعداء فيكون المعنى : أن هـــذا الثور بات من الخوف والبرد مبيت سوء ومبيته على هذه الحال يسر اعداءه الشامتين . او أن تكون الشوامت . القوائم فيكون المعنى أن الثور اصبح طوع قوائمه يذهب حيث تقوده اي على غير هدى لما اصابه من الروع ولعله أصح .

(٤) وكان. في رواية : فهاب ضمران . اسم احد الكلاب، يوزعه : يغريه. المحجر : الملجأ. النجد الشجاع نعت المعارك – كان ضمران من الثور حين اغراه الصياد بأن يكون ونصب طعن على المصدر اي فكأنه طعن الثور طعن الشجاع الفاتك .

شَك الفَرِيصَة بالِمدْرَى ، فأنفذها ،
شَكَّ المُبَيْطِرِ ، إذ يَشفي من العَضَدِ [١]

كأنه ، خارجاً من جَنْبِ صفحته
سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوه عِنْدَ مُفْتَأَدِ [٢]

فظلَّ يَعجُم أعلى الرَّوْقِ ، مُنْقَبِضاً
في حالك اللون، صَدْقٍ غَيْرِ ذي أَوَدِ [٣]

(٣)

ولا يفتأ الشعراء يشبهون الناقة في سرعتها ونشاطها بالبقر الوحشي في شدة عدوه ، وخفة حركته ، عند المطاردة والصيد . فناقة علقمة بن عبدة جسرة قوية كعزمه ، لا تنوء بالرديف ، ولا يلحقها كلال من السير ، فهي سريعة تنجو بركابها من مخاوف المهامه ، وتجتاز مسالك الدروب ، وقد أفنى التهجر والسير الدائب ، شحم ضلوعها وعظم كاهلها ومع ذلك فهي تصبح

---

(١) شك : طعن والضمير للثور الفريصة عضلة في موضع الكتف . المدرى . القرن . العضد : داء يصيب العضد – طعن الثور الكلب بقرنه فخرق فريسته ونفذ فيها قرنه كما ينفذ مبضع البيطار في لحم الدابة إذا داوى من العضد .

(٢) كأنه : اي كأن القرن . السفود : قضيب حديد يشك فيه اللحم إذا أريد شواؤه ، الشرب : قوم يشربون . المفتأد . موضع النار الذي يشوى فيه .

(٣) يعجم : يمضغ ويعض الضمير للكلب. الروق. القرن: في . بمعنى على . الحالك: الأسود. الصدق : الصلب . الأود . الاعوجاج – إن الكلب وهو على قرن الثور الاسود الصلب المستقيم ظل يعضه وهو منقبض لما اصابه من الوجع .

بعد السرى الطويل نشيطة قوية ، كأنها بقرة وحشية شابة تخشى الصائدين ، وقد ترصدوا لها بشجر الأرطى ، وبثوا عليها النبل والكلاب ، فبذت نبلهم وأفلتت من كلابهم ، لخفتها وسرعتها :

فدعها وسلِّ الهم عنك بجَسْرَةٍ
كهمِّكَ فيها بالرِّداف خَبيبُ[(١)]

وناجية أفنى رَكيبَ ضلوعها
وحاركها تهجُّرٌ فدُءوبُ[(٢)]

وتُصبح عن غِبِّ السُّرى وكأنها
مُولَّعَةٌ تخشى القَنيصَ شَبُوبُ[(٣)]

تَعفَّقَ بالأرطى لهـا وأرادها
رجالٌ فبذَّتْ نَبلهم وكَلِيبُ[(٤)]

---

(١) الجسرة : الناقة الماضية . كهمك : كعزمك . الرداف : جمع رديف من يركب خلفك الخبيب : نوع من السير .

(٢) الناجية : الناقة تنجو بركابها . الركيب ما ركب على الضلوع من الشحم . والحارك عظم مشرف من جانبي الكاهل. التهجر : السير في الهاجرة. الدءوب : المبالغة في السير .

(٣) المولعة : البقرة الوحشية – القنيص ، الصائد – الشبوب ، الشابة .

(٤) تعفق ، لاذ – بذت : سبقت – الكليب : جماعة الكلاب .

(٤)

أما طرفة بن العبد فيطالعنا بصورة متجهمة ، توغل في البداوة وتمعن في الجفوة الجاسية، وتطوف بنـــا في آفاق غريبة من الصحراء في وحشية ألفاظها ، وخشونة أساليبها . ولكنها صورة طبيعية تمثل لنا البدوي في حقيقته، وقد انعكست بيئته بصخورها وقفارها ووعورة مسالكها على أدبه. إنه يتسلى عن همومه بالرحلة على هذه الناقة الضامرة المرقال ، التي تنفض رأسها في السير من سرعتها ونشاطها ، وهي مأمونة العثار ، عظيمة كأنها التابوت الذى يعدونه لدفن السادات والأشراف . وقد نسأها ودفعها على طريق مذلل به من آثار السير خطوط كثيرة تشبه البرجد وهو الكساء المخطط ؛ وهي تنافس في نشاطها إبلا كريمة ناجية سريعة ، فتتبع وظيف رجلها بوظيف يدها فوق طريق ممهد. وهي ناقة رعت في الربيع ما ارتفع من الأرض وهو أحسن نبتاً من غيره ، يغاديه المطر مرة بعد مرة . وهي مؤدبة تستجيب لصوت الداعي المهيب إذا دعاها ، وتحمي نفسها من مقاربة الفحل الأكلف الذي تلبد ذنبـه من كثرة بوله ، بذنب كثير الشعر ، وكأن جانبي هذا الفحل قد أحاط بهما جناحا نسر عظيم قد شكا في ذنبه بمخرز : وهي ناقة قد اكتنز فخذاها باللحم ، فهما مرتفعان مشرفان كبابي قصر عظيم :

وإني لأُمضي الهمَّ عند احتضاره
بهوجاء مِرْقال تروح وتغتدي[1]

---

(١) الهوجاء : الخفيفة – المرقال : كثيرة الارقال وهو السير .

أُمونٍ كألواح الاران نَسأْتُهـــا

على لاحبٍ كأنه ظهر بُرْجُد[1]

تُباري عِتاقاً ناجيات وأتبعتْ

وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ مُعبَّد[2]

تربَّعت القُفَّيْن في الشَّوْل ترتعي

حدائق مَوْليٍّ الاسِرَّة أغيد[3]

تُريع إلى صوت المُهيب وتَتَّقِي

بذي خُصَل رَوْعات أكلفَ مُلْبِد[4]

كأن جناحيْ مضرِحيٍّ تكنَّفا

حِفافيْه شُكّا في العَسيب بمِسْرَدِ[5]

---

(١) الأمون : مأمونة العثار – الأران : قابوت الموتى من الأشراف – نسأتها : زجرتها – اللاحب : الطريق المستقيم – البرجد : كساء ، شبه استقامة الطريق بخط أبيض مستقيم في الكساء .

(٢) العتاق : الابل الكرام – الناجيات : المسرعات تنجو بركابها – الوظيف موضع القيد من البعير اي تتبع وظيف رجلها بوظيف يدها – المور : الطريق .

(٣) تربعت : رعت ايام الربيع – القف : المكان المرتفع دون الجبل – الشول : الإبل مضى على نتاجها أشهر – المولى: المطور بالولي وهو المطر بعد المطر – الاسرة : طرائق النبات. الأغيد : الناعم .

(٤) تريع : تصغي – روعات : جمع روعة وهي الفزع – الأكلف : الذي في وجهه لون يخالف لونه ، وهو من صفات الفحل – الملبد : الكثيف الشعر .

(٥) المضرحي : النسر – حفافيه : جانبيه – العسيب : الذنب – المسرد : المخرز .

لها فخذانِ أُكمِل النحضُ فيهما
كأنهما بابا مُنيفٍ مُمَــرَّدِ

وصف البرق والمطر :

يقول امرؤ القيس من المعلقة :

أَصَاحِ تَرَى بَرقاً أُرِيكَ وَميضَهُ
كَلَمْعِ اليَدَيْنِ في حَبِيٍّ مُكَلَّلِ

يُضيءُ سناه أو مَصَابيحُ رَاهِبٍ
أَمالَ السَليطَ بالذُّبالِ المُفَتَّــلِ

قَعَدْتُ وأَصْحابي له بين ضَارِجٍ
وبين العُذَيبِ بَعْدَ مَا مُتَأَمَّلِ

فأَضْحَى يَسُحُّ الماءَ حولَ كُتَيْفَةٍ
يَكبُّ على الأَذْقانِ دَوْحَ الكَنَهْبَلِ

وتَيْماءَ لم يَتْرُكْ بها جِذْعَ نَخْلَةٍ
ولا أُطُماً إلَّا مَشيداً بجَنْــدَلِ

على قَطَنٍ بالشَّيمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ
وأَيْسَرُه على السِّتَارِ فَيَــذْبُلِ

فألْقَى بِصَحْراءِ الغَبيطِ بَعَاعَه
نُزُولَ اليَمَاني ذي العِيَابِ المُحَمَّلِ

كأنَّ ذُرَى رَأْسِ المَجَيْمِرِ حَوْلَه
من السَّيلِ والغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ

كأنَّ ثَبِيراً في عَرَانِينِ وَبْلِهِ
كَبِيرُ أُناسٍ في بِجَادٍ مُزَمَّلِ

كأنَّ مَكاكِيَّ الْجِوَاءِ غُدَيَّةً
صُبِحْنَ سُلَافاً من رَحيقٍ مُفَلْفَلِ

كأنَّ السِّبَاعَ فيهِ غَرْقَى عَشِيَّةً
بِأَرْجَائِهِ القصْوَى أنابيشُ عنصُلِ

وقال أوس بن حجر :

يا مَنْ لِبَرقٍ أَبِيتُ اللَّيْلَ أَرْقُبُه
في عَارِضٍ كبياضِ الصُّبحِ لَمَّاحِ

دَانٍ مُسِفٍّ فُوَيْقَ الأَرضِ هَيْدَبُه
يَكادُ يَدْفَعُهُ من قَامَ بِالرَّاحِ

كأنما بين أعــلاه وأســفلِه
رَيْطٌ مُنَشَّرَةٌ او ضَوْءُ مِصْبَاحِ

يَنفِي الحَصا عن جَديدِ الأَرضِ مُبتَرِكاً
كأنه فاحِصٌ او لاعِبٌ دَاحِ

كأنَّ رَيِّقَهُ لمَّا عَلا شَطِبــاً
أَقرابُ أَبلَقَ يَنفِي الخَيْلَ رَمَّاحِ

كأنَّ فيــه عِشَاراً جِلَّةً شُرفاً
شُعْثاً لَهَاميمُ قد هَمَّت بِإرْشَاحِ

بُحّاً حَنَاجِرُها هُدْلاً مَشافِرُها
تُسيمُ أولادَها في قَرْقَرٍ ضَاحِي

هبَّتْ جَنوبٌ بأُولَاه ومَالَ به
أَعجَازُ مُزْنٍ يَسُحُّ الماءَ دَلَّاحِ

فأَصْبَحَ الرَّوْضُ والقِيعَانُ مُتْرَعَةً
من بين مُرْتَفِقٍ منها ومنطَاحِ

فترى أن امرأ القيس ذكر ستة من التشبيهات الحسية الظاهرة الأداة بالكاف تارة وكأن تارة اخرى ، وكذلك فعـل أوس ولم يزد ، وما وراء ذلك في القصيدتين صور مادية اخرى سنشرحها لك ، فقد تناول امرؤ القيس البرق

فوصف وميضه وهو حركته والتماعه ، وشبهه في سرعة خطفه بحركة اليدين وهو في خلال السحاب المكلل الذي يبدو بطيئاً ثقيل المر كأنه يحبو لشدة حفله بالماء ، ثم شبه ظهوره وضوءه بمصابيح الراهب يميل الزيت على الفتيل فيندلع اللهب بقوة ثم يعود فيخبو ، وأنه قعد له في اصحابه يتأملونه بين العذيب وضارج ، فإذا هو يتدفق بالماء حول كتيفة ، وأتى بهذه الاستعارة الفاخرة اللفظ البارعة الصورة في صنيع السيل بعظام الأشجار من اقتلاعها من أصولها وطرحها على أعاليها ، وأنه لم يترك بتيماء جذع نخلة إلا قصفه ، ولا بيتاً إلا أتى بنيانه من قواعده ، إلا ما كان مشيداً بالجندل من الصخر ، ثم مد مسافة انسكابه ، فجعل أيمن صوبه على قطن وأيسره على الستار ويذبل ، وهي أماكن متنائية ، وأنزل اثقال السحاب من الماء بصحراء الغبيط فأنق نباتها ، وزهت ألوان نورها بما يشبه ما في تلك الثياب اليمانية من البرود والمتاع وأطاف بذرى جبل المجيمر ، فإذا السيل يدور حولها بما احتمله من الغثاء كما تدور فلكة المغزل ، ثم نظر الى مكان ثبير وجثومه على ظهر الصحراء ، والسيل يأخذه من نواحيه ، ويرسم في جوانبه مدارج انحداره ، كذلك الشيخ الملفف في بجاده المخطط تمثيلاً لما يتراءاه النظر لدى امتداده من عمل السيل في رؤوس البيوت وجوانب الجبال ، وانتهى بالإشارة الى إقلاعه وهدوء انسجامه بما وصفه من خروج الطيور لاجتلاء ذلك الصفو الخالص من الطبيعة مما تشعر به الأحياء كلها بعد المطر كأنه غسول لما بين السماء والارض تتحرك بعده الحياة جميعاً فيطيب الهواء ، ويتفتح الزهر ، وتشخص الأبصار الى معالم الوجود تعجب لها كيف صارت ضاحكة مخضلة بعد بكاء السماء . هنالك ترى هذه الطيور وهي المكاكي تتصايح في الفضاء وتتخالع في الطيران ، ولا يزال طائر منها يقع على طائر ، او يهوي كالذي يسقط على الارض ثم يعود في هذه النشوة فيستقل على الهواء ، وتصنع السلاف من الرحيق صنيعها به ، فيرسل الى نواحي الجو من أغاريده الحلوة ، ما يقري النفوس متاعاً ، والآذان سماعاً ، ذلك الخيال المتباعد في السمو عن اذهان الشعراء ، وتلك الصورة التي يعيا بتهويلها الحذاق

من المثالين يجلوها الشاعر مثـــل قلادة الحسناء في نسق من الكلمات الآخذة بحاجتها من العذوبة والظرف ، ولم يكفه أن تكون الغداة وهي اول شباب النهار كما هي في جمال لفظها ومعناها حتى ألبسها ملاحة جديدة بهذا التصغير الواقع في موقعه وجاء معها بالصبوح والسلاف والرحيق، وجعل قافية البيت بمنزلة الطراز الى ما في معناها من كمال لذة السلاف، وهو شبيه بما تناوله القرآن من وصف رحيق الجنة حين يقول: **«ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا»** ثم أتى في ختام كلامه بالدليل الحسي على تطبيق السيل واستبحار المطر باستعلائه فوق آجام السباع حتى غرقت في لجته ، وطفت رؤوسها في بعيد أرجائه، وقد بدأ من شعورها الثائرة ما هو كرؤوس ذلك النبات البري، وهي أيضاً صورة حسية في مكانها من الجودة وجمال الخيال ، وندع الآن هذا التمثيل الكامل لأبهر مناظر الطبيعة لنعود إلى أوس ، فتراه يذكر البرق وضياؤه يملأ الأفق من خلال العارض ، ويتدارك التشبيه بقوله لماح للدلالة على خطفه وسرعة انقطاع ضيائه ، ثم يصف هيدب السحاب المتدلي منه دانياً فويق الارض مبالغاً في الاسفاف والمقاربة حتى يكاد من قام على قدميه يدفعه بيديه وهي صورة بديعة نادرة على قوة نظمها، وجمال عبارتها ، ويصف ما ينبسط من سنا البرق على جوانب السحاب بألوان تلك الثياب المنشرة أو بما يسطع من ضياء المصباح ويتناول انسكاب الماء منه فيجعله في إثارة الحصى عن جديد الأرض وشدة ثقوبه لسطحه كالفاحص الذي يثير الأرض لبناء افاحيص القطا او كالذي يلعب بالأداحي ويذكر ريقه حين علا شطباً، فيجعله كخاصرة الحصان الأبلق تعدو خلفه الخيل وهو يرمحهـــا برجليه تمثيلاً لما يتلاحق ، وينفصل من كسف السحاب ثم يعود مكانه فيركب ما قبله ، ويجعله ثانية في تتابع ركامه ، وتعاظم اجرامه كالإبل الشعث اللهاميم في فصالها القوية، ويمضي معها فينشرها على تلك الأرض الضاحية ، ويتخذ من حناجرها ذلك الصوت الأجش ، ومن هدل مشافرها تلك القطع السود المتدلية من أهداب السحاب، ثم يرجع الى مساقطه فيهيىء المدخل إليها بسوق الجنوب لأولاه ، وسقوط

أعجازه بالماء الغزير المنهمر حتى اصبحت الرياض غدقة والقيعان مترعة ، ما احتبس فيه الماء وما سال منه سواء فترى بعد هذا أن الشاعرين اشتركا في صفة البرق والمطر والسحاب ، وزاد أوس معناه في بيته الثاني وهو ابرع صورة وأعلاها ، وكذلك تشبيه البرق بأقراب الأبلق وما جاء بعـده من حناجر الإبل ومشافرها في بيته السادس . وصنيع الجنوب بأولاه في آخر كلامه ، فتلك أربعة معان لم يتناولها بذاتها شعر امرىء القيس ، ولكنك تراه أتى مكانهـــا بصورة مجلسه في اصحابه يتأملون ما يبهر النظر من وراء الطبيعة ويرون انقلاع الدوح وسقوطها على أذقانها وما عمل السيل بجذوع النخل، وأبنية البيوت، وبصف إلقاء السحاب بعاعه بصحراء الغبيط فيما ظهر من ألوان النبات المشابهة في حمرتها وصفرتها واخضرارها لهذه الأبراد والحبر اليمانية وبعرض صورتين من مناظر الجبال . رأيت كيف كانتـا في موقعهما مكملتين لتمثيل هذا الافق من سائر جهاته . ثم يترفع عن معاني العامة بما يصفه من جمال الطبيعة حين تكون الطيور نشوى بصبوح السلاف ، وتلك الصورة الاخرى من غرق السباع في أرجاء السيل . فهذه سبعة معان لم يتناولها كلام أوس ، وهي تعطيك صورة ناصعة كاملة التكوين للبرق والمطر والسحاب على الجبال والصحراء والشجر والنخيل والسباع والإنسان ؛ وقد ترون بعد هذا أن أوساً كان حقاً دقيق التصوير، قوي الانفعال في وصف السحاب والبرق ، ولكن امرأ القيس كان أدق منه وأبلغ في إحاطة تصويره بهذا الافق الطبيعي من جميع أقطاره[1] .

وصف القوس :

(١)

تناول أوس بن حجر وصف القوس مذ كانت غصناً في شجرة ، فقال إن

(١) الأدب العربي في العصر الجاهلي للمرحوم الاستاذ محمد هاشم عطية .

هذه الشجرة التي اخذت منها القوس كانت نابتة على جبل أشم يجلله السحاب، وهذا الجبل أملس كأن صخوره أرويت بدهن تزلج منه قدم من يصعد إليه، وهو يزيد أن الشجرة بعيدة المنال ، فالقوس المأخوذة منها نادرة ، وهي أحسن الاقواس المعروضة للبيع او المعدة للحرب. وقد أبصرها مَن أبصرها، فجشم نفسه أن يصعد إليها ، فصعد متحملاً الندوب التي يحدثها الصخر بأصابعه ، وما زال كذلك حتى وصل ، وقطع الغصن وصقله ، وهو خبير بصقل القسيّ ، فأخرجها وسطاً بين الطول والقصر ملء الكف ، إذا ما استعملت سمعت لها صوتاً هو النئيم والأزمل ، وإذا شد وترها تقارب قاباها حتى يتصل السهم بقبضها ، ثم ينطلق الى غايته البعيدة :

ومبْضُوعةٍ من رأس فرْعٍ شَظِيَّةٍ
بطَوْد تراه بالسحاب مُجَلَّلاَ[1]

على ظهر صَفوانٍ كأَن مُتونه
عُلِلْن بدُهن يُزلق المُتَنزِّلا

يُطيف بها راعٍ يجَشِّم نفسه
ليكلأ فيها طرفه مُتأَمِّلا

على خير ما أبصرْتَها من بضاعة
لمُلتَمِسٍ بيعاً بها أو تَبَكُّلا[2]

---

(١) المبضوعة : المقطوعة . الشظية : الفلقة من الشيء .

(٢) التبكل : الغنيمة .

فُوَيق جُبَيل شامخ الرأس لم تكن

لتبلغَه حتى تكلّ وتعمــلا

فأبصر ألهاباً من الطود دونه

يرى بين رأسَيْ كلّ نيقَيْن مَهْبلا[1]

فأشرط فيها نفسه وهو مُعْصِمٌ

وألقى بأســباب له وتوكّلا[2]

وقــد أكلتْ أظفارَه الصخرُ كلما

تعيّــا عليه طولُ مَرْقىً توصّلا

فما زال حتى نالهــا وهو مُشفِقٌ

على موطنٍ لو زلّ عنه تفصّلا

أمرّ عليها ذاتَ حدٍّ غرابُهــا

رَقيقٌ بأخذٍ بالمداوِس صيْقَلا[3]

---

(٣) الألهاب : جمع لهب بالكسر وهو الصدع في جانب الجبل ، والنيق بالكسر المكان المرتفع ، المهبل كمنزل : المنزل والمهوى من رأس الجبل .

(٤) أشرط نفسه : ألزمها وأعدها .

(٥) ذات حد : هي السكين ، غرابها : حدها ، المداوس جمع مدوس كمنبر آلة الصيقل التي يثقف بها القسي .

على فَخذَيْه مِن بُراية عُودهـــا
شبيهُ سفا البُهْمى إذا ما تفتَّلا[1]

فجرّدها صفراءَ لا الطولُ عابَها
ولا قِصَرٌ أزْرَى بها فَتُعَطَّـــلا

كتومٌ طِلَاعُ الكفِّ لا دون مِلْئِها
ولا عَجْسُهَا من موضع الكف أفضلا[2]

إذا ما تعاطوْهـــا سمعتَ لصوتِها
إذا أنبضوا عنها نَئِياً وأزْمَلا[3]

وإن شَدَّ فيها النزعُ أدبر سهمُها
إلى مُنْتَهىً مِنْ عجْسِها ثم أقْبلَا[4]

---

(١) البهمى : نبات معروف .

(٢) الكتوم : التي لا يوجد في عودها شقوق ولا صدوع ، طلاع الكف : ملؤها ، العجس: المقبض .

(٣) الانباض : تحريك الوتر في القوس ، النئيم : صوت القوس والاسد والظبي . والازمل الرنين .

(٤) معنى إقبال السهم الى العجس وإدباره أن القوس لينة في صلابة عود فإذا شد النـــازع السهم عاد الى المقبض ثم ابتعد عنها لقوة دفعها وصلابتها .

(٢)

فإذا تركنا هذه الصورة الدقيقة البـــارعة المستقصية ، رأينا الشمّاخ ابن ضرار يتناول هذه المعاني في وصف قوسه فيقول :

تخيَّرها القوَّاسُ مِن فرْعِ ضالَةٍ
لها شذَبٌ من دونهـــا وحَزَائِزُ[(١)]

نمتْ في مكان كنَّهَا فاستوتْ به
وما دونَها مِن غيلها مُتَلاحِزِ[(٢)]

فما زال ينحو كلَّ رطبٍ ويابسٍ
وينْغَلُ حتى نالهـــا وهو بارز[(٣)]

فأنحى عليهـــا ذاتَ حدٍّ غُرابُها
عدوٌّ لأوساط العِضَاهِ مُشَاوِزُ[(٤)]

---

(١) أي دون الوصول إليهـــا عيدان مشذبة او مقطوعة وحزائز او جزائز أي فروع وأصول مجزورة أي مقطوعة ، او اصول الشجر العظام .

(٢) الغيل : الشجر الملتف ، متلاحز : متضايق .

(٣) ينغل : يدخل تحت الشجر ليأخذها .

(٤) العضاه جمع عضهة الشجرة . مشاوز : محارب .

فأمسكها عـــامين يطلب درْأها

وينظر منها ما الذي هو غامِزُ (١)

أقامَ الثِّقَـــافُ والطريدةُ متْنَها

كما أخرجت ضِغنَ الشَّمُوسِ المهامِزُ (٢)

فوافى بهـــا أهل المواسم فانبرى

لها بَيِّعٌ يُغلي بها السَّوْمَ رائِزُ (٣)

فلما شراهـا فاضت العـــينُ عـــبرةً

وفي الصدر حَزَّازٌ من الوجد حامِزُ (٤)

إذا أنبض الرامون فيهـــا ترنّمتْ

ترنُّم ثكلى أوجعتْها الجنـــائز

كأن عليهـــا زعفـــراناً تُمِيرُه

خوازِنُ عطّار يمانٍ كوانز (٥)

---

(١) الدرء : الاعوجاج. الغامز: المكان المطمئن فيها أي الشق .

(٢) الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . الطريدة القصبة يعرف بها اعتدالها .

(٣) السوم : البيع . الرائز : المجرب .

(٤) حامز . ممض محرق .

(٥) تميره : أي تحركه . خوازن العطار اليماني التي تكتنز الزعفران أي أن القوس صفراء .

إذا سقط الأنداء صِينتْ وأُشعِرتْ

حَبِيراً ولم تُدرَجْ عليها المعَاوِز (١)

وصف الفرس :

جاء علقمة بن عبدة يومـاً الى امرىء القيس ، وعنده امرأته أم جندَب الطائية ، فتذاكرا الشعر ، وادعى كل منهما أنه أشعر من الآخـر ، فتحـاكما الى أم جُندَب بهاتين القصيدتين المتفقتين في أكثر الأبيات اتفاقاً في لفظها كله أو أكثره :

يقول امرؤ القيس في مطلع قصيدته :

خليليّ مُرّا بي على أم جُنْـــدَب

لنقضي لبـــانات الفؤاد المعذّب

ثم يقـول في وصف فرسه ، وكيف طـارد ثيران الوحش ونعـاجه حتى أدركها ، وهي بين عـائر سقط على جبينه ، ومتق بقرنه الذلق الذي يشبه حد المخرز :

وقد أغتدي والطير في وُكُناتها

وماء الندَى يجري على كل مِذْنَب (٢)

---

(١) الحبير المحبر المنقوش يعني إذا كان الغيم غطيت القوس بثوب جـديد محبر ، ولم تغط بالمعاوز وهي الثياب الخلقة .

(٢) الوكنات : جمع وكنة ، وهي وكر الطائر . المذنب : مسيل الماء الى الروض .

بُمنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابدِ لاَحَــهُ
طِرادُ الهوادِي كلَّ شَأْوٍ مُغَرِّبِ (١)

له أَيْطَلا ظبي وَسَاقَا نَعَــامَةٍ
وَصَهْوَةُ عَيْرٍ قائِمٍ فوْقَ مَرْقَبِ (٢)

وعينٌ كمرآة الصَّناعِ تُديرهــا
لِمَحْجِرِها من النَّصيفِ المنقبِ (٣)

له أذنان تعرفُ العِتْقَ فيهمــا
كسامعتي مَذْعورةٍ وَسْطَ رَبْرَبِ (٤)

فَبيْنا نعــاجٌ يَرْتَعينَ خَميلَةً
كمَشْي العذارى في المُلاء المُهَدَّبِ (٥)

---

(١) المنجرد : القصير الشعر . الأوابد : جمع آبدة وهي طريدة الوحشي . لاحه : أهزله طراد : مطاردة . الهوادي : السوابق . الشأو : جرى مرة الى الغاية . المغرب : البعيد .

(٢) الأيطل : الخاصرة. الصهوة : الظهر . العير : الحمار . المرقب : المكان المرتفع .

(٣) الصناع : المرأة المحسنة . المحجر : بفتح الميم: ما دار بالعين وبدا من البرقع . النصيف : الخمــار .

(٤) المذعورة : الظبية الخائفة . الربرب ، قطيع الظباء والبقر .

(٥) النعاج ، إناث بقر الوحش . الخميلة ، رمل فيه شجر .

فلأْياً بلأْيٍ مـــا حَملْنــا غُلامنا

على ظهر محبوكِ السَّراة محنَّب[١]

وَوَلَّى كشُؤْبوب العشيِّ بوابـــلٍ

ويَخرُجنَ من جعْدٍ ثَراه منصَّبِ[٢]

فَلِلساق أُلْهوبٌ وللسَّوْطِ درَّةٌ

وللزَّجر منه وَقْعُ أَهوَجَ مِنْعَبِ[٣]

فأدْركَ لم يَجْهَدْ ولم يَثْنِ شَـــأْوَه

يَمُرُّ كَخُذْرُوف الوليد المُثَقَّب[٤]

فعادى عِـدَاءً بين ثور ونعجـــة

وبين شَبُوبٍ كالقَضِيمَة قَرْهَب[٥]

---

(١) اللأي : البطء . المحبوك السراة المجدول الظهر . المحنب ، المقوس .

(٢) الشؤبوب ، الدفعة الشديدة من المطر . الوابل: الشديد الغزير . الجعد : المتراكب بعضه فوق بعض . الثرى : التراب الندي . المنصب : القائم المغطى .

(٣) الألهوب ؛ شدة جري الفرس . الدرة جري في لين ، وأصله ما يدر من اللبن. الأهوج، الأحمق . المنعب ، الذي يستعين بصوته أو الذي يمد عنقه في السير .

(٤) الخذروف ، الدوارة التي يلعب بها الصبيان .

(٥) العداء ، الموالاة بين الشيئين . الشبوب ، الثور أو الوعل. القضيمة، الصحيفة البيضاء . قرهب ، ضخم .

وَظَلَّ لِثِيرَانِ الصَّرِيمِ غَماغِمٌ

يُداعِسُهــا بالسَّمْهَرِيِّ المُعلَّبِ(١)

فكابٍ على حُرِّ الجبــين ومُتَّقٍ

بِمَدْرِيَةٍ كأنها ذَلْقُ مِشْعَبِ(٢)

فقلت لفتيــان كرام ألا انْزِلوا

فَعَالُوا علينا فَضْلَ ثوب مُطَنَّبِ

فلمــا دخلناه أَضَفْنا ظهورنا

إلى كلّ حَاريٍّ جديدٍ مُشَطَّبِ(٣)

كأن عيونَ الوحش حولَ خبائِنا

وأرْحُلِنا الجزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ(٤)

---

(١) الصريم ، رمل متقطع . الغماغم ، جمع غمغمة ، وهي أصوات الأبطــال في الحرب. المداعسة ، الطعان . السمهري ، الرمح . المعلب ، المعصوب بالعلباء ، وهي سير من الجلد تشد به العصي إذا خيف عليها الكسر .

(٢) الكابي العاثر الساقط . المدرية القرن . والذاق ، الحد . المشعب ، المخرز .

(٣) الحاري والحيري ، المنسوب الى الحيرة وأراد به هنا السيف أو الرحل . المشطب ما فيه الشطب ، وهي جمع شطبة بضم الشين وكسرها أي الطريقة .

(٤) الجزع ، خرز فيه سواد وبياض .

ثم قال علقمة في قصيدته التي مطلعها :

ذهبتَ من الهِجْران في غير مذهب
ولم يك حقا كُلُّ هــذا التجنُّب

ثم يقول :

وقد أغْتدي والطيرُ في وُكُناتها
وماءُ الندَى يَجْري على كل مِذْنب
بمنجرد قيــد الأوابد لاَحَــه
طِرَادُ الهوادي كُلَّ شأو مُغَرِّب
كُمَيْتٍ كلَونِ الأُرْجُوَان نشرته
لِبَيْعِ الرداء في الصِّوَانِ المكَعَّبِ
له حُرتَّان تعرِفُ العِتْــق فيهما
كسامِعَتيْ مذْعورَةٍ وَسْطَ رَبْربَ
وَجوْفُ هــواءٌ تحت مَتْنٍ كأنه
من الهَضْبة الخلْقاء زُحلوقُ مَلعبِ(١)

(١) الهضبة : الصخرة المرتفعة . الخلقاء : الملساء .

رأينـــا شياهاً يرتعين خميـــلة
كمشي العَذَارى في المُلاء المهدَّب
وأقبل يهوي ثانيـــاً من عِنَـــانه
يمـــرُّ كَمَـرِّ الرائح المتحَلِّـــب
فظل لثيرانِ الصريمِ غمـــاغِمٌ
يُداعِسهُن بالنَّضِيِّ المعَلَّـــب
فهـــاوٍ على حُرِّ الجبين ومُتَّـــقٍ
بِمَدْرِيَة كأنهـــا ذَلْقُ مِشْعَب
فعـــادى عداء بين ثور ونعجةٍ
وتَيْسٍ شَبُوبٍ كالهشيمَة قَرْهب
فقلنا ألا قـــدكان صيدٌ لقانصٍ
فَخَبُّوا علينـــا فَضْل بُردٍ مطَنَّب
كأن عيونَ الوحش حول خِبائنـا
وأرحُلِنا الجزعُ الذي لم يُثَقَّب

قالوا فلما فرغ علقمة من إنشاده، قضت له أم جندُب على امرىء القيس، قالت : فرس علقمة أجـــود من فرسك ، لأنك حركته بساقك ، وامتريته

بسوطك ، وزجرته بصوتك ، وأدرك فرس علقمة ثانياً من عنانه . « أي هو لم يبلغ غاية حضره » . والذين يعرفون أن امرأ القيس كان مفرّكا تكرهه النساء ، وأن هذه المرأة بعينها كانت تكرهه ، وكانت ضلعها مع علقمة ، يدركون في سهولة أنها جارت في حكمها على امرىء القيس ، لأن الذي قصد من ذكر السوط والساق والزجر– وإن كان فيه شيء من الهجنة – إنما هو التنبيه على مبلغ عنايته برياضة فرسه وتأديبه ، وان عنده أفانين من الجرْي، فيعطي راكبه من كلّ حالة ما يشبهها من العدو، فإذا لمسه الساق اشتد في الجري كألهوب النار ، وإذا مسه السوط كان كدرة المطر ، وإذا زجر بالقول نعب عنقه ومدّه للاسراع كالأهوج الذي لا عقل له ، وقد ألم بهذا المعنى في غير هذا الموضع فهو يقول :

على لاحِقٍ يعْطِيكَ قبل سُؤاله
أفانينَ جَرْيٍ غيرَ كزٍّ ولا وَان

على أنه مع ذلك قال من هذه القصيدة بعد بيته الذي ذكر فيه الساق والزجر والسوط « فأدرك لم يجهْد ... البيت » وهو يدل على ما يدّل عليه بيت علقمة من أنه أدرك طريدته ، وهو لا يزال كما هو ، لم يتعب ، ولم يثن شأوه ، أي لم يعد الشوط بل أدركه من أول حضر . وإن كان العلماء لا يزالون يذكرون هذه الحكومة من غير تعليق ولا تعقب ، كأنهم يوافقون هذه المرأة في نقدها بادي الرأي ، ولكنكم ترون عند التأمل وإنعام النظر ، أن فرس امرىء القيس يجري بفرس صاحبه في الإدراك وسرعة اللحاق ، ويزيد أنه معلم مرتاض مفتن في الجري ، ومما يزيد في ضعف هذا النقد أن علقمة خلف امرأ القيس على أم جندب ، وبذلك سمي علقمة الفحل ، وهذا كما أسلفنا يدّل على مبلغ ميلها له على صاحبه .

الضيف المستنبح :

كان الساري إذا ضل ليلا في الفيافي وتحير ، فلم يدر أين البيوت نبح ، فتسمعه الكلاب فتنبح ، فيقصد أصواتها ، ويهتدي الى العمران ، فيقال له (مستنبح) .

وهذه قصة من قصص الكرم يروي فيها عتيبة بن بجير الحارثي قصة ضيف مستنبح ، أضله صدى صوت الكلاب ، فسمع بجير رغاء ناقته ونباح كلاب الحي ، فسأل أهله ، فقالوا غريب طوحت به الصحراء والخطوب ، فنهض بجير للقائه ونجدته ، ولم تقعده معاذير تختلقها النفس الشحيحة ، ونادى ابنه شبلا ، فلبى نداءه ، لأن الكرم سجيتهم . وقد يكرمون من يعادون، وقام متهللا فنحر من نوقه الباقيات ، وطالما نحروا من نوقهم وأهانوها ليصونوا أعراضهم :

وَمُسْتَنْبِحٍ بات الصدى يَسْتَتِيهُهُ
إلى كل صوتٍ فهو في الرحل جانحُ[١]

فقلتُ لأهلي : ما بغـــامُ مطيةٍ
وسارٍ أضافتْه الكلاب النـوابحُ

فقالوا : غريبٌ طارقٌ طوّحتْ به
مُتون الفيافي والخطوبُ الطوارحُ[٢]

---

(١) جانح مائل .

(٢) الطوارح التي تطرح وترمي وتبعد .

فقمتُ ولم أجثم مكاني ولم تقم

مع النفس عِلاتُ البخيل الفواضحُ

وناديتُ شبلا فاستجابَ وربمـــا

ضمِنَّا قِرى عَشر لمن لانصافح(١)

فقـــام أبو ضيفٍ كريمٌ كأنه

وقد جدّ من فرط الفكاهة مازح(٢)

إلى جِذْمِ مال قد نهَكْنَا سَوامَه

وأعراضنا فيه بواقٍ صحائح(٣)

جعلنـــاه دون الذّم حتى كأنه

إذا عُد مال المكثرين المنائح(٤)

---

(١) أي عندنا من القرى ما يقوم بالأضياف الذين لا نعرفهم عشر ليال .

(٢) أبو ضيف يريد نفسه .

(٣) الجـذم . الأصل. والسوام الإبل الراعية . أي قمت الى الإبل التي أنفدنا السوام منها في الضيافة والمغارم لنقي عرضنا .

(٤) المنائح جمع منيحة وهي الناقة تدفع الى الجار لينتفع بلبنها فاذا انقطع ردهـــا ، أي جعلنا هذا الأصل من المال وقاية بيننا وبين الذم كأنه المنائح إذا عدت أموال المكثرين .

حيلة صعلوك :

في هذه الصورة الرائعة الجميلة يتحدث إلينا أحد شعراء الصعلكة والفتوة وهو (تأبط شراً) عن مغامرة من مغامراته ، وحيلة من حيله ، أنجته من موت محقق ، وخلصته من يد أعدائه الظافرين به . فقد أخذ عليه بنو لحيان طريق جبل وجدوه فيه يجني عسلا ، ولم يكن له طريق غيره، فأقبلوا عليه وقالوا له : استأسر أم نقتلك؛ فكره أن يستأسر، وفكر في حيلة يستخلص بها من موقفه الحرج ، فصب مـا معه من العسل على الصخر ، ووضع نفسه عليه حتى انتهى إلى الأرض من غير طريقهم ، دون أن يمسه أذى من الصخر ونجا منهم . والموت المحقق ينظر إليه خزيان لنجاته منه . مـا أجمل قوله : (ويومي ضيق الجحر معور) وأجمل منه قوله : (والموت خزيان ينظر) .

إِذَا المرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وقَدْ جد جِدُّهُ
أَضَاعَ وَقَاسَى أَمْرَهُ وَهْوَ مُدْبِرُ(١)

وَلَـكِنْ أخوُ الحزْمِ الَّذِي ليس نَازِلاً
بِهِ الْخَطْبُ إِلَّا وَهْوَ لِلْقَصْدِ مُبْصِرُ(٢)

---

(١) المعنى أن الإنسان إذا نزل به المكروه ولم يحتل في خلاصه منه أضاع امره وقاسى منه ما يقاسي وهو مول مدبر .

(٢) الخطب الكرب يقول صاحب الحزم والتدبير هو الذي يستعد للأمر قبل نزوله وهذا كما قيل قبل الرماء تملأ الكنائن .

فَذاكَ قَرِيعُ الدَّهرِ ما عَاشَ حُوَّلٌ
إِذَا سُدَّ مِنه مِنْخَرٌ جَاشَ مَنْخِرُ (١)

أُقولُ لِلحِيْانِ وَقَدْ صَفِرَتْ لَهُمْ
وِطَابِي وَيَوْمِي ضَيِّقُ الْجحْرِ مُعْوِرُ (٢)

هُمَا خُطَّتَا إِما إِسَارٌ وَمِنَّــــةٌ
وَإِما دَمٌ وَالْقَتْلُ بالحُرَّ أَجْدَرُ (٣)

وَأُخْرَى أُصادِي النَّفْسَ عَنْهَا وَإِنْهَا
لَمَوْرِدُ حَزْمٍ إِنْ فَعَلْتُ وَمَصْدَرُ (٤)

---

(١) قريع الدهر هو المجرب للأمور والحول ، البصير بتحويل الأمور ، وقوله إذا سد منه منخر الى آخر البيت مثل للخلاص من الشدة – والمعنى أن الانسان المتيقظ صاحب الحزم المجرب للأمور إذا أخذ عليه باب نفذ في غيره ولم تعيه الحيل .

(٢) لحيان بطن من هزيل ومعنى صفرت خلت والوطاب جمع وطب وهو سـقاء اللبن في الأصل وأراد بها ظروف العسل التي صب العسل منها على الجانب الآخر وركبه متزلقاً حتى لحق بالسهل وقوله ضيق الجحر مثل لضيق المنفذ والمعور المنكشف العورة أي انه يقول لهم وهو في هذه الحالة ومقول القول الآتي في البيت بعده وهو قوله هما خطتا الى آخر البيت .

(٣) خطتا مثنى خطة وهي الأمر والقصة وبينهما بقوله إما إسار أي إما أسر ومنة وإما دم أي قتل وحذف النون من خطة لطول الكلام والمعنى ليس لي إلا واحد من أمرين على زعمكم إما استئسار والتزام منتكم إن أردتم العفو وإما قتل وهو بالحر أجدر اي احق مما يكسبه الذل والقتل بالحر اجدر اعتراض بين ما عده من الخصال .

(٤) المصاداة إدارة الرأي في تدبير الشيء وإمعان النظر فيـه والإتيان به – يقول وههنا خطة اخرى أدير رأيي فيها وانها هي الموضع الذي يرده الحزم ويصدر عنه إن فعلت وبينها في البيت بعده بقوله فرشت لها صدري الى آخر البيت .

فَرَشْتُ لَهَا صَدْرِي فزَلَّ عَنِ الصَّفَا

بِهِ جُؤْجُؤٌ عَبْلٌ وَمَتْنٌ مُخَصَّرُ(١)

فَخَالَطَ سَهْلَ الأرْضِ لَمْ يَكْدَحِ الصَّفَا

بِهِ كَدْحَةً وَالموْتُ خَزْيانُ يَنظُرُ(٢)

فأُبتُ إلى فَهْمٍ وَلَمْ أكُ آيِباً

وَكَمْ مِثلها فَارَقْتُهَا وَهْيَ تَصْفرُ(٣)

---

(٢) فرشت اي بسطت بين بهـذا كيفية مزاولته لنفسه وقوله جؤجؤ عبل اي صدر ضخم ومعنى متن مخصر ظهر دقيق والمعنى أنه فرش لأجل هذه الخطة صدره على الصفا وذلك حين صب العسل فزلق به عن الصفا .

(٣) الخلط اصله تداخل اجزاء الشيء بعضها في بعض وأراد به هنا الوصول ولم يكدح اي لم يؤثر وخزيان من الخزي وهو الاستحياء وينظر - يتحير يقول اسهلت ولم يؤثر الصفـا في صدري اثراً ولا خدشاً والموت كان قد طمع في فلما رآني تخلصت بقي مستحيياً ينظر ويتحير .

(٤) فأبت اي رجعت وفهم اسم قبيلة والضمير في مثلها يعود الى هزيل وتصفر من الصفير كناية عن تأسفها على خلاصه منها .

الفصل الثامن

خصائص الشعر الجاهلي

الألفاظ والأساليب :

(١)

استعرضنا بعض صور الشعر الجاهلي لكبار الشعراء الذين وصفوا الفوق والخيل والبرق والمطر والقوس ، ونحو ذلك ، فرأينا البادية في خشونتها وصلابتها ، وجدبها وقفرها ، ووعورة مسالكها ، ووعوثة صحرائها ، تنعكس في ألفاظ هذه الصور وأساليبها . وما يزال طرفة يقول في الجدب :

وإنا إذا ما الغيم أمسى كأنه
سماحيقُ ثَرْب وهي حمراء حَرْجَف[١]

---

(١) السمحاق : الرقيق من الغيم . الثرب : دهن كرش الشاة . الحرجف : الريح الباردة الشديدة .

وجاءت بصرَّادٍ كأن صقيعـــه

خلال البيوت والمبارك كُرْسف[1]

تبيت إماءُ الحي تطهي قدورنا

ويأوي إلينا الأشعث المتجرف[2]

وما يزال أوس بن حجر يشبه ناقته بالعير الوحشي ويصف هـذا العير ، فيقول :

كأني كسوت الرَّحلَ جأباً مُكَدَّما

له بجنوب الشيِّطَيْنِ مَساوِف[3]

يُصَرِّف حَقباء العجيزة سَمْحَجًا

بها ندَبٌ مِنْ زَرِّهِ ومَنَاسف[4]

ويقول طرفة في ناقته :

---

(١) الصراد : غيم رقيق لا ماء فيه . الكرسف : القطن .

(٢) المتجرف : المعدم .

(٣) الجأب : الغليظ من الحمر ، المكدم : المعضض من الكدم وهو العض . الشيطان : موضع المساوف ، مواضع أبوال الحمر .

(٤) حقباء من الحقب وهو البياض . السمحج : الطويلة النـــدب ، أثر الجرح . الزر ، الضرب . مناسف ، آثار عض .

صُهَابِيَّةُ العُثْنون مُوجَدةُ القَـــرا

بعيدةُ وخْد الرِّجْل مَوّارةُ اليد(١)

جَنُوحُ دِفاق عَنْدَلٌ ثم أُفرِعَتْ

لها كتفاها في مَعَـــالىً مُصعَّدِ(٢)

كأن عُلوب النِّسْع في دأَياتِهـــا

موارد مِنْ خَلْقَاء في ظهر قرْدَدِ(٣)

ويقول الأعشى في ناقته وتشبيهها بحمار الوحش :

عَنْتَرِيسٍ تعدُو إذا حُرِّكَ السَّوْ

طُ كعدو المصَلصِلِ الجوَّالِ(٤)

لاَحَـــه الصيف والطِّراد وإشفا

قٌ على صَعْدَةٍ كقوس الضَّالِ(٥)

---

(١) صهابية : صهباء اللون وهو بياض شيب بحمرة . العثنون : شعر تحت الحنك . موجدة: قوية . القرا : الظهر . الوخد : ضرب من السير • موارة : سريعة الحركة .

(٢) جنوح : مائلة من سرعتها . دفاق : متدفقة . عندل : عظيمـــة الرأس . افرعت . رفعت . معالي : مرتفع .

(٣) العلوب : الآثار . النسع : حزام الرحل . الدأيات : مآخير الأضلاع . موارد : طرق ماء . الصخرة الملساء . القردد : الأرض الصلبة .

(٤) عنتريس : ضخمة قوية . مصلصل : مصوت وهو حمار الوحش .

(٥) لاحه : غيره . الصعدة : الأتان . الضال : شجر الدر .

ويقول النابغة في الناقة وحمار الوحش :

كأنما الرحل منها فوق ذي جُدَدٍ
ذَبٍّ الرِّيادِ الى الأشباح نَظَّارِ[1]

مجَرَّسٌ وُحــدٌ جَأْبٌ أطاع له
نبات غيث من الوسميّ مِبْكارِ[2]

فنلاحظ اتسام الألفاظ الجاهلية بسمة الغرابة والوعورة والجزالة ، وقد بدت عليها عنجهية البداوة ، ووعوثة الصحراء ، وخشونة العيش ، لتأثر هؤلاء الشعراء بمظاهر الغلظة والقوة البادية في طباعهم ونظام اجتماعهم .

وهذه الغرابة والوعورة بالنظر إلينا ، تطول العهد بيننا وبينهم ، وقلة دوران هذه الألفاظ العربية على ألسنتنا . فإذا عرفناها من المعاجم . ورددناها على الألسنة ، اصبحت عادية مألوفة .

وإلى جانب هذه الصور الجافية المتوعرة تطالعك في البادية احياناً صور شفافة رقيقة ، تسيل ألفاظها رقة وعذوبة وسهولة ووضوحاً ، كأنما يرى بها نسيم من الصبا رقيق .

اقرأ مثلاً قول المنخل اليشكري :

---

(١) الجدد : الطرائق : وهو ثور الوحش المخطط . الذب : الدفع . الرياد : الارتياد والتجول . وهو كثير العدو كلما تراءت له أشباح .

(٢) جرس : خائف كلما سمع جرساً اي صوتاً . وحد : وحيد . جأب : صلب شديد . طاع له الكلأ وأطاع : اتسع وأمكن رعيه . الوسمي : اول المطر .

ولقد دخلتُ على الفتا ... ةِ الخِدرِ في اليوم المطيرِ
الكاعبِ الحسناءِ ترْ ... فُلُ في الدمقس وفي الحريرِ
فدفعتُها فتدافعَتْ ... مَشْيَ القَطاةِ إلى الغديرِ
ولَثمتُها فتنفَّسَتْ ... كتنفس الظبي الغريرِ
وأحبُّها وتحبُّني ... ويُحب ناقتها بعيري

وانظر الى طرفة كيف يلين جانبه الوعر ، فيقول إن حبيبته تبسم عن ثغر أسمر اللثات ، كأن فيه اقحواناً ظهر نوره ، وهذا الأقحوان قد نبت في كثيب من نقي الرمل ، في اسفله الندى من الماء والري . فأسنانها تشبه في بياضها نور الأقاحي الندية .

وتَبْسِم عن أَلْمى كأن مُنـوِّراً
تخلّل حُرّ الرمل دِعْصٌ له نَدِي
وَوَجهٍ كأن الشمس ألقتْ رداءَها
عليه نَقيِّ اللون لم يتخـدَّد

واقرأ قول المهلهل بن ربيعة في رثاء أخيه كليب :

دعوتُك يا كليب فلم تجبني
وكيف يجيبني البلد القفار

أجبني يا كليب خلاك ذمٌّ

لقـــد فُجعتْ بفارسها نزار

سقاك الغيث إنك كنت غيثـــاً

ويُسرا حين يُلتَمس اليســـار

وانظر كيف يرق شعر لبيد ويعذب في رثاء اخيه أربد :

وقد كنت في أكناف جارِ مَضِنَّة

ففـــارقني جـــارٌ بأرْبدَ نافعُ

فلا جزع إن فرّق الدهر بيننـــا

فكل امرىء يوماً به الدهر فاجعُ

وما المال والأَهلون إلا ودائع

ولا بد يومـــاً أن تُردّ الودائعُ

ونخلص من هذا كله الى أن الألفاظ الجاهلية كانت تتسم في الغالب بسمة الغرابة والوعورة والجزالة ، وأنها كانت في بعض الأحيان تبدو رقيقة سهلة واضحة لينة ، عندما تصدر عن عاطفة رقيقة ، كالغزل او إحساس مرهف صقله الحزن وشفه الألم ؛ كالرثاء[1] .

---

(١) الجزل من الكلام هو ما تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاورتها (الصناعتين ٦٤) ويقول ابن الأثير : الجزل يستعمل في مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف ونحو ذلك ، وأعني بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته لا وحشياً متوعراً ، وأعني بالرقيق اللطيف الناعم الملمس لا الركيك (٦٥ المثل السائر) ويرى الفرزدق أن الجزالة والرقة بحسب الشاعر والموضوع الذي ينظم فيه . حيث يقول في جرير : ما أحوجني مع قسوتي الى رقـــة شعره ، وأحوجه مع عفافه الى خشونة (الشعر والشعراء ١٢٧) .

ومن خصائص الألفاظ الجاهلية الفصاحة لانطباع العرب عليها ، وندرة استعمال الاعجمي لندرة اختلاطهم بغيرهم ؛ وقد أدخل الاعشى في شعره بعض الالفاظ الفارسية التي سمعها من الفرس في أسفاره ، كما يقول :

بكأس و (إبريق) كأن شرابه
إذا صُبَّ في (المِصْحاة) خالط (بَقَّما)
لها (جُلَّسَانٌ) عندها و (بنفسج)
و (سِيسَنْبَرٌ) و(المَرزجوش) منمنما
(وآسٌ) و(خِيريٌّ) وورد و (سوسن)
يُصبّحنا في كل دَجْن تغيّما

والمصحاة إناء يشرب فيه ، والبقم خشب شجر كبير ساقه أحمر يصبغ به ، والجلسان نوع من الريحان ، وكذلك السيسنبر ، والمرزجوش الياسمين .. الخ .

وكان عدي بن زيد يعيش مع الفرس بالحيرة والمدائن ، فنقل كثيراً من ألفاظهم في شعره ، كلفظ (الأبيل) وهو الراهب في قوله :

إنني والله فاقبل حلفي
لأبيلٌ كلما صلّى جأرْ

ولفظ (الشبر) وهو الإنجيل او القربان في قوله :

إذ أتاني نبـــأ مِنْ مُنعم
لم أخنه والذي أعطى الشَّـــبَرْ

ولفظ (الإبريق) في قوله :

ودعوا بالصَّبُوح يوماً فقـــامت
قَينــــةٌ في يمينهـــا إبريق

(٣)

وتمتاز الألفاظ الجاهلية بوضعها في مواضعها التي تتطلبها ، دون استكراه او اجتلاب او قلق ، كما تمتاز بكثرة استعمالها في معانيها الحقيقية الموضوعة لها ، وذلك راجع الى بساطة حياة الجاهليين ، وميلهم الى الصراحة والصدق فهي لذلك قليلة المجاز .

(٤)

وتتسم الأساليب[١] الجاهليـــة بجودة السبك ، وشدة الأسر ، وروعة الأداء، ومتانة التركيب، وفخامة النسج . تظهر فيها طبيعة جوهم، وسذاجة

---

(١) الأسلوب هو المنوال الذي تنسج فيه التراكيب (ابن خلدون)، او طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني ، او هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير (الأسلوب للشايب) ، او هو طريقة اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر في النفس : من سهولة او غرابة ، او وضوح او خفاء ، او طبع او صنعة .

حياتهم ؛ فلا تجد فيها كلفاً بالزخرف ، ولا تكلفاً في الأداء ، ولا تصنعاً في الجمال ، وإنما هو جمال طبيعي ، وسبك قوي ، وأداء بالفطرة .

ولهذا شاع الإيجاز في اساليبهم ، لأن طبيعتهم تكره الاستقصاء والتحليل والإطناب والحشو ، والعنصر السامي كما قلنا من قبل حاد الخاطر ، ذكي القلب يكتفي في تناول المعنى بالإشارة العابرة ، واللمحة الخاطفة ، اعتماداً على ذكائه وسرعة خاطره ، واستجابة للحياة الساذجة البسيطة التي يكثرون التنقل فيها ، فلا يستقر لهم بها قرار ، ولا تسعفهم حضارة او فلسفة او منطق او نحو ذلك مما يدعو الى الإطالة والتعمق .

ولبساطة هذه الحياة وخلوها من زخرف الحضارة ووشيها ، ندر في شعرهم استعمال المحسن البديعي ، لأنه يقوم على الزخرف والزينة .

(٥)

وكان الجاهليون اهل خيام ومضارب ، وألاف انتجاع وظعن ؛ هكذا فرضت عليهم حياتهم . فلا يمر الشاعر بمكان حتى يذكر عهداً قضاه فيه ، وأحبة ترحلوا عنه . وقـــد ماز ذلك الأساليب الجاهلية بسمة ظاهرة هي ابتداؤهم القصائد بذكر الأطلال ، وبكاء الرسوم ، ومناجاة الديار . كما يقول امرؤ القيس في مطلع معلقته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدَّخول فحومل .. الخ

وكما يستهل زهير معلقته بقوله :

أمن أم أوفى دمنـــة لم تكلم
بحومانة الدّراج فالمتثلم ... الخ

وكما يبدأ النابغة قصيدته بقوله :

عوجوا فحيوا لنُعْم دمنة الدار
ماذا تحيون من نُوي وأحجار .. الخ

وهكذا تفتتح القصائد الجاهلية بالوقوف على الدمن وبكاء الديار ؛ وقـد يبدو هذا الكلف بالوقوف ، وذلك الإمعان في البكاء عند بعض الناس سخفاً من القول ، وابتذالاً من الشعراء ، ولكن الدارس لحياتهم وطبيعة بيئتهم ، يرى في هـــذه الديار والرسوم صوراً رمزية ، تثير في نفوس اصحابها أعنف الذكريات وأجملها ، وأشدها مضاضة وحسرة، لمن أقاموا بها وتحملوا عنها ، وللأيام السعيدة والليالي السامرة التي قضوها في ظلالها .

وهل كنا ننتظر من الشاعر الجاهلي في صحرائه، أن يتحدث عن ذكرياته مع من يحب في ظلال الدوح الألف ، او بين المروج الخضر ، او على شاطىء نهر من الأنهار ؟ .

المعاني والأخيلة[1] :

(١)

تحدث الجاهليون في شعرهم عن الصحراء والسماء ، والدمن والأطلال ،

---

(١) قد يراد بالمعاني الموضوعات التي يتناولها الشاعر بالكلام. أما الخيال فهو العنصر الذي=

والكثبان والرمال ، والسحاب والسراب ، والابعر والغزلان ، والخيل والحمر . ونحو ذلك مما وقعت عليه عيونهم في حياتهم البدوية ، وما فرضته عليهم طبيعتهم من حرب وسلم ، وعرف وتقليد . فالشعر الجاهلي إذن متجاوب مع بيئته ، والشعراء الجاهليون متفاعلون مع مجتمعهم ، تنعكس على أدبهم صورة البيئة والمجتمع انعكاساً صادقاً صحيحاً .

(٢)

والمعاني الجاهلية بسيطة لا تركيب فيها ولا تعقيد ، مستمدة من البيئة العربية ومظاهرها الحسية ، فلا أثر للمعاني العقلية فيها ، ولا مظهر للمعنى المركب ، وإنما هي معان حسية تتعدد احياناً كقول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبـــاً ويابساً

لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقد مازتها حياة الجاهليين وصراحتهم وصدقهم بسمة البساطة والصدق والوضوح ، فهم لا يتعمقون في استحضار المعنى ، وإنما يتناولونه في سهولة ورفق من بيئتهم ، من غير كد قريحة ، ولا عناء فكر .

فهم يصورون الاشياء بصورها الصادقة ، فلا يوغلون في التصوير ، ولا يغلون في الفكر غلواً مرذولاً . وإنما يلتزمون الصدق الذي ينشده حسان او زهير في قوله :

=يتناول الحقائق والأفكار فيلونها تلويناً خاصاً بواسطة التشبيه والاستعارة والكناية ونحو ذلك من ألوان التخييل التي تثير العواطف في نفوس السامعين وتهز مشاعرهم . وقد يطلق المعنى ويراد به الخيال او الفكرة التي يصورها الشاعر .

وإن أصدق بيت أنت قائله

بيت يقال _ إذا أنشدته _ صدقا

إذا مدحوا لم يكذبوا ، وإذا هجوا لم يقذعوا ، وإذا رثوا لم يشرقوا بالدمع او يشرق بهم الدمع ، كما يقول المتنبي :

حتى إذا لم يدع لي صـــدقه أملا

شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

ولم يشيعوا الشمس بتشييع الميت كما يقول شوقي في رثاء سعد :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها

وانحنى الشرق عليهـــا فبكاها

ولم يتخيلوا أن الشمس قد مرضت ، وأن الأرض قـد زلزلت ، وأن الأنهـار قد غاضت ، وأن السماء قد انطبقت على الارض . كما يقول البحتري في الرثاء :

والشمس في كبـــد السماء مريضة

والأرض واجفـــة تكاد تمور

وكما يقول بعض الشعراء :

قالوا : دهت مصرَ دهياء فقلت لهم

هل غُيِّض النيل أم هل زُلزل الهرم

قالوا: أمرٌ وأدهى، قلت : ويحكمو

إذن لقد مات سعدٌ وانطوى العلم

إنما كانوا يذهبون مذهب دريد بن الصمة في رثاء أخيه .

فـــإن يك عبد الله خلّى مكانه

فما كان وقّافـاً ولا طائش اليد

وهم لم يذهبوا في الوجد وشكواه مذهب المتنبي في قوله :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجـــل

لولا مخـــاطبتي إياك لم ترني

وليس معنى هذا أن الشعر الجاهلي قد خلا كله من هذه المبالغات المفرقة، وإنما هي سمة عامة تشيع فيه ، وتظهر في معظمه . فنحن لا ننسى قـــول عنترة :

وأنا المنيـــة في المواطن كلهـــا

والطعن مني سابق الآجـــال

ويصف امرؤ القيس محبوبته بالنعومة والبضاضة ، حتى إن النمل الصغير لو مشى فوق ثوبها لأثر في جسمها :

من القاصرات الطرف لو دبَّ مُحْوِلٌ
من الذرِّ فوق الإتْبِ منها لأثّرا [1]

وقد ذهب النابغة الى أن سيوفه تقطع الدرع المضاعف والفارس والفرس، ثم تذهب في الحجارة فتقدح فيها الشرر :

تَقُــدُّ السَّلوقيَّ المضاعفَ نسجُه
وتُوقِدُ في الصُّفَّاحِ نَارَ الحُباحِبِ [2]

ولكن هذه المبالغات قليلة بوجه عام في الشعر الجاهلي ، لبساطة حياتهم كما قلنا :

(٣)

ونلاحظ في المعاني الجاهلية ضعف التماسك ، ووهن الارتباط ، وقلة العناية بسياق الفكر ، فمساق الأبيات مفكك ، وعلائق المعاني واهية ، فإذا حذفت أو قدمت أو أخرت لم تشوه القصيدة ، ولم يختل المعنى ، ولم يضع الغرض. فأنت تستطيع أن تحذف أو تقدم بيتاً على بيت في قول امرىء القيس مثلا في فرسه :

---

(١) المحول : ما ولد في الحول . الذر صغار النمل . الاتب : برد يشق فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين ودرع المرأة وما قصر من الثياب ، وإتب الشعير قشره .

(٢) السلوقي درع منسوب الى بلد سلوقية . الصفاح : الحجارة العراض . نار الحباحب : شعاع يضيء بالليل من ذباب يسمى الحباحب .

كأن سراته لدى البيت قائماً
مداك عروس أو صلاية حنظل
كأن دماء الهاديات بنحره
عصارة حناء بشيب مُرَجَّل

او في وصف البرق والمطر :

كأن ثَبيراً في عرانين وَبْله
كبير أناس في بجاد مزمَّل
كأن ذرا رأس المجيمر غدوة
من السيل والغُثّاء فلكة مغزل
كأن مَكاكيّ الجواء غُديَّةً
صُبِحْنَ سلافا من رحيق مفلفل

وهم يكثرون من الاستطراد في قصائدهم ، والانتقال من معنى الى آخر دون تمهيد أو مناسبة ؛ إلا مثل قولهم (فدع ذا وسل الهم عنك بجسرة) او (فعد عما ترى) ونحو ذلك . وذلك كله راجع الى بداوتهم ، وكثرة ارتحالهم الذي يجعل القصيدة من شعرهم كالصحراء ينتقلون فيها دائماً من غرض الى غرض .

وعدم معرفتهم بالترتيب المنطقي او النظر الفلسفي جعلهم لا يرون الأشياء إلا مجردة لا تجمعها علاقة ، ولا ينظمها سلك .

فليست هناك إذن وحدة فنية في القصيدة الجاهلية ، ولا وحدة في الغرض ، لأن كل قصيدة تشتمل على عدة أغراض ؛ كالنسيب ووصف الناقة او الفرس او حمر الوحش او المطر ، او المدح او الهجاء الى غير ذلك ، على نحو ما ترى في المعلقات . ولهذا كانت وحدة النقد في الشعر الجاهلي البيت لا القصيدة .

وربما كانت هناك بعض القصائد التي تتمثل فيها وحدة ارتباط المعاني ، او حدة الغرض ، كما قدمنا في قصائد الشعراء العدائين . وقد تظهر هذه الوحدة أحياناً في مثل شعر امرىء القيس في القصص الغزلي والدبيب ، كما في قصيدته التي يقول فيها :

سموت إليهـا بعد ما نام أهلها

سمو حباب الماء حالاً على حال .. الخ

فإنها قصة مرتبة المعاني ، مرتبطة الأبيات ، متساوقة الأفكار :

على أنه يمكن القول بأن القصيدة الجاهلية تربطها وحدة عامة ومنهج محدود من افتتاحها بالغزل ثم وصف مناظر الصحراء التي يشاهدها الشاعر في طريقته ثم الإلمام بالغرض المقصود ، وإن أنفته دعته الى تمويه هذا الغرض الأساسي بهذه العواطف وتلك الصور :

(٤)

والشعر الجاهلي حافل بألوان الخيال ، يحلق في آفاق البادية بروائع تشبيهاته وبدائع استعاراته ، وطرائف كناياته ، ومأثور حكمه الخالدة ، وأمثاله السائرة .

ولكنه خيـال محدود بحدود البيئة ، وهي ليست متعددة المناظر ؛ ولا متنوعة المظاهر ، ولا كثيرة المشاهد ، حتى توحي الى أبنائهـا بالكثير من طرائف الخيـال ، ومختلف المعـاني ، كما توحي مظـاهر الحضـارة وألوانهـا المتعددة .

ولكنهـا بيئة محدودة المنـاظر ، متشابهة المشاهـد . ومن ثم كان تحليق الخيال فيها بقدر وقريباً من أرض الحقيقة ، فلا يسرف ولا يوغل ، وإنما يستمد تشبيهاته واستعاراته وكناياته من مناظر البادية وعاداتها ومألوفها ، وما يجري في سمائها من أفلاك ، وما يطرد في صحرائها من نبات وحيوان .

وهي على ذلك جميلة كل الجمال ، رائعة كل الروعة ، تشوق وتروق .

أنظر الى الكناية الجميلة المستمدة من البيئة وعاداتها، في قول امرىء القيس يكني عن رفاهية محبوبته وعزها :

وتُضحي فتيتُ المسك فوق فراشها

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

أو قول الأعشى في مدح المحلق :

تشب لمقرورين يصطليانهـا

وبات على النـار الندى والمحلق

وأنظر كيف يستمد امرؤ القيس تشبيهاته من بيئته فيذكر أن السباع وهي غرقى في السيل تشبه أصول البصل البري :

كأن السباع فيه غَرقى عشية
بأرجائه القصوى أنابيشُ عُنْصُل

وكيف يشبه الشحم بأطراف الحرير المفتل في قوله :

فظل العذارى يرتمين بلحمها
وشحم كهدّاب الدمقس المفتّل

وهذا طرفة يشبه صوت مغنية بصوت النوق المتجاوب على فصيل هالك، وياله من تشبيه :

إذا رجّعَتْ في صوتها خلت صوتها
تجاوب أظآر على رُبَعٍ رَدِي

ومن قبله كان المهلهل يتحدث عن طول الليل ، فيشبه النجم في بطئه بالفصال الصغيرة التي تجول في المطر ، فتخشى الزلق فلا تسرع :

كأن النجم إذ ولّى سُحَيْرًا
فصالٌ جُلْن في يوم مطير

والكواكب عنده لا تبرح مكانها كأنها نوق عوذ (حديثات النتاج) عطفت على ربع (ولدت في الربيع) فهي لا تتركه :

كأن كواكب الجوزاء عُوذٌ
مُعطَّفةٌ على رُبَعٍ كسير

وهل تقع مثل هذه التشبيهات إلا في خيال البدوي الذي يمثل البـادية في بساطتها وسذاجتها ، تلك السذاجة التي تظهر في مثل قول الأعشى في محبوبته :

عهدي بهـــا في الحيّ قد سُربلت

هيفـــاء مثل المهرة الضامر

على أننا قد طربنا من قبل للاستعارة الجميلة والخيال الفذ العجيب في قول تأبط شراً :

أقول للحيـــان وقد صفرت لهم

وِطابي ويومي ضيّق الجحر مُعْوِرُ

وقوله في النجاة من الموت :

فخالط سهل الأرض لم يكدح الصَّفَا

به كدحةً والموت خزيان ينظر

(٥)

وينبغي أن نلاحظ أخيراً أن تشابه هـــذه البيئة البدوية في صخورها ورمالها ، ووهادها وجبالهـا ، ومناظرها المحدودة ، ومشاهدها المحصورة ، وتشابه حياة أهلهـا ، وتقارب معايشهم ، كل ذلك قد جعل الشعر الجـاهلي متشابهاً في كثير من تعابيره وألفاظه ، ومعانيه وأخيلته . يقول امرؤ القيس:

وُقوفا بها صحبي عليّ مطيّهم

يقولون لا تهلك أسًى وتجمَّلِ

ويقول طرفه :

وقوفاً بهـــا صحبي عليّ مطيَّهم

يقولون لا تهلك أسًى وتجلَّد

ويقول امرؤ القيس :

فدعهـــا وسل الهم عنك بجسرة

ذمول إذا صام النهار وهجَّرا

ويقول علقمة :

فدعها وسل الهم عنك بجسرة

كهمك فيها بالرداف خبيب

وقد عرضنا لقصيدتيهما في وصف الفرس أمـام أم جندب فرأينـا كيف تشابهتا في كثير من الألفاظ والأبيات ، والخيال .

ومن قبل ذلك عرضنا بعض القصائد في وصف الناقـــة لطرفة والنابغة وعلقمة ، فرأينا شغفهم جميعاً كغيرهم من وصاف النوق ، بتشبيهها بالحمـــار الوحشي عند مطـاردته وتعقب الصائد له . وهو تشبيه يقع كثيراً في ذهن الشاعر الجاهلي .

وقصة القوس عند الشماخ وأوس منذ كانت غصنا على جبل الى أن ثقفت وبيعت، واحدة في قصيدتيهما المتقدمتين ، واحدة في الخيال والأساوب وكثير من الألفاظ كما رأيت :

يقول أوس :

أمرَ عليها ذاتَ حدٍّ غرابهـــا
رقيقٌ بأخذٍ بالمداوسِ صَيْقَلا

ويقول الشماخ :

فأنحى عليها ذات حَدٍّ غُرابهـــا
عدوٌّ لأوساط العِضَاهِ مُشَاوِزِ

ويقول أوس :

إذا مـــا تعاطوها سمعت لصوتها
إذا أنبضوا عنها نَئيماً وأزْمَلا

ويقول الشماخ :

إذا أنبض الرامون فيها ترنّمتْ
ترنُّم ثكلى أوجعتها الجنائز

ويقول الشنفرى :

إذا زلَّ عنها السهم حنّتْ كأنها
مُرَزَّأةٌ ثكلى تُرنُّ وتُعْــول

وهكذا نجد هــذه السمة تشيع في شعر الجاهليين ، فتتقارب أفكارهم ، وتتشابه أخيلتهم ، وتتماثل ألفاظهم وأساليبهم الى حد كبير ، لما ذكرنا من تشابه بيئتهم وحياتهم والمناظر المحدوده التي تقع عليها عيونهم .

الفصل التاسع

وحدة القصيدة في الشعر الجاهلي

ما معنى وحدة القصيدة ؟

١ ــ نقرأ معلقة امرىء القيس : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » ، وكثيراً من القصائد الجاهلية ، بل والاسلامية والمحدثة ، فنجد ألواناً شتى من الأغراض ، وتبايناً في الشاعرية حيال كل غرض ، واختلافاً واضحـــاً في كل قصيدة في الشعور والعاطفة والخيال .

٢ ــ ثم نقرأ قصيدة المرقش في الغزل ، وقد سبقت ، وكذلك قصيدة أبي تمـــام في فتح عمورية ، او قصيدة ابن الرومي في رثاء ولديه ، او مرثية أبي العلاء :

غير مجد في ملتي واعتقـــادي
نوح بـــاك ولا ترنم شـــاد

او نونية ابن زيدون ، او تائية ابن الفارض الكبرى :

سقتني حميا الحب راحة مقلتي

وكأسي محيا من عن الحسن جلت

او قصيدة شوقي « الحرية الحمراء » :

في مهرجان الحق أو يوم الدم

مهج من الشـــهداء لم تتكلم

نقرأ هذه القصائد او ما شابهها ، فماذا نجد ؟ .

نجد وحدة في الغرض ، واتفاقاً في الشاعرية ، والتئاماً في العاطفة والخيال والفكرة . وتبدو القصيدة وكأنها عمل فني كامل ، لا نقص فيه ولا تشوبه ، ولا غموض او التواء .. ونقف أمام الجمال الأخاذ ، يضيء ويسحر : كما يضيء الفجر ، ويسحر البدر ، ويروع ويعبق روعة السحر ، وعبق الزهر .

هكذا نشعر من اعماق قلوبنا وأذواقنا بالوحدة فيالقصيدة والجمال في الفن.

٣ – فلسنا نريد بوحدة القصيدة أن تكون تعبيراً عن فكرة واحدة ، قد أتى بها لغرض واحد فحسب . إنما نريد مع ذلك كله تلك الوحدة الفنية التي يجب أن تسود القصيدة كلها ، بما تشتمل عليه من شاعرية وخيال ، وعاطفة وأسلوب حتى تشعر بروح الشاعر في قصيدته ، وترى ذكاءه وبراعتــه في التوفيق بين الصور والأشكال ، والظلال والألوان ، وحذقه في إيقاظ الحياة ، والروعة في الفاظه وأساليبه ، وأفكاره ومعانيه ، وعواطفه وخيالاته ، حتى لتنطق الصورة ، وتتحرك الحيـــاة فيها ، وتمشي الوحدة في اجزائها ،

ويسودها الانسجام والنظام والالتئام ، كما تجد في وصف البحتري لإيوان كسرى وفي مرثيته للمتوكل ، وفي وصف شوقي لقصر « أنس الوجود » ، وفي آثار اخرى في شعر كثير من الشعراء في القديم والحديث ... وقد أشاد الأدباء المعاصرون بابن الرومي وشعره ، لهذه الوحدة الفنيــة النادرة في قصائده وألفاظه .

إننا نمزج في وحدة القصيدة بين الوحدة الفنية ووحدة الفكر ، ووحدة الموضوع ، او الغرض كما يقال . ونرى ذلك كله لازماً لاستيفاء القصيدة حظها من الانسجام والجمال ... والذين يتحدثون عن وحدتها ، إنما ينظرون الى أظهر عناصر الموضوع فحسب. وإن كان اتحاد الشاعرية أدق ما في وحدة القصيدة من عناصر وحقائق .

وحول الوحدة الفنية للقصيدة يقول صاحب كتاب « ثورة الأدب » : ليس القصد من الشعر في رأينا هو محاكاة الأقدمين ، إنما القصد من الشعر إبراز فكرة او صورة او إحساس ، او عاطفة يفيض بها القلب ، في صيغة متسقة من اللفظ ، تخاطب النفس ، وتصل الى أعماقها ، من غير حاجة الى كلفة او مشقة »[1] .

وحول هذا المعنى الذي أردناه من وحدة القصيــدة يدور الحاتمي الأديب الناقد المتوفى سنة ٣٨٤ هـ . إذ يقول[2] : « مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض اعضائه ببعض . فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وباينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة . تتخون محاسنه . وتعفى معالمه » .. ويصف عمل الشعراء المجيدين ، من متقدمين ومحدثين في هذه الناحية، فيقول : «وقد

---

(١) ثورة الأدب للدكتور هيكل ص ٦٠ .

(٢) زهر الآداب جـ ٣ ص ١٦ - نشر زكي مبارك .

وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال . وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمديحها ، كالرسالة البليغة ، والخطبة الموجزة ، لا ينفصل جزء منها عن جزء . . وهذا مذهب اختص به المحدثون ، لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم واعتمادهم البديع وأفانينه في أشعارهم، وهو مذهب سهلوا حزنه ، ونهجوا دارسه » .

والحاتمي في شرحه هنا لوحدة القصيدة ممتع مجهد : ولكنه يرى أن اتصال الغزل بالمديح في القصيدة لا يمنع وحدتها ، ما دام هذا الاتصال قوياً شديداً . فكأنه لا يرى تعدد الأغراض في القصيدة مانعاً من وحدتها . . وهذا ما نخالفه فيه . ولا نقره عليه .

نظام القصيدة في الشعر الجاهلي والاسلامي :

نرى أشهر القصائد الجاهلية قد بدئت بالنسيب العذب الجميل ، ثم يتصل فيها النسيب بذكر الناقة ووصفها وجوب الفلوات عليها . وقد يلم الشاعر بوصف ما يشاهد في الصحراء من أسراب الوحوش والظباء ، ثم يتخلص الى غرضه المقصود ، من مدح او هجاء ، او فخر ، او عتاب ، او اعتذار ، او حكمة .

يظهر ذلك النهج في المعلقات ، وفيما سواها من كبريات القصائد وعيونها ، في هذا العصر البعيد . . ولا نجد شاعراً يشذ عن ذلك إلا عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته المشهورة : « ألا هبي بصحنك فاصبحينا » ، فقد بدأها بوصف الراح، ثم وصل ذلك بغزله وفخره ، ووصف وقائع قومه، وذكريات مجدهم القديم الحافل . . وهناك قصائد ثلاث من الشعر الجاهلي ، تمتاز بخلوها من تعدد الأغراض :

أولاها : قصيدة المرقش الأكبر :

سَرَى ليلاً خيـــالٌ من سُليمى
فأرَّقني وأصحـــابي هُجــودُ

فهي وقف على الحب والغزل ووصف الجمال .

والثانية : قصيدة لامية لطرفة العبدي ، مطلعها :

أتعرف رسم الدار قفراً منازله
كجفن اليماني زخرف الوشي ماثله

فهي كذلك وقف على الغزل .

والثالثة : قصيدة تأبط شراً الشاعر الجاهلي المشهور :

إن بالشِّعب الذي دون سَلْعٍ
لقَتيــلاً دَمُــه ما يُطَلُّ[1]

وهي في الرثاء ، وقد ترجمها « جوته » الى الألمانية ، ونشرها في الديوان الشرقي ، ونقلت الى الفرنسية والإنجليزية والإيطـالية ، ويسميها بعض المستشرقين « نشيد الانتقام » ، وهي نمط جميل مهذب لوحدة القصيدة في الشعر الجاهلي ، وشتان بينها وبين قصائد الرثاء في هـذا العصر السحيق ،

(١) الشعب : طريق في الجبل . سلع : موضع وهو أرض قوم الشاعر . طل دمه : ذهب هدراً لا يثأر به .

وحسبكم أن شاعراً أراد أن يرثي أخاه فبدأ قصيدته بالنسيب ، ثم خلص الى الرثاء ، وهو دريد بن الصمة الشاعر في قصيدته الدالية :

أرث جديد الحبل من أم معبد
بعاقبة أم أخلفت كل موعد

هذا هو نظام القصيدة في العصر الجاهلي : تتعدد في الأغراض والفكرة ، وانتقال من لون من ألوان الشعور الى لون آخر. وقد يفاجىء الشاعر سامعيه مفاجأة ، فيتخلص من غنائه الى التنويه بممدوحه فجأة ، كما صنع زهير في رائيته في مدح هرم بن سنان ، فقال بعد أن ذكر الديار :

دَع ذا وعدِّ القـول في هَرَمٍ
خيرِ البُداةِ وسَيِّدِ الْحَضْرِ[1]

وقد يتخلص الشاعر في رفق وجمال الى غرضه ، كما فعل النابغة في قصيدته العينية التى يعتذر بها الى النعمان بن المنذر ، حيث ذكر عبراته ودموعه ومشيبه ، ثم خلص الى الاعتذار فقال :

ولكنّ هَمًّا دون ذلك شاغل
مكان الشغاف تبتغيه الأصابع
وعيد أبي قابوس في غير كنهه
أتاني ودوني راكِسٌ فالضواجع

(١) جمع حاضر كراكب وركب .

ثم وصف حاله عندما سمع وعيد النعمان ، فقال :

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلة
من الرُّقْش في أنيابها السُّم ناقع
يُسَهَّدُ في ليل التمام سليمُها
لِحَلْي النساء في يديه قعاقع

ثم خلص الى الاعتذار ، وهو الفن الذي نبغ فيه وشهر به فقال :

أتاني _ أبيت اللعن _ أنك لمتني
وتلك التي تستك منها المسامع

وهذا من لطف التخلص ، « ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعاني ، وفتحوا أبواب البديع ، واجتنوا ثمرة الأدب ، وفتحوا زهر الكلام ، لكان معجزاً عجباً ، فكيف بجاهل بدوي ، إنما يغترف من قليب قلبه ، ويستمد عفو هاجسه[1] » .. يقول الحاتمي الناقد القديم: وهذا اللطف في التخلص لا نعنى به لأنه يمنح القصيدة الوحدة الشعرية، ولكننا نتحدث عنه كلون من ألوان فطنة العرب في المعاني والأداء ، ولأنه كان تمهيداً لهذه الوحدة التي هي موضوع بحثنا . ويقول ابن رشيق في العمدة: وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب _ اي حسن التخلص _ في الخروج الى المدح ، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل، وذكر القفار وما هم بسبيله : « دع ذا وعد عن ذا » ، ويأخذون فيما يريدون ، او يأتون بأن المشددة ؛

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٧ .

ابتداء للكلام الذي يقصدونه . . ولربما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة : الى فلان قصدت ، وحتى نزلت بفناء فلان ، وما شاكل ذلك . فإذا لم يكن خروج الشاعر الى المدح متصلاً بما قبله ، ولا منفصلاً بقوله : « دع ذا وعد عن ذا ونحو ذلك » ، سمي طفرة وانقطاعاً[1] .

هذا هو نهج القصيدة عند الجاهليين ، ويقول الحـــاتمي فى ذلك : فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين فمذهبهم أن يقولوا : «عد عن كذا الى كذا»، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته بالعتق والنجابة والنجاء وأنه امتطاها فادرع عليهـا جلباب الليل ، وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به الى غرض لم يتعمده، إلا أن طبعه السليم وصراطه المستقيم، قد نضى بتاره ، وأوقد باليفاع ناره[2] .

وقد تعصب كثير من النقاد وعلماء الأدب، لهذا النهج الجاهلي الذي لا يمت الى وحدة القصيدة بسبب ، ودافعوا عنـه دفاعاً حاراً « يقول ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ[3] : وسمعت بعض اهل العلم يقول : إن مقصد القصائد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار ، والدمن والآثار فشكا وبكى ، وخاطب الربع واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر اهلها الظاعنين عنها ، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتجاعهم الكلأ ، وانتقالهم من ماء الى ماء ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان . ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ، لما قـد جعل الله في

---

(١) العمدة جـ ١ ص ١٥٩ .

(٢) زهر الآداب جـ ٣ ص ١٦ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ط ١٩٣٢ ص ١٤ و ١٥ .

تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد يخلو احد من أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم . فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه ؛ والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره . وشكا التعب والسهر ، وسرى الليل ، وإنضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء ، وزمام التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في السير بدأ المديح ، فبعثه على المكافآت ، وهزه على السماح ... فالشاعر المجيد من سلك هذه الاساليب ، وعدل بين هذه الاقسام » .

وابن قتيبة هنا لا يبرر هـذا النهج لا لأنه هو الحق في ميزان الأدب والنقد ولا لأنه هو الصورة المثلى للقصيدة الجاهلية ولا لأنه سبب من أسباب الروعة والجمال في الشعر والقصيد ، ولكن إنما يبرره لأنه نهج الجاهليين فحسب .

وهكذا يفهم كثير من النقـاد القدامى النهج الفني للقصيدة ، ووحدة القصيدة في الشعر العربي .

أسباب ذيوع هذا المنهج في القصيدة في الشعر العربي :

يعلل ذلك احمد امين بأن العربي لا ينظر الى العـالم نظرة عامة شاملة ، وإذا نظر الى الشيء الواحد لا يستغرقه بفكره ، بل يقف فيه على مواطن خاصة تستثير عجبه . ويرى أن هذه الخاصة في العقل العربي هي السر الذي يكشف لك ما ترى في أدب العرب من نقص وما ترى فيه من جمال ؛ فأما النقص فما تشعر به حين تقرأ قطعة أدبية نظماً او نثراً من ضعف المنطق وعدم تسلسل الأفكار تسلسلا دقيقاً ، وقلة ارتباط بعضهـا ببعض ارتباطاً وثيقاً ، حتى لو عمدت الى القصيدة ، وخاصة في الشعر الجاهلي ، فحذفت منها جملة أبيات ، او قدمت متأخراً ، او أخرت متقدماً ، لم يلحظ القارىء او السامع ذلك وإن كان أديباً ما لم يكن قد قرأها من قبل . ويقول: وهذا

النقص تلمحه فيما يكتب في الموضوعات الأدبية ، فأنت إذا قارنت بين ما يكتبه الجاحظ او ابن عبد ربه او ابو هلال في الخطابة او الوصف ، وما يكتبه ارسطو في ذلك، رأيت الطبيعتين مختلفتين[1]. وفي أكثر ما يقول هذا الباحث جور في الحكم ، وما ذكره من نقص في أدبنا العربي فمنشؤه أن العرب لم تكن من قبل أمة ذات حضارة وعلم وثقافة، إنما أخذت تنشيء تلك الحضارة والثقافة على مر الأيام .

ويقول الزيات في ضعف وحدة القصيدة في الشعر الجاهلي وفي تعليل ذلك، ما نصه: يمتاز الشعر الجاهلي بقلة العناية بسياق الفكر على سنن المنطق، واقتضاء الطبع ، فعلائق المعاني ضعيفة واهية ، ومساق الأبيات مفكك مضطرب ، فإذا حذفت او قدمت او أخرت ، لا تشعر القصيدة بتشويه او نقص ، وذلك لأن البدو بطبيعتهم ينقصهم النظر الفلسفي فلا يرون الحوادث والأشياء إلا مجردة ، لا ينظمها سلك ، ولا تجمعها علاقة ، ومن ثم كانت وحدة النقد عند أدباء العرب البيت لا القصيدة[2] .

ويقول بعض أدبائنا المعاصرين في وصف هذه الظاهرة وتعليلها[3] : « من النادر أن تجد قصيدة عربية تتناول موضوعاً واحداً من أولها الى آخرها ، لا تخرج عنه الى موضوع سواه . ولا شك أن بناء القصيدة العربية نفسه يساعد على تعدد الموضوعات ، لأن كل بيت وحدة قائمة بذاتها ، وكثيراً ما يكون كل بيت مستقلا عما قبله وما بعده، ومن المكروه في الشعر العربي أن يكون في بيت كلمة مرتبطة ارتباطاً نحوياً بكلمة اخرى في بيت سابق او لاحق. وليس معنى هذا أن يكون كل بيت يتناول موضوعاً جديداً

---

(١) فجر الاسلام لأحمد أمين ج ١ ص ٥١ و٥٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربى للزيات ص ٣١ .

(٣) التوجيه الأدبي طبع ١٩٤٠ ص ٢١١ و ٢١٢ .

بل معنى هـذا أن الشاعر الذي يريد الانتقال او التخلص من موضوع الى موضوع ، يرى طبيعة الشعر العربي تساعده على هذا كثيراً . أضف الى ذلك أن التزام موضوع واحد لا يتناسب تماماً مع التزام القافية ، فإن تغيير الموضوع يجعل من السهل إيجاد قواف جـديدة تناسب الموضوع الجديد .

أما إذا التزم الشاعر موضوعاً واحداً فإنه لا يلبث أن يستنفد القوافي إلى نحو عشرين بيتاً أو ثلاثين . فتنويع الموضوع إذا يتناسب مع التزام القافية » .

ويجعل الشاعر معروف الرصافي ضعف وحدة القصيدة في الشعر العربي أثراً لعجز الشعراء عن الابتكار وغلبة التقليد عليهم . فيقول : « اتبع أكثر المحدثين خطة واحدة في الغزل والمدح ... ولا شك أن النابغين من الشعراء يخالفون هذه الخطة ويتوسعون فيها .. ولكن الصورة لا عيب فيها من حيث هي بالذات ، بل العيب في اتباع خطة واحدة والتقيد بها ، كأن مخيلة الشاعر عاجزة عن ابتـكار المعـاني والتوسع في وصف الصور العقلية[1] » .

ويبدو أن ذلك يرجع في الجملة إلى ما يأتي : ـ

١ ـ ليس ما في الشعر الجاهلي الذي قلده شعراء العربية في جميع العصور من تفكك واضطراب ـ إلا أثراً لتعـدد مناظر الصحراء وألوان الحياة والشعور فيها ، وعدم خضوع الشاعر للمنطق أو ميله إلى حبس فـكره في ناحية واحدة .

٢ ـ أنفة الشاعر الجاهلي دعته إلى أن يموه المدح بكثير من صور عواطفه ومناظر بيئته ، حتى لا يظهر خضوع نفسه لمطالب الحياة وضرورات العيش .

---

(١) سحر الشعر لرفائيل بطي ص ١١٩ و ١٢٠ .

٣ ـ تقليد الشعراء لمنهج الجاهليين في القصيدة تقليداً شديداً .

٤ ـ قيود الوزن والقافية في القصيدة ، وطبيعة الشعر العربي نفسه ، وذيوع اللون الغنائي فيه دون القصصي أو التمثيلي .. إلى غير ذلك من البواعث والأسباب السالفة .

الفصل العاشر

أشهر الشعراء وطبقاتهم في الجاهلية

(١)

الطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين في الزمان ، وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة ، وإن لم يتحدوا في المنزع أو يدخلوا في مناقضة ، أو يتزاحموا على باب ملك[١] ومعنى الطبقة أنهم نظراء[٢] ، وأنهم قريبون من بعض في منزلتهم الأدبية العامة، وإن اختلفو في اتجاهاتهم الفنية وإنتاجهم الشعري .

والشعراء بوجه عام أربع طبقات: جاهليون، ومخضرمون ، وإسلاميون ، ومولدون ، وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم

(١) ٤٠١ الادب العباسي لمحمود مصطفى .
(٢) ٩٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب .

شعراء بني العباس [1] ، ويضاف إليهم آخرون : المحدثون ، ثم المتأخرون والعصريون[2] .

والمخضرمون هم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وقالو فيه الشعر كالجعدي والحطيئة وحسان . . أما لبيد فجاهلي لأنه حرم الشعر على نفسه بعد إسلامه ولم يقل إلا بيتاً أو بيتين [3] فيه .

أما الإسلاميون فهم الذين نشأوا في الإسلام إلى آخر عهد الدولة الأموية ، والمحدثون بعد ذلك وهم العباسيون ، وقال ابن رشيق : طبقات الشعراء أربع : جاهلي ومخضرم واسلامي ومحدث ثم صار المحدثون طبقات اولى وثانية على التدريج إلى وقتنا [4] .

(٢)

ويقسم ابن سلام في كتابه « طبقات الشعراء » شعراء الجاهلية إلى عشرة طبقات :

الطبقة الأولى : امرؤ القيس بن حجر ، والنابغة الذبياني زياد بن معاوية ، وزهير بن أبي سلمى المزني ، وأبو بصير الأعشى ميمون بن قيس .

الطبقة الثانية : كعب بن زهير ، والحطيئة ، وأوس بن حجر .

والطبقة الثالثة : النابغة الجعدي قيس بن عبد الله ، وأبو ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد ، والشماخ بن ضرار ، ولبيد بن ربيعة .

---

(١) ٤٥ تاريخ الأدب العربي للزيات و ٢١٠ الريحانة للشهاب الخفاجي .
(٢) ٣١٠ و ٣١١ الريحانة للشهاب الخفاجي .
(٣) راجع ٤٩ طبقات الشعراء لابن سلام .
(٤) العمدة و ٣٠٤ ج ٢ المزهر .

والطبقة الرابعة : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة، وعدى بن زيد .

والطبقة الخامسة : خداش بن زهير ، والأسود بن يعفر ، وتميم بن أبي مقبل .

والطبقة السادسة : عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة بن شداد العبسي .

والطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، والحصين بن الحمام المرى ، والمتلمس جرير بن عبد المسيح ، والمسيب بن علس .

والطبقة الثامنة : عمرو بن قميئة ، والنمر بن تولب ، وعوف بن عطية وسحيم عبد بني الحسحاس .

والطبقة العاشرة : أمية بن الأسكر ، وحريث بن محفض ، والكميت ابن معروف الأسدي ، وعمرو بن شاس .

(٣)

ويضيف ابن سلام إلى هذه الطبقات العشر طبقات أخرى هي :

١ – شعراء المراثي : وهم متمم بن نويرة ، والخنساء بنت الشريد وأعشى باهلة بن الحارث ، وكعب بن سعد الغنوى .

٢ – شعراء القرى العربية : فالمدينة شعراؤها حسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك، وعبد الله بن رواحة، وقيس بن الخطيم، وأبو قيس بن الأسلت. ويهودها الشعراء : السموأل بن عادياء ؛ والربيع بن أبي الحقيق ، وكعب ابن الأشرف ، وشريح بن عمران ، وأبو قيس بن رفاعة ، ودرهم بن زيد.

وأما مكة فشعراؤها : عبيد الله بن حزافة ، وهبيرة بن أبي وهب ، وابن الزبعرى ، وابو طالب بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث ، ومسافر بن أبي عمرو ، وضرار بن الخطاب ، وأبو عزة الجمحي عمر بن عبد الله .

وأما الطائف فشعراؤها : أبو الصلت بن أبي ربيعة ، وأمية بن أبي الصلت ، وغيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل .

وشعراء البحرين : المثقب عائذ بن محصن ، والمزق العبدي والمفضل ابن معشر .

ونلاحظ أنه يضع الشعراء المخضرمين مع الجاهليين ، لأنهم أدركوا جانباً من الجاهلية .

(٤)

وقال أبو عبيدة : أشعر الناس أهل الوبر خاصة وهم :

١ — امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة — وهم الطبقة الأولى عنده .

٢ — والطبقة الثانية هم الأعشى ، ولبيد ، وطرفة .

٣ — والطبقة الثالثة هم : كعب بن زهير ، والحطيئة ، وخداش بن زهير ، ودريد بن الصمة ، وعنترة ، وعروة بن الورد ، والنمر بن تولب ، والشماخ بن ضرار ، وعمرو بن أحمر ، والمرقش الأصغر عمرو بن حرملة .

وأيده صاحب الجمهرة أبو زيد بن الخطاب القرشي في ذلك[١] .

---

(١) ٤٥ الجمهرة .

الفصل الحادي عشر

المُعَلَّقاتُ وَمَنْزِلتُها مِنَ الشِعْرِ الجاهِلي

(١)

كان فيما أثر من أشعار العرب ، ونقل إلينا من تراثهم الحافل ، بضع قصائد من أجود الشعر وأدقه معنى ، وأوسعه خيالاً ، وأبرعه أسلوباً وأسمحه لفظاً ، وأعمقه معنى ، وأمده قافية ، وأصدقه تصويراً للحياة التي كان يحياها العرب في جاهليتهم . وقد سميت هذه القصائد بالمعلقات .

وهذه القصائد هي على المشهور المتداول :

١ ـ قصيدة امرىء القيس وأولها :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

٢ ـ قصيدة زهير بن أبي سلمى وأولها :

أمِنْ أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّم

بَحَوْمانَةِ الدّراج فالمتثلَّم

٣ ـ قصيدة طرفة بن العبد ومطلعها :

لخولَةَ أطلالٌ ببرقَة ثَهْمد

تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

٤ ـ طويلة عنترة وأولها :

هل غادر الشعراء من متردّم

أم هل عرفت الدار بعد توهم

٥ ـ قصيدة عمرو بن كلثوم ومطلعها :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

ولا تبقي خمور الأندرينا

٦ ـ قصيدة لبيد وأولها :

عفت الديار محلها فمقامها

بمنى تأبد غولها فرجامها

٧ ـ طويلة الحارث بن حلزة ومطلعها :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِها أسماء
رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ منه الثَّوَاءُ

هؤلاء الشعراء كلهم جاهليون ماعدا لبيداً فإنه من المخضرمين ، وبعض الأدباء يجعله جاهلياً وبعضهم يسقط من هؤلاء عنترة والحارث ، ويثبت الأعشى وقصيدته :

ما بكاء الديار بالأطلال
وسؤالي وما ترد سؤالي

والنابغة في قصيدته :

عوجوا فحيوا لنُعْمٍ دِمنة الدار
ماذا تحيون من نؤى وأحجار ؟

ويجعل بعضهم منها طويلة الأعشى . وهي مدحته للنبي ﷺ :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا
وبتَّ كما باتَ السليم مسهدا

وطويلة النابغة :

يا دار مية بالعليا فالسند
أقوت وطال عليها سالف الأمد

وبعضهم يجعل منها قصيدة عبيد :

أقفر من أهله ملحوب   فالقُطَّبِيَّـاتُ فالذَّنوب

وبعض الرواة يرى أن المعلقات ثمان ويجعلها بعضهم عشراً ويعد منها قصيدة الأعشى « ودع هريرة » :

على أن المختار أنها سبع ، ولعل منشأ الزيادة أن بعض الرواة كان يرى فيما يضيفه من القصائد ملامح التقديم وسمات الترجيح على بعض ما اعتبر فيضيفها من نفسه . وليس أدل على ذلك من اختيار قصيدة (ألم تغتمض عيناك) وادعاء أنها من المعلقات وهي إسلامية أنشدت للنبي ﷺ . وهي مما لا ينطبق عليها خبر التعليق بحال فلم يعرف أنها علقت على الكعبة ، أو قال ملك : علقوا لنا هذه .

(٢)

لم سميت هذه القصائد معلقات ؟

يرى بعض المتقدمين من أدباء العرب أن هذه القصائد التي جمعها حماد الراوية سميت المعلقات لأنها علقت على الكعبة تعظيماً لأمرها وتنبيهاً على خطرها ، ودلالة على مكانها من الفضل ، ومنزلتها من الرفعة ، وجلالة الشأن ونفاسة القيمة .

ومن هؤلاء أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد فإنه قال : « الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها والشاهد على حكامها ،

حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة فمنه يقال : مذهبة امرىء القيس ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع وقد يقال لها المعلقات (١) » .

ومن قوله هذا ترى أن الإسم الأجدر بها عنده هو المذهبات لأنها تكتب بماء الذهب في القباطى ، وأن تسميتها انتزعت من تعليقها على الكعبة .. وابن رشيق في كتابه العمدة يحتج بتعليقها على الكعبة وإن كان يحكى الرأي الآخر القائل إنها لم تعلق على الكعبة .

يقول ابن رشيق : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء ، وقيل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر قال : علقوا لنا هذه لتكون في خزانته (٢) » .

ويقول ابن خلدون « إن العرب كانوا يعلقون أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس والنابغة وزهير وعنترة وطرفة وعلقمة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع . فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بها من له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات (٣) » .

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١١٦ .

(٢) العمدة ج ١ ص ١٦١ .

(٣) المقدمة ص ٥١١ .

فابن خلدون يرى أنها سميت كذلك لتعليقها بأركان البيت الحرام وإن كان يبدو من عبارته أن الذي علق أكثر من هذه السبع ، ولعله يرى أن هذه السبع أنفس وأروع ما علق . بيد أنا نختلف مع ابن خلدون في أن الذي يتوصل إلى التعليق من له قدرة على ذلك بقوته وعصبيته ومكانه في مضر ، فإن الذي يبدو فيها أثر من الشعر الذي علق أنه يعتمد لذلك على قوته الذاتية ومكانته الأدبية لا على حمية وعصبية .

ويرى البغدادي صاحب خزانة الأدب أنها سميت معلقات لتعليقها على الكعبة يقول : « كان العرب في جاهليتهم يقول الرجل منهم الشعر فلا يعبأ به ولا ينشده أحد . حتى يأتي مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه، وإن لم يستحسنوه طرح وذهب فيما يذهب، قال أبو عمرو بن العلاء (المتوفى سنة ١٥٤هـ) وكانت العرب تجتمع في كل عام وكانت تعرض أشعارها على هذا الحي من قريش [١] » .

والمؤرخ الفرنسي (سيديو) يوافق هؤلاء الأدباء في التعليق على الكعبة ويرى أن المعلقات أنشدت في الأسواق ، وبعد اختيارها وقبولها علقت على الكعبة ، بعد أن كتبت بالذهب على نفيس القماش ليطلع عليها الذرية[٢] .

وأنكر بعض الأدباء تعليقها على الكعبة وحجتهم في ذلك :

١ – أن خبر التعاليق وصل إلينا مبهما غامضاً لم يبين كيفية التعليق

---

(١) خزانة الأدب جـ ١ ص ٨٧ .

(٢) خلاصة تاريخ العرب لسيديو .

ولا زمانه ولا يكشف عن الذين كتبوها أو الملوك الذين أمروا بتعليقها أو الحكام الذين حكموا لها بالفوق والتقدم .

٢ ــ وأن الكعبة قد هدمت وجدد بناؤها على عهد رسول الله ﷺ ولم يذكر شيء عن هذه المعلقات ولا عما أصابها .

٣ ــ وأن العرب ما كان لهم أن يدنسوا الكعبة بما كان يشيع في هذه القصائد من فسوق وهجر وفحش وهم الذين يعظمونها ويحجون إليها .

٤ ــ وأن الأشعار الجيدة التي أثرت للعرب كثيرة فلماذا لم يؤثر خبر التعليق إلا لهذه القصائد ؟

٥ ــ وأنها لو علقت لظلت معروفة لم يتطرق إليها اختلاف في عددها ، أو في رواية أبياتها .

وزعيم هؤلاء أبو جعفر النحاس أحد شراح المعلقات فهو يقول : « إن خبر تعليقها على الكعبة لا يعرفه أحد من الرواة ، وإن حماداً حين رأى صدوف الناس عن الشعر وزهدهم فيه جمع لهم هذه القصائد السبع وقال : هذه هي المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة ، ويرى أن تسميتها بالمعلقات يرجع إلى أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : «علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزانتي » . فابن النحاس يرى أنها كتبت وعلقت وإن كان ينكر تعليقها على الكعبة ثم لا يذكر من هو الملك الذي كان يستحسن القصيدة ويأمر بتعليقها في خزانته ، ولعله النعمان بن المنذر الذي كان لديه ديوان فيـــه أشعار الفحول وما مدح به ، كما يقول ابن سلام [١] .

ويرى المستشرق الألماني (نولدكي) أنها لم تعلق على الكعبة كما يقال ،

---

(١) طبقات الشعراء ١٧ .

وأن المعلقات معناها المنتخبات ، وإنما سماها جماعة بهذا الإسم تشبيهاً لها بالقلائد التي تعلق في النحـور ، واستدل على ذلك بأن من أسمائها السموط ومن معاني السموط القلائد .

ويرى هذا الرأي كذلك الأستاذ الفرنسي (كليمان هيار) مؤلف كتاب الأدب العربي .

ويرى الأستاذ الشيخ أحمد الإسكندري أن السبب في تسميتها بالمعلقات أن العرب لم تكن تكتب في دفاف ، وانها لم تكتب قبل القرآن كتاباً مدففاً ، وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من القرض أو نحو ذلك (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) ، إذ يظهر ان السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذي كان يعلق الكتب أو يطويها ، لعله كان يستعمل مثل هذا العود في طي الكتاب وتعليقه . . ولو صح هذا لما اقتصر أمر التعليق على هذه القصائد فقط بل كان كل شاعر يحرص على ادبه ويحتفظ بشعره يلجأ الى مثل هذا الصنيع .

ويحمل الاستاذ المرحوم مصطفى الرافعي حملة قوية عنيفة على خبر تعليقها على الكعبة ويقول ص١٨٨ جـ٣ «ولم نر أحداً ممن يوثق بروايتهم وعمم اشار الى هذا التعليق ولا سمى تلك القصيدة بهذا الإسم كالجاحظ والمبرد وصاحب الجمهرة وصاحب الأغاني ، مع أن جميعهم أوردوا في كتبهم نتفاً وأبياتاً منها ، وقد ذكر أبو الفرج صاحب الأغاني المتوفى سنة ٣٥٦ أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيباً بسوق عكاظ وقام بها في موسم مكة فلو

كان خبر التعليق صحيحاً لما ضره أن يقول فكتبتها العرب وعلقتها على ركن من اركان الكعبة » .

ومن العجيب ان يدعي المرحوم الرافعي أنه لم ير أحداً ممن يوثق بروايتهم وعلمهم أشار الى هذا التعليق مع ان ابن رشيق يقول : «إن خبر تعليقها على الكعبة ذكره غير واحد من العلماء » .

حـ ـ هذا وقد رأينا فيما نقلنا من اقوال المعارضين لخبر التعليق حملة قوية عنيفة عليه . . والامر فيما نرى اهون من ان نحمي له هذه الحمية ونحتشد في سبيل دفعه هذا الاحتشاد .

فالعرب كان من عادتهم إذا ارادوا ان يوثقوا امراً او يؤكدوا عهداً كتبوا به كتاباً وعلقوه في جوف الكعبة تعظيماً لشأنه . أليسوا قد تعاهدوا أو اتفقوا على مقاطعة بني هاشم فلا يُنكحونهم ولا يبيعونهم ولا يبتاعون منهم وكتبوا بذلك وثيقة ثم علقوها في جوف الكعبة توكيداً لهذا الامر على انفسهم ؟ وما الذي كان يمنعهم من تعليق هذه القصائد وهم يرونها كتابهم الخالد واسفارهم التي تنطق بمجدهم وتعلن عن مناقبهم وتشيع بين الأنام مفاخرهم ؟ ولقد كان ابن عباس يجلس في مسجد الرسول ﷺ يسمع الى شعر عمر بن ابي ربيعة مع ما فيه من غزل لا يقل عن غزل امرىء القيس . وهذا عمر بن الخطاب ينكر على حسان إنشاده الشعر في مسجد رسول الله ﷺ فيقول له : دعني فلقد كنت انشد فيه من هو خير منك فلا يغير على شيئاً .

ولو كان يؤخر هذه الطوال عن تعليقها عندهم ما يبدو فيها من فحش وما يشيع من فجور ، لأخرها ذلك عن الشهرة وعاقها عن الانتشار وخاصة عند اشرافهم وعقلائهم والمتوفرين منهم ، وليس بمعقول ان يدعي حماد

الرواية انها علقت ليلفت الناس إليها ويدلهم على مكانها من البيان ومنزلتها في البلاغة بمثل هذه الدعوى ، فإن ما تتسم به من إشراق وابداع وسمو كفيل بجعل القلوب تعلق بها والأنظار تلتفت اليها .

(٣)

ولقد انكر بعض الادباء صحة نسبة القصائد لقائليها وادعى انها منحولة وضعها امثال حماد وخلف الاحمر . وهو شك لا يقوم عليه دليل ولا يسنده برهان من نقل او تاريخ او تفكير سليم . فقد يستسيغ العقل ان تنحل ابيات قصيدة او قصيدتين لشاعر ، اما ان تنحل مثل هذه القصائد كلها وتنسب الى هؤلاء الشعراء فأمر يحيله العقل ويأباه المنطق الصحيح .

والذي نستطيع أن نخلص اليه من كل هـــذه المعارك ان هناك قصائد سبعاً اجمع الرواة على فحولتها وقوتها وارتفاعها عن جميع ما اثر للعرب من شعر وجمع لهم من قصيد ، وانهم سموا هذه القصائد الطوال او المعلقات او المذهبات او السموط .

(٤)

ولقد شرح هذه القصائد ابو بكر البطليوس المتوفى سنة ١٩٤ ، وابو جعفر ابن النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ ، وأبو علي القالي المتوفى سنة ٣٥٦ ، وابو زكريا بن الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ ، والدميري صاحب حيـاة الحيوان ، والزوزني المتوفى سنة ٤٨١ هـ ، وهي مشروحة في كتاب الجمهرة

والناظر في هذه القصائد يروعه ما تمتاز به من قوة السبك ، وتلاحم النسج ، وجودة الصوغ وحسن العبارة ولطف المعنى وسمو الاسلوب وتصويرها الرائع لحياة العرب ، وما كان يخامرها من احداث ، ويتخللها من وقائع .

كما تمتاز بطولها الذي لم يعهد في قصائد الجاهليين وتعدد اغراضها وتنوع مناحيها واشتمالها على كثير من المعاني التي قل ان تحتشد في غيرها من القصائد فمنزلتها من الشعر الجاهلي عامة في أعلى مكان وأسمى منزلة ، وأرفع ذروة .

الفصل الثاني عشر

تصوير الشعر الجاهلي للحياة العربية

كان من أظهر أدلة الذين ذهبوا الى انتحال الشعر الجاهلي أنه لا يمثل الحياة الجاهلية تمثيلا صحيحاً ، فهو في رأيهم لا يصور الحياة الدينيـــة عند العرب الجاهليين ، ولا يمثل حياتهم الاجتماعية ولا معارفهم العـامة ولا اخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم القديمة ، ولا يسجل صلاتهم التجارية والسياسية بالأمم المجاورة لهم .

فالدكتور طه حسين يرى أن الشعر الجاهلي إنما كان « يمثل لنا العرب أجواداً كراماً مهينين للأموال ، مسرفين في ازدرائها ، ولكن في القرآن إلحاحاً في ذم البخل ، وإلحاحاً في ذم الطمع ؛ فقد كان البخل والطمع إذن من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية[1] » .

وسنرى أن الشعر الجاهلي تحدث بالبخل كما تحدث عن الكرم، وأن بعض

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٨٥ .

الناس عيروا بالبخل ، وأن كثيراً من الشعراء كانوا يحملون على النساء حينما يلمن على الكرم .

ويقول الدكتور طه : « إن القرآن حين يتحدث عن الوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم من اصحاب النحل والديانات إنما يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات ألفهـا العرب ... وإذاً فما أبعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا الأدب الذي يضاف الى الجاهليين ونتيجة البحث عنها في القرآن، فأما هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة او كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس ، والمسيطرة على الحياة العملية ... او ليس عجيباً أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ؟ »[1] .

وسنرى كيف تحدث الشعر الجاهلي عن ديانات العرب ، مع قلة ما سلم لنا منه ، بعد ما ضاع منه ما ضاع؛ حتى قال ابو عمرو بن العلاء «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافـراً لجاءكم علم وشعر كثير » [2] ، وقال عمر بن الخطاب: « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ... فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يئلوا الى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب ، وقد هلك من العرب من هلك ، فحفظوا اقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره »[3] .

فلا بد أن يكون قد نظموا كثيراً في آلهتهم ، ولكن قصائدهم توارت مع

---

(١) في الأدب الجاهلي ص ٨٠ .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٧ .

(٣) طبقات الشعراء ص ١٧ .

الزمن ، وضاعت في مجاهله ، وربما أغضوا عن هذا الشعر الذي يتصل بالوثنية وغيرها بعد أن شرح الله صدورهم للاسلام ، وتابعهم الرواة في ذلك اعتزازاً بالدين الجديد ، ورغبة في عدم إثارة ذكريات الماضي في بعض النفوس .

على أن الذين تهودوا منهم او تنصّروا قبل الإسلام قد أغضوا عن شعرهم الوثني ، كما يقول هشام بن الكلبي في حديثه عن نسر : « واتخذت حمير نسراً فعبدوه ولم أسمع حمير سمت به أحداً ، ولم أسمع له ذكراً في أشعارها ولا أشعار أحد من العرب ، وأظن ذلك كان لانتقال حمير عن عبادة الأصنام الى اليهودية »[1] .

كيف نستبعد أن يكون كثير من الشعر الديني في الجاهلية قد طرحه المسلمون ورعاً وتقىً ، وانصرافاً الى الدين الجديد ؟ .

ومع ذلك فإن الشعر الذي انتهى إلينا يمثل لنا الحياة الدينية عند الجاهليين تمثيلاً صحيحاً ، حتى أن بعض المراجع تفيض بأشعار شتى تدور حول هذه الحياة مثل كتاب الأصنام لابن الكلبي ، وسيرة ابن هشام ، والاغاني ، وديوان أمية بن أبي الصلت ، ولسان العرب .. الخ[2] .

يقول نيكلسون : « ومما لا يمكن تجاهله أن قدراً كبيراً من المشاعر الدينية ممثل في الشعر الجاهلي » .

إن الشعر الجاهلي سجل دقيق حافل بتاريخ العرب السياسي والديني والاجتماعي في الجاهلية ، وهو يقوم مقام الآثار عند قدماء المصريين واليونان وغيرهم من الأمم القديمة ، في إعطائنا صوراً مفصلة لألوان الحياة العربية الجاهلية .

---

(١) الأصنام ١١ .

(٢) راجع كتاب الحياة العربية من الشعر الجاهلي للحوفي .

ففيها تاريخ البادية وحروبها ووقائعها التي تمثلت في (أيام العرب) وما جاء فيها من نصوص شعرية ؛ وفيها تحديد لمعالم الجزيرة العربية وأماكنها ومنازلها ومياهها وجبالها وحيواناتها ونباتاتها وأشجارها وطيرها، كما جاء فيها من أسماء النساء وعظماء الرجال ومواطن الأحباب وما حفلت به المعلقات وغيرها من القصائد كما رأينا من قبل ؛ وفي هذه الصورة عادات العرب وتقاليدهم وشأنهم في الحرب والسلم ، وأدوات القتال التي كانوا يستعملونها ، الى غير ذلك من ألوان الحياة ومظاهر البادية .

فالشعر الجاهلي كما يقول ابن فارس ديوان العرب ، به حفظت الأنساب وعرفت المآثر[1] وكما يقول ابن سلام : ديوان علمهم، ومنتهى حكمتهم ، به يأخذون وإليه يصيرون[2] ، وكما يقول نيكلسون : «إنه وصف نقدي لحياة الجاهلية وأفكارها » .

وقد مرت بنا صور كثيرة لهــذا الشعر تسجل ألوان الحياة الجاهلية ومظاهرها، وما سبح في سمائها من افلاك، وما اطرد في صحرائها من حيوان، وما اتصف به أهلها من خلال، ونحو ذلك . ولكنا سنلم ها هنا ببعض الأمثلة كصورة لتصوير الشعر الجاهلي للحياة الجاهلية .

الحياة الاجتماعية :

(١)

سجل الشعر كراهيتهم للبنات وإعزازهم للذكور ؛ فقــد هجر أبو حمزة امرأته لأنها ولدت بنتاً فمر بخبائها يوماً وهي ترقص وتقول :

---

(١) المزهر ج ٢ ص ٢٩١ .

(٢) طبقات الشعراء ١٦ .

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألاّ نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

فولج البيت وقبل رأس امرأته وبنتها[1] .

وكانوا يئدون البنات خوفاً من الفقر او العار او طمع غير الأكفاء فيهن ؛ ولقد خطب الى عقيل بن علفة ابنته فقال :

إني وإن سيق إليّ المهرُ
ألفٌ وَعُبْدانٌ وذَودٌ عشر
أحب أصهاري اليّ القبر

ولم يكن الوأد عاماً بل عرفت به ربيعة وكندة وتميم[2] . وكان بعض السادات يعيبون هذا الوأد وينكرونه ، وينقذون البنات من هذا الظلم ، كصعصعة بن ناجية جد الفرزدق ، الذي جعل على نفسه ألا يسمع بموؤدة إلا فداها ، فسمي محيي الموءودات ، وقد افتخر الفرزدق به حيث قال :

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٦٣ .

(٢) بلوغ الأرب ج ٣ ص ٤٢ .

أبي أحد الغيثين صعصعة الذي
متى تخلف الجوزاء والدلو يُمطر
أجار بنـــات الوائدين ومن يُجِر
على الفقـــر يعلم أنه غير مُخفر
على حين لا تحيا البنات وإذ همو
عكوفاً على الأَصنام حول المدوّر

(٢)

وكانوا في الحرب يصطحبون نساءهم لسقي المـــاء وتضميد الجراح وبعث الحمية في النفوس ، يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنـــا بيضٌ حسان
نحاذر أن تُقَسَّم أو تَهُـــونا
يَقتْن جيـادنا ويقلن لستم
بعولتنـــا إذا لم تمنعـــونا

وكانوا إذا اجتمعوا للحرب دخنوا بالنهار وأوقدوا النار بالليل ليعلموا العشائر والأحلاف ويجمعوهم . قال عمرو بن كلثوم :

ونحن غداة أُوقِدَ في خَزَازَى

رفدنا فوق رفد الرافدينـــا

وقال خمخام السدوسي :

نُدخِّن بالنهـــار ليبصرونا

ولا نخفى على أحـــد أتانا

ولقد وصفوا أدوات الحرب الكثيرة وسجلوها في شعرهم ، وكان السيف من أحسن آلاتهم وأشهرها ذكراً وأكثرها أسماء ، فهو الهندي والرومي والمشرفي نسبة الى بلاده . يصف أوس بن حجر سيفه بأنه هندي يتلألأ حده كتلألؤ البرق في سحاب كثيف ، وإذا سل من الغمد خيل للرائي أن فرنده يتساقط كأنه سحالة الفضة تتساقط على المبرد :

وأبيض هندياً كأن غِرَارَه

تَلأْلُؤ برق في حَبِيّ تهلَّلا

إذا سُلَّ من غمد تأكَّلَ أثرُه

على مثل مِسْحاة اللجين تأكُّلا

ووصفوا الرماح وكانوا يقولون: الخطيّ نسبة الى الخط على ساحل البحرين، والرديني نسبة الى ردينـة التي اشتهرت بتقويم الرماح ، والسمهري نسبة الى سمهر زوج ردينة ، واليزنية نسبة الى ذي يزن ، والقعضبية نسبة الى رجل .

قال عنترة :

وأطعن في الهيجا إذا الخيل صدها
غداة الصباح السمهريُّ المُقَصَّدُ

وقال أوس بن حجر: إن كعوب رمحه ضامرة صلبة كنوى التمر اليابس:

وإني امرؤ أعددت للحرب بعد ما
رأيتُ لها ناباً من الشر أعْصلا
أصمَّ رُدَيْنِيًّا كأن كعوبه
نوى القسب عَرَّاصاً مُزَجىًّ مُنَصَّلَا

كما برعوا في وصف القسي[1] على ما شهدنا في صور الشعر الجاهلي ، وأجودها العصفورية نسبة الى عصفور وهو رجل . قال الشنفرى :

وإني كفاني فقدَ من ليس جازياً
بحُسنى ولا في قربــه متعلَّلُ
ثلاثة أصحاب : فؤادٌ مشيَّعٌ
وأبيضُ إصليتٌ ، وصفراء عَيْطل[2]

(١) القوس عود من خشب لين يقوس كالهلال ويثبت فيه وتر وترمى به السهام .

(٢) مشيع : شجاع . إصليت : سيف صقيل . صفراء عيطل : قوس طويلة .

إذا زلّ عنها السهم حنّتْ كأنها
مُرَزَّأةٌ ثكلى ترِنُّ وتُعْوِل

وكذلك الدروع وهي أردية من الحديد المنسوج حلقات متصلة ، تلبس لتغطى الظهر والصدر ونصف الذراعين تقريباً ، فترد الطعنات وتقي لابسها السهام ، قال امرؤ القيس :

ومسدودةِ السَّـــك موضونـــة
تضـــاءل في الطي كالمبرد

تفيض على المـــرء أردانهـــا
كفيض الأَتِيّ على الْجَدجَدِ[1]

وقد نسبوها الى فرعون وداود وسليمان وتبّع . وإلى سلوق وهي قرية باليمن . قال النابغة :

تقدّ السلوقيَّ المضـــاعف نسجه
وتُوقـــد بالصُّفَّاح نارَ الحُباحب

وتحدثوا عن البيضة أو القونس أو المغفر وهو غطاء الرأس في الحرب قال الأخنس بن شريق :

---

(١) الأتي : السيل . الجدجد : الأرض الصلبة .

همو يضربون الكبش يبرق بيضهُ

على وجهـــه من الدماء سبائب

وقال المهلهل :

والمشرفيـــة لا تُعرّج عنهمو

ضرباً يَقُدّ مغـــافراً ودروعا

والترس أو المجن أو الدرقة ، وهو ما يعمل من بعض الجلود لوقاية الابدان من وقعات السيوف . قال المزرد بن ضرار : إنه كالشمس في طبقات الغمام :

وجَوْب يُرى كالشمس في طخية الدجى

وأبيض ماض في الضريبـــة قاصل

وقد رأينا من قبل تصوير الشعر للخيل وغرام الجاهليين بها ، وما يزال عنترة يقول عن محبوبته :

تُمسي وتصبح فوق ظهر حشيَّة

وأبيت فـــوق سراة أدهم مُلجَم

(٣)

وصور الشعر كلفهم بأخذ الثأر وحرصهم عليه . كما قال المهلهل في رثاء أخيه :

خذ العهد الأكيد علي عمري
بتركي كل ما حــوت الديار
وهجري الغانيات وشرب كأس
ولبسي جبــة لا تســتعار
ولست بخالع سيفي ودرعي
إلى أن يخلع الليل النهــار
وإلا أن تبيــد سراة بكر
فلا يبقى لهــا أبداً أثار

وكانت المرأة من اشدهم تحريضاً على الثأر والانتقام . قالت هند بنت حذيفة :

فإن أنتمو لم توطئوا القوم غارة
يُحدِّث عنها وارد بعد صادر
وترموا عقيلاً بالتي ليس بعدها
بقاء فكونوا كالنســاء العواهر

(٤)

وسجل الشعر الجاهلي ترف بعض الجاهليين وغناهم ، كما تحدث النابغة عن شرف

بني غسان بأنهم يلبسون نعالاً رقاقاً وتُحييهم الوصيفات بالريحان يوم عيدهم، وملابسهم من الخز الأحمر يعلقونها على المشاجب :

رقاق النعـــال طيّب حجزاتهم
يحيون بالريحان يوم السباسب
تحييهمــو بيض الولائد بينهم
وأكسية الإضريح فوق المشاجب

ويقول المرقش :

تحلّين ياقوتاً وشذْراً وصيغــة
وَجَزْعاً ظَفاريًّا ودُرًّا توائمـــا

وكان أهل الرفاهيـة يفيضون المسك على الأجسام بعد الاستحمام ، يقول ابن غسقاء الجهني :

إذا غسلا جلودهما أفاضـــا
فتيت المسك من أُدُمٍ صحاح

ويتحدث امرؤ القيس عن صاحبتيه المنعمتين :

إذا قامتـــا تضوع المسك منهما
نسيم الصّبا جاءت بريّا القـــرنفل

ومع ذلك فلم يفت الشعر الجاهلي أن يسجل مظاهر الفقر والفاقة عند الجاهليين، وقد رأينا من قبل هذا الشعر الذى يصور حياة طائفة من صعاليك العرب ، الثائرين على الفقر . ويقول عروة بن الورد :

ذريني للغــــنى أسعى فإني
رأيت النــــاس شرهم الفقير

وأهـــونهم وأحقـــرهم لديهم
وإن أمسى له نسبٌ وخِــــير

ويقول سعيد بن عمرو بن نفيل عن زوجتيه :

سألاني الطلاق أن رأتا ما
لي قليلاً ، قـــد جئتماني بنكر

وآخر يقول :

قصَّر العُدم بي ولو كنت ذا ما
لٍ كثير لأجلب الناس حولي

الحياة الخلقية :

(١)

من تمثيل الشعر الجاهلي للكرم قول حاتم الطائي :

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له
أكيلاً فإني لستُ آكله وحدي

أخاً طارقاً او جار بيت فإنني
أخاف مذمات الاحاديث من بعدي

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً
وما فيّ إلا تلك من شيمة العبد

ويقول عنترة العبسي :

وإذا صحوت فما أقصر عن ندىً
وكما علمت شمائـــلي وتكرُّمي

ويقول حاتم لغلامه :

أوقد فـــإن الليل ليلٌ قرٌّ
والريح يا غـــلام ريحٌ صرٌّ

عـــلّ يرى نارك مَنْ يَمُرُّ

إن جلبت ضيفاً فأنت حر

فنعرف من هـــذا أنهم كانوا يوقدون النار لهداية الضيفان وجلبهم ، كما كانوا يوقدونها للحرب . وقد فاض الشعر الجاهلي بالحديث عن نار القرى هذه كما قال الأعشى في مدح المحلق :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة

إلى ضوء نار باليفاع تحـــرّق

تُشَبُّ لمقرورَيْن يصطليانها

وبات على النار الندى والمحلّق

(٢)

وصور الشعر الى جانب هذا الكرم ما كان يتصف به بعضهم من البخل والشح وما كان يوجه الى الكرماء من تقريع ولوم على إسرافهم في السخاء . يقول حاتم :

وقائـــلة أهلكت بالجود مالنا

ونفسك حتى ضرّ نفسك جودها

فقلت دعيني إنمـــا تلك عادتي

لكل كريم عـــادة يستعيدها

ويقول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم
وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

ويعير عروة بن الورد خصمه بالبخل فيقول :

وإني امرؤ عافي إنائيَ شركة
وأنت امرؤ عافي إنائك واحد

(٣)

ومن تصوير الشعر الجاهلي لشجاعتهم قول السموأل :

وإنا لقوم مـــا نرى القتل سبة
إذا مـــا رأته عامرٌ وسَلول

ومـا مات منا سيد حتف أنفـه
ولا طُلّ منا حيث كان قتيل[١]

تسيل على حـد الظُّباة نفوسنا
وليست على غـــير الظُّباةِ تسيل

---

(١) مات حتف أنفه أي على فراشه من غير قتل ولا ضرب لأن روح المريض تخرج من أنفه، وروح الجريح تخرج من جرحه فيما يزعمون . وطل : أهدر .

وقول الحصين المرّي :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد
لنفسي حياة مثل أن أتقدما

ويقول وداك بن ثميل :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمو
لأية حرب أم بـــأي مكان

وما كان النساء ينحن على القتيل في الحرب ، لأن قتله مجد وشرف قال عمرو بن كلثوم :

معـــاذ الإله أن تنوح نساؤنا
على هالـــك او أن تضجّ من القتل

(٤)

وسجل الشعر كذلك جبن الجبناء ، كما يقول عمرو بن معد يكرب في فرار قومه وحلفائه ، معتذراً عن مدحهم لأنهم عقلوا لسانه بجبنهم :

ظللت كأني للرماح دريـــة
أقاتـــل عن أبناء جرم وفرّت

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم
نطقت ولكنَّ الرمـــاح أجرت

وقد فر أوس بن حجر ذات يوم ، واعتذر بأنه لما شهد الجموع ، خاف لأنهم شجعان ، ورأى ألا عيب في فراره لأن شجاعته معروفة !! يقول :

كأن جلود النُّمْر جِيبَتْ عليهمو
إذا جعجعوا بين الإناخة والحبس

فضموا علينا حَجْرتينا بصادق
من الرأي حَشَّ النار في الحطب اليَبْسِ

وليس الفرار اليوم عاراً على الفتى
إذا جُرِّبت منه الشجاعة بالامس

وقد حسن حيان بن الحكم الفرار ، ورأى أنه أسلم ، إذ ما الذي يعود عليه بعد أن يقتل فتقول له النساء : ليتك لم تمت :

وكتيبة لبّستُهـــا بكتيبة
حتى إذا التبست نفضت لها يدي

وتركتُهم تقص الرماح ظهورهم
من بـــين مقتول وآخر مُستد

هـــل ينفَعني أن تقول نساؤهم
ـ وقُتلتُ دون رجالها ـ لا تبعد[1]

وخبيب بن عوف يقول في فراره :

فلو كان لي روحان عرضتُ واحداً
لكل رُدَيْنِيّ وأبيض ذي أثر [2]

(٥)

ومن تصويره للوفاء ، قول السموأل في وفائه لامرىء القيس وعدم تسليم دروعه لعدوه ، وإيثاره ذلك على قتل ابنه :

وفيت بذمـــة الكندي إني
إذا مـــا ذُمَّ أقوامٌ وفَيْتُ

وقد سجل الأعشى كما سبق هذه القصة في شعره .

(٦)

ومن تسجيله لعفتهم قول عمرو بن الإطنابة يصف قومه :

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ١٦٤ .

(٢) العقد الفريد ١٧٧ والأثر فرند السيف وجوهره .

المانعين من الخنـــا جاراتهم

والحاشدين على طعام النازل

وقول عنترة بن شداد :

ما اسْتَمْتُ أُنثىَ نفسَها في موطن

حتى أوفّي مهرهـــا مولاها

وأغضُّ طرفي ما بدت لي جارتي

حتى يُواري جارتي مأواهـــا

وتحدث علقمة بن عبدة عن عفة صاحبته فقال :

إذا غاب عنها البعل لم تُفش سره

وتُرضي إياب البعل حين يؤوب

وقد وصف النابغة ممدوحيه بطيب الحجزات وهي ما يشد على الوسط ، كناية عن عفتهم :

رقاق النعال طيب حُجُزَاتُهم

يحيون بالريحان يوم السباسب

ومن تصويره لحفاظ الجار والحليف قول عبيد بن الأبرص :

إنا لعمـــرك مايضا م حليفنـــا أبداً لدينا

ويقول قيس بن عاصم :

لا يفطنون لعيب جـــارهمو
وهمـــو لحفظ جواره فطنُ

ويقول السموأل :

وما ضرنا أنا قليل وجارنا
عزيز وجـــار الأكثرين ذليل

الحياة الدينية والعقائد :

قلنا إن المأثور في هذه الناحية قليل ؛ ربما كان ذلك لتحرج المسلمين من روايته ، او الى عـدم تغلغل الدين في نفوس الجاهليين ، وانصراف عامة شعرائهم عن الشعر الديني ، وإن كان ثمـــة شعراء كان الشعر الديني أظهر أغراضهم كأمية بن أبي الصلت .

(١)

ومن حديثه عن الأصنام قول أوس بن حجر يقسم باللات وبالعزى وبالله :

وباللات والعزى ومن دان دينها
وبالله إن الله منهن أكبر

وأقسم عبد العزى المزني بمناة :

إني حلفت يمين صــدق برَّة
بمناة عنــد محل آل الخزرج

وذكر امرؤ القيس في معلقته الصنم (دوار) والعذارى تطوف حوله :

فعنّ لنــا سربٌ كأن نعاجه
عذارى دَوَارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّل

ولما قتل أبوه استقسم عند الصنم (ذي الخلصة) ، فخرج له القدح المانع من الثأر ، فكسر الأزلام ، وضرب بها وجه الصنم قائلا :

لو كنتَ يا ذا الخُلَص الموتورا
مثلي وكان شيخك المقبورا
لم تنــه عن قتل العــداة زورا

(٢)

وصور الشعر مذهب المتحنفين الذين يتصل شعرهم بالتوحيد والإيمان بالله ، كزيد بن عمر بن نفيل الذي يقول :

أرباً واحـــداً أم ألف رب
أدين إذا تقسّمت الامور

تركت اللات والعزى جميعاً
كذلك يفعـــل الجلد الصَّبُور

فلا العزى أدين ولا ابنتَيْها
ولا صَنَمَيْ بني غـــنم أزور

ولا هُبَـــلا أزورُ وكان ربّاً
لنـــا في الدهر إذ حلمي صغيرُ

وأمية بن أبي الصلت الذي يحفل ديوانه بتوحيـــد الله وتمجيده ، وبالكونيات والبعث والحساب . هو بحق أعظم شعراء الجاهليـة احتفالاً بالدين ، وأشدهم اتصالاً به . يقول :

الحمــد لله مُمسانا ومُصبَحُنا

بالخير صبّحنـــا ربي ومَسّانا

وشعره يفيض بالقصص الديني وحيـاة الأنبياء ، وبالكونيات والبعث ونحو ذلك .

وكذلك نجـد في شعر عدي بن زيد قصة آدم وحواء وإغواء الشيطان لهما . وثمة غيرهم من المؤمنين بالله ، كالنابغة الذي يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة

وليس وراء الله للمرء مذهب

ويقول زهير بن أبي سلمى :

فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم

ليخفى ومها يكتم اللهُ يَعْلم

وقال طرفة :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصا

ولا زاجرات الطير ما الله فاعله

وقال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محـــالة زائل

وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه

إذا كشفت عند الاله الحصائل

(٣)

ومن تسجيله لمذهب الدهريين قول أسقف نجران :

منع البقـــاء تقلبُ الشمس

وطلوعها من حيث لا تمسي

ويشير أمية بن أبي الصلت الى عبادة بعضهم الجن بقوله :

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم

وأنت إلٰهي ربنـــا ورجائيا

وكانت باليمن نار لها سدنة تحكم بينهم فيما يختلفون فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم[1] ، ويشير إليها أوس بن حجر في قوله :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه

كما صد عن نار المهوّل حالف

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٩٦ .

تصويره للمعارف :

صور الشعر الجاهلي ألواناً كثيرة من معارف الجاهليين كالطب والكهانة والعيافة والقيافة والعرافة[1] ، والأنساب والنجوم والمطر والرياح والكتابة :

١ – فمن تسجيله لمعرفتهم بالطب قول أوس بن حجر :

فهل لكمو فيهـــا إلي فإنني
خبيرٌ بما أعيا النِّطاسيَّ حِذْيَمَا[2]

٢ – وفي العرافة قال الشاعر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه
وعراف نجـــدٍ إن هما شفياني

٣ – ويشير الى عرافتهم قول الشاعر :

خبيرٌ بنو لِهْبٍ فلا تك مُلْغِياً
مقالةَ لِهْبِيٍّ إذا الطير مرَّتِ

---

(١) العيافة زجر الطير للاستدلال بصوته وحركته على الحوادث . والقيافة قيافة الأثر وهي الاهتداء الى الهارب بآثار أقدامه ، وقيافة البشر وهي الاستدلال بهيئة الرجل وشكله على نسبه وخلقه .. والعرافة والكهانة هما الاخبار عن الغيبيات مطلقاً وقيل الكهانة الماضي والمستقبل والعرافة خاصة بالماضي .

(٢) ابن حذيم جاهلي يضرب بطبه المثل .

٤ – ويدل على معرفتهم بالكتابة قول لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها

زُبُرٌ تجــد متونَها أقلامُها

وقول المرقش :

الدار قَفْرٌ والرســوم كما

رَقَّشَ في ظَهــر الاديم قَلَمْ

٥ – ويشير الى براعتهم في الأنساب قول الشاعر :

فحكم دغفلا وارحل إليــه

ولا تــدع المطي من الكلال[١]

٦ – ويسجل الشعر معرفتهم بأنواع الرياح والسحب الممطرة كما في قول أوس بن حجر يصف سحاباً يوشك أن يمطر :

دانٍ مُسِفٌّ فُويق الارض هَيْدَبُه

يكاد يَدفَعُه من قام بالراح[٢]

---

(١) دغفل : نسابة جاهلي .

(٢) المسف القريب ، والهيدب : الذيل والطرف .

٧ – ويشير الى معرفتهم بالملاحة قول طرفة :

يشق حباب المـــاء حيزومها بها

كما قسم الترب المفايل باليد

تصويره للعادات :

ويفيض الشعر الجاهلي بذكر عادات العرب التي لا حصر لها .

١ – كانوا يشربون الخمر وقد مضى كثير من النصوص التي تدل على ذلك، وكما يقول المنخل اليشكري :

فإذا شربتُ فـــإنني   ربُّ الْخَوَرْنق والسَّدِيرِ

ومنهم من حرمها ونفر منها كقيس بن عاصم المنقري الذي يقول :

لعمرك إن الخمر ما دمت شارباً

لسالبَةٌ مالي ومُذْهبــةٌ عقلي

وقد برعوا في وصف آثارها في نفوسهم ، ووصفوا آنيتها ومجالسها في كل مناسبة حتى إنهم رثوا الميت بأنه صاحب خمر وندامى ، كما قال أوس :

ليَبكك الشَّرْبُ والمــدامة والفِتـ

يان طـــرا وطامع طمعـــا

٢ – وكانوا يلعبون القمار ، قال لبيد في معلقته :

وجزور أيسار دعوت لحتفهـــا
بمغـــالق متشابه أجسامهـــا[1]

٣ – ومن عاداتهم تأخير البكاء على القتيل وتحريم الخمر حتى يؤخذ بثأره، قال تأبط شراً في الرثاء :

حلّت الخمـــر وكانت حراماً
وبلأي مـــا ألمّتْ تحِـــلُّ

وقال امرؤ القيس بعد أخذه بثأر أبيه :

حلت لي الخمـــر وكنت امرءاً
من قبلهـــا في شغُل شاغل

٤ – وكانوا يعقرون الرواحل على قبور أبطالهم وسادتهم ، قال حسان ابن ثابت :

نفرت قلوصي من حجارة حَرَّةٍ
بُنيت على طَلْق اليدين وَهُوب
لولا السفارُ وبعـدُ خَرق مَهْمَهٍ
لتركتُهـا تحبو على العرقـوب[2]

---

(١) الجزور : البعير . الأيسار جمع يسر بفتحتين وهو لاعب القمار . المغالق : القداح التي يشرب بها .
(٢) القلوص من الإبل الشابة القوية . الحرة بالفتح أرض ذات حجارة ، السفار مصدر سافر . الخرق : القفر . المهمه : المفازة .

٥ – ومن عادة الساري منهم في الليل أن ينبح إذا ضل ولم يهتد ، فتنبح الكلاب على نباحه ، فيهتدي بذلك الى الحي . قال النابغة الجعدي :

وَمُسْتَنْبِحٍ تستكشط الرِّيحُ ثوبَه
لِيَسْقط عنه وَهو بالثوب مُعْصِمُ
عوى في سواد الليل بعد اعتسافه
لِينبَح كلبٌ او ليفـــزع نُوَّم
فجاوبه مُسْتَسْمِع الصوت للقرى
له عنـــد إتيان المهبين مَطْعَمُ

٦ – وكان من عاداتهم تعليق حلي النساء على اللديغ للشفاء قال النابغة :

يُسَهَّدُ من ليل التمام سَليمُهـــا
لحلْيِ النِّســـاء في يَديه قَعاقع

٧ – ومن عاداتهم الاستشفاء من عض الكلب بشرب دم الرؤســاء ، قال الشاعر :

بُنَـــاةُ مكارم وأُسَاةُ كَلْمٍ
دِماؤهمو من الكَلَبِ الشِّـــفاءُ

٨ – ومنها كي الصحيح من الإبل ليبرأ السقيم ، قال النابغة :

وكلفتني ذنب امرىء وتركته

كذي العُرِّ يُكوَى غيرُه وهو راتع[1]

٩ – وكانوا يحيون ساداتهم وأمراءهم في الأعياد بالريحان . قال النابغة في ملوك غسان :

رِقاق النعال طيّبٌ حُجُزاتُهم

يُحَيَّوْن بالرَّيحان يومَ السباسب

١٠ – وكانوا يوقدون النيران لجلب الأضياف ونحو ذلك . قال حاتم :

أوقد فإن الليل ليل قُرٌّ

والريح يا غلام ريح صر

إن جلبت ضيفاً فأنت حر

١١ – وكان الغلام عندهم يرمي سنه في الشمس لتبدله خيراً منها ، قال طرفة :

شادن تجلو إذا ما ابتسمت

عن أقاح كأقاحي الزهر غُرّ

(١) العر : الجرب .

بدّلتــه الشمسُ من منبته
بردآ أبيض مصقول الأُشر[1]

١٢ — ومن عاداتهم جز ناصيــة الأسير إذا أرادوا المن عليه وإطلاقه ، قالت الخنساء :

جـززنا نَواصيَ فرســانهم
وكانوا يظنون ألا تجــزا

١٣ — وكانوا يزعمون أن المرأة التي لا يعيش لهــا ولد إذا وطئت دم الشريف عاش ولدها ، قال بشر بن أبي خازم :

تظلُّ مقاليت النساء يطأنه
يقلن ألا يُلقي على المرء مِئزَرُ

١٤ — وكان من عاداتهم إذا ضلوا في الفلاة أن يقلب الرجل قميصه ويصفق بيديه . قال ابو العملس الطائي :

فـلو أبصرتني بلوى بطَـاني
أصفق بالبنان على البنـان
فأقلب تارة خوفاً ردائي
وأصرخ تارة بأبي فلان

(١) الشادن : الظبي قوي واستغنى عن امــه . الأشر بضمتين تحزيز الأسنان ، أي تحديد أطرافها .

١٥ — ومن عاداتهم ضرب الثور إذا لم تشرب البقر ليقدم فتتبعه . قال أنس بن مدرك :

إني وقتلي سُلَيكا ثم أعقله
كالثور يضرب لما عافت البقر

وكانوا يزعمون أن المتحابين إذا شق كل واحد منهما برد صاحبه دامت مودته . قال عبد يغوث بن الحارث :

وانحر للشَّرْب الكرام مطيتي
واصدع بين القينتين ردائيا

الفصل الثالث عشر

موقف النقاد من الشعر الجاهلي

(١)

نعلم أن كل قبيلة في الجاهلية ، كانت ترفع منزلة شاعرها على الشعراء ، وتذهب إلى أنه إمامهم وأولهم في دولة الشعر . فكان اليمنيون يذهبون إلى أن امرأ القيس هو إمام الشعراء ، وكان بنو أسد يذهبون إلى تقديم عبيد ، وتغلب تقدم مهلهلا ، وبكر تقدم المرقش الأكبر ، وإياد ترفع من شأن ابي دؤاد ، وهكذا . وكان أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والنابغة ، وأهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحدا ، وأهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحداً . وكان العباس بن عبد المطلب يقول عن امرىء القيس : هو سابق الشعراء ، ورأى لبيد أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة ثم نفسه .

كما نعلم أن الجاهليين أنفسهم كانت لهم آراء كثيرة في نقد الشعراء ، فكان النابغة تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء وتنشده أشعارها .

وحكومة ام جندب الطائية بين امرىء القيس وعلقمة بن عبدة الشاعرين وتفضيلها علقمة على زوجها امرىء القيس مشهورة .

ومر امرؤ القيس بكعب وأخويه : الغضبان والقعقاع ، فأنشدوه ، فقال : إني لأعجب كيف لا تمتلىء عليكم ناراً جودة شعركم ، فسموا بني النار :

وروى المرزباني في كتابه « الموشح » أن الزبرقان وعمرو بن الأهتم وعبدة ابن الطبيب والمخبل السعدي ، تحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدي الشاعر ، في الشعر وأيهم اشعر ، فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخن ، لا هو أنضج فأكل ، ولا ترك نيئاً فينتفع به . وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر ، يتلألأ فيهـا البصر ، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر . وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم ، وارتفع عن شعر غيرهم . وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر .

كما روى أيضاً أن هؤلاء الشعراء اجتمعوا في موضع فتناشدوا أشعارهم فقال لهم عبدة : والله لو أن قوماً طاروا من جودة الشعر لطرتم ، فإما أن تخبروني عن أشعاركم وإما أن أخبركم ، قالوا : أخبرنا ، قال : فإني أبدأ بنفسي ، أما شعري فمثل سقاء شديد ، وغيره من الأسقية أوسع منه ، وأما أنت يا زبرقان : فإنك مررت بجزور منحورة ، فأخذت من أطايبها وأخابثها .

إلى غير ذلك من مواقف النقد والنقـــاد للشعر في العصر الجاهلي التي لا تخرج عن الاستحسان أو الاستهجان للشعر والشعراء .

وفي عصر بني أمية، انتشرت العصبيات، وكثرت الخلافات السياسية والدينية وتغير نهج حياة العرب وتفكيرهم، فعادوا إلى مذاهب الجاهليين في الشعر، واتخذوه أداة للدفاع عن الرأي والعقيدة، ولساناً لإذاعة محامدهم ومفاخرهم، وشجعوا الرواة على رواية الشعر الجاهلي، والشباب على درسه وتعلمه والتأدب بأدبه، ووضعت في هذا العصر أصول النحو العربي، فأخذ العلماء ينقدون الشعر الجاهلي نقداً يتصل بالاعراب، وكان ابن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر يطعنان عليهم وكان عيسى يقول : أساء النابغة في قوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة
من الرُّقش في أنيابها السمُّ ناقع

ويقول موضعه : ناقعاً(١)

ومن أشهر رواة الشعر الجاهلي ونقاده في القرن الثاني الهجري :

أبو عمرو بن العلاء البصري المتوفى عام أربعة وخمسين ومائة بعد الهجرة وحماد الراوية الكوفي (٧٥ – ١٥٦ هـ)، وخلف البصري م ١٨٠هـ . والمفضل الضبي م ١٨٩هـ وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب في كتاب، وأول من فسر الشعر بيتاً بيتاً ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين .

ومنهم ابن الكلبي م ٢٠٤هـ، وأبو زيد الأنصاري صاحب كتاب الجمهرة المتوفى عام خمسة عشر ومائتين، وأبو عبيدة البصري م ٢٠٩ هـ صاحب

---

(١) ٤١ الموشح، ١١ و ١٢، طبقات الشعراء لابن سلام .

« النقائض » و « مجاز القرآن »، والأصمعي البصري م ٢١٦ هـ، وقد ادرك بعض هؤلاء جزءاً من أوائل القرن الثالث ، وكان لهؤلاء الرواة أثر كبير على الشعر الجاهلي ، فقد اهتموا بجمعه وروايته وتدوينه ، ووضعوا الجاهليين في طبقات ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً .

وكان أبو عمرو بن العلاء أشد الناس إكباراً للجاهليين ، وتعظيماً لشأنهم جلس إليه الأصمعي عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامي . ويروى عنه : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه أحداً » ، وكان لا يعد الشعر إلا للجاهليين ، وكان كما يقول ابن سلام في (طبقات الشعراء) أشد الناس تسليماً لهم .

وكان المأمون رغم ثقافته الواسعة يتعصب للأوائل من الشعراء ويقول : انقضى الشعر مع ملك بني أمية .

وكان الأصمعي ـ مع تحامله على المحدثين وشعرهم ـ معتدلاً في عصبيته للشعر الجاهلي ، كان يحب الجيد منه ، وينقد الرديء ، عاب امرأ القيس في قوله في وصف الفرس :

وأركب في الروع خَيْفَانة
كسا وجهَها سعف منتشر

والخيفانة في الأصل هي الجرادة ، وتشبه بها الفرس في الخفة . قال الأصمعي : شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، والشعر إذا غطى العين لم يكن الفرس كريماً كما عاب غير امرىء القيس من الشعراء ، وكان يقول : ختم الشعر بالرماح وهو شاعر أموي مشهور .

وفي القرن الثالث الهجري نجد النقاد في موقفهم من الشعر الجاهلي طائفتين .

فطائفة تعجب بالجاهليين وشعرهم إعجاباً شديداً . ولا ترى الشعر إلا لهم . ومن هؤلاء ابن الأعرابي م ٢٣١ هـ ، وكان يزري بأشعار المحدثين ، ويشيد بشعر القدماء ، وكان يعيب شعر أبي نواس وأبي تمام . ويقول ختم الشعر بابن هرمة ، وقال في بشار : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير من الشعراء .

ومنهم أيضاً إسحاق الموصلي م٢٤٠ هـ وكان في كل أحواله ينصر الأوائل وكان شديد العصبية لهم ، وكان لا يعتد ببشار .

وقد اعتذر الباقلاني عن هؤلاء النقاد العرب المحافظين بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذي يجمع الغريب والمعاني ، واعتذر ابن رشيق عنهم بحاجتهم إلى المثل والشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ولكن الجرجاني في الوساطة يذكر أن ذلك أثر لتعصب علماء اللغة ورواتها للشعر القديم وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم[1] .

وطائفة أخرى من النقاد في القرن الثالث . حكموا الذوق الأدبي والطبع وحدهما في الشعر ، وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهلياً كان أو إسلامياً أو محدثاً فلم يفضلوا الجاهليين لسبقهم في الزمن ، ولم يغضوا من شأن المحدثين لتأخر عصرهم . ومن هؤلاء : الجاحظ م ٢٥٥ هـ ، وابن قتيبة م٢٧٦ هـ ، والمبرد م ٢٨٥ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ .

يقول ابن قتيبة في أول كتابه « الشعر والشعراء »[2] : ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ، فإني

---

(١) ٤٩ و٥٠ الوساطة ، ط بيروت .
(٢) ٨٧ الشعر والشعراء .

رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ؛ ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولاعيب عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو يقول : لقد نبغ هذا المحدث حتى هممت برواية شعره ، وقال المبرد : ليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحقه[1] .

وكان الجاحظ هو السابق إلى إقامة نقد الشعر على أسس فنية خالصة ، وحارب هذا التعصب المقوت للقديم لقدمه ، وآراؤه في ذلك في كتابيه : الحيوان والبيان والتبيين كثيرة . . ففي الحيوان ينكر على المتعصبين للقديم فعلهم ، ويقول : لو كان لهم بصر ، لعرفوا موضع الجيد ممن كان وفي أي مكان كان[2] .

وفي القرن الثالث أيضاً كثرت مؤلفات النقاد في الشعر والشعراء الجاهليين ، وكتاب ابن سلام « طبقات الشعراء » مشهور ، وهو أبرز عمل أدبي منظم في النقد ، وقد قسم الجاهليين : عشر طبقات كما مر ، ولم يسبقه إلى هذا التقسيم الفني للشعراء الجاهليين وطبقاتهم الأدبية إلا أبو عبيدة الذي قسم الجاهليين ثلاث طبقات على ما سبق .

أما القرن الرابع فقد كان أحفل قرن بالنقد والنقاد ، وظهرت فيه أصول كتب النقد الأدبي مثل ، نقد الشعر لقدامة م ٣٣٧ هـ ومثل أخبار أبي تمام

---

(١) ١٨ جـ ١ الكامل للمبرد .
(٢) جـ ٢ الحيوان .

للصولي م ٣٣٦ هـ ، والموازنة للآمدي م ٣٧١ هـ والوساطة للجرجاني م ٣٩٢هـ وإعجاز القرآن للباقلاني م ٤٠٣ هـ .

كما ظهر في القرن الخامس : ابن رشيق م ٤٦٣ هـ صاحب «العمدة » وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦هـ صاحب سر الفصاحة ، وعبد القاهر الجرجاني صاحب الأسرار والدلائل م ٤٧١هـ .

وكان النقاد في هذين القرنين يسيرون على نهج الجاحظ ، فلم يتعصبوا للشعر الجاهلي لتقدم زمنه ، أو يميلوا على المحدثين لتأخر عصرهم ، بل حكموا الذوق وحده في كل شيء ، حتى لقد وقفوا معددين لأخطاء الجاهليين ، كما فعل الآمدي في الموازنة ، والجرجاني في الوساطة ، وابن رشيق في العمدة وسواهم .

لقد أزرى الآمدي والجرجاني بموقف بعض النقاد المتعصبين على المحدثين : كالأصمعي الذي أنشده إسحق الموصلي :

هــل إلى نظرة إليك سبيل
فيُرَوَّى الصدى ويُشفى الغليل

إن ما قل منك يكثر عندي
وكثير ممن تحب القليـــل

فقال : لمن تنشدني ؟ قال : لبعض الأعراب . قال : هذا والله هو الديباج الخسرواني : قال إسحاق : إنهما لليلتهما . فقال الأصمعي . لا جرم والله ان اثر الصنعة والتكلف بين عليهما . وكان الاعرابي الذي انشده بعض الناس شعراً وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم انه لأبي نواس انكره .

ونقد الباقلاني في اعجاز القرآن معلقة امرىء القيس :

نقداً طويلا ، وهو اول نقد ادبي مفصل لقصيدة كاملة من الشعر العربي:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٣)

وفي العصر الحديث تفاوتت ثقافات الادباء والنقاد ، فوقف اولو الثقافات العربية الخالصة موقف الاعجاب والتقدير للشعر الجاهلي . وهب جماعة من اولي الثقافات الحديثة يطعنون على الشعر الجاهلي ، ويرمونه حيناً بالضعف والتفكك ، وحيناً بأنه كله اوجله منتحل مختلق .

عاب العقاد الشعر الجاهلي بأنه لا يصلح ان يكون نموذجاً يقتدى به في النظم ، لأنه في الغالب ابيات مبعثرة ، تجمعها قافية واحدة يخرج فيها الشاعر من المعنى ثم يعود اليه ، ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة ، ولا ترتيب مقبول . وان فيه غير التفكك ، وضعف الصياغة ، كثيراً من العيوب العروضية والتكرير الساذج والاقتسار المكروه ، والتجوز المعيب ، الذي يؤخذ من روايته ان الشعر لم يكن فناً يستقل بصناعته الخبيرون به ، وانما كان ضرباً من الكلام يقوله كل قائل ، ويروى المحكم منه وغير المحكم على السواء[1] فنرى العقاد يأخذ على الشعر الجاهلي مآخذ اهمها :

---

(١) ١٠٣ مراجعات للعقاد .

اولاً : انه بادي التفكك مهلهل الصياغة .

ثانياً : ان فيه كثيراً من العيوب العروضية والتكرير الساذج والاقتسار المكروه والتجوز المعيب .

ثالثاً : انه لم يكن فناً يستقل به الخبيرون .

ونحن نكتفي في مناقشة المأخذ الاول وهو التفكك وضعف وحدة القصيدة بالآتي :

قال نولدكه المستشرق الهولندي المشهور : « في احوال كثيرة يحتفظ الشاعر الجاهلي بوحدة الفكرة في قصيدته ، بأن يجعل كل قسم من اقسامها خاصاً بوصف مناظر وحوادث من حياة الشاعر نفسه ، او الحياة العامة التي يحياها البدو في الصحراء » .

وقال جميل صدقي الزهاوي الشاعر المجدد المشهور [١] : وهناك شيء يستحبه الذين تشبعت ادمغتهم بالأدب الغربي ، هو ان تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكرة واحدة ، او وصفاً لشيء واحد ، من غير خروج الى غير الموضـوع . ولو كان في فصل منعزل عن الاول ؛ وهـذا ليس من الشعر في اصله ، بل هو تابع للأذواق ، وطريقة الشاعر في شعره ؛ ولا ينوع الشاعر المبرز في العربية الموضوع في كل قصيدة ، فكثيراً ما يحصر شعره في القصيدة الواحدة في موضوع واحد ، واذا نوع الموضوع فهو يخرج الى الثاني بمناسبة وبعد فصله عن الاول ، مريداً بذلك ان تكون قصيدته كالروضة الغناء ، محتوية على مختلف الازهار ، وهذا اقرب الى الطبيعة ، وليس فيه ما يؤخذ عليه غير كونه ينافي ما يفعله شعراء الغرب ، ولكل امة سياق ونزعة

---

(١) من مقال له بالسياسة الأسبوعية ١٩١٧ .

ليست لاختها ، واعتقد ان الكتاب الذين يزرون بشعر شعرائنا على الاطلاق ، لو اتيح لهم ان يكونوا شعراء ، لما خرجوا كثيراً عن النهج الذي يمشي عليه المبرزون من هؤلاء ، والسبب هو ما قدمته من اختلاف الوان الشعر عندنا عن الوانه عند الغربيين من جهة . وقيد القافية وإعرابها عندنا وفقدانه عندهم من جهة اخرى . وقد هم كثير من الشعراء المتضلعين من العلوم العصرية بتقليد الغرب في شعره ، فلم يكن ما اتوا به غربياً ولا شرقياً ، ولم يوفقوا الا في الوان من الشعور ، هي مشتركة بين الامم جميعاً ، ومهما تمرد الشاعر الكبير على الاساليب والتصورات في امته فهو لا يستطيع ان يطفر مرة واحدة الى تصورات واساليب تخالف ما ألفه شعبه ؛ فيقطع الوشائج القوية التي تربط الحاضر بالماضي .

وفي الحق ان وحدة القصيدة هي ليست كل شيء في الشعر ، وان الشعر الجاهلي صورة لحياة الصحراء وتفكيرها ونظرها الى الاشياء وحكمها عليها ، والقصيدة في الشعر الجاهلي تربطها وحدة عامة ومنهج محدود من افتتاحها بالغزل ، ثم وصف مناظر الصحراء التي شاهدها الشاعر في طريقه ثم الإلمام بالغرض المقصود من القصيدة . واعتقد ان انفة الشاعر الجاهلي دعته الى ان يموه المدح بكثير من تصوير عواطفه ومناظر بيئته حتى لا يظهر خضوع نفسه لمطالب الحياة وحاجات العيش . وكل قصيدة من مشهورات القصائد الجاهلية تربطها وحدة عامة . وان كان ميزان المنطق لا يتحكم في هذه الوحدة التي جاءت اثراً للبيئة وحياة الشاعر .

واما ان الشعر الجاهلي كثير العيوب العروضية ، فلا ادري ما هو دليل الناقد عليه ؟ اهو قصيدة عبيد بن الابرص (اقفر من اهله ملحوب) ام بعض هذه الشواهد المروية لعيوب الشعر من الإكفاء والإيطاء والتضمين والسناد.. الخ ؟ واين تكون هذه كلها في الشعر الجاهلي ، ثم ما هذا التكرار الساذج ، اهو مثل قول مالك بن الريب :

لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا

مزار ، ولكن الغضا ليس دانيا

أو في مثل قول الحطيئة :

ألا حبذا هنـــد وأرض بها هند

وهند أتى من دونها النأي والبعد

او في قول النابغة :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار

ماذا تحيون من نؤى وأحجـــار

وقد أراني ونعما لاهيين بها

والدار لو كلمتنـــا ذات أخبار

أيام تخبرني نُعْمُ وأخـــبرها

ما أكتم الناس من حاجي وأسراري

واين هو هذا الاقتسار المزعوم لعله الانتقال من غرض الى غرض دون ترتيب منطقي او مناسبة فلسفية . ان حياتهم المرتجـلة الكثيرة التبدل والتحول والانتقال والتي لم يتح لهم فيها حـظ من الثقافة والمنطق هي التي فرضت عليهم ذلك .

ثم هل ما في الشعر الجاهلي من مجازات وكنايات وتشبيهات وأخيلة ـ رغم قلتها وقربها من حقائقها ـ يدعو الى ان نهجر الشعر الجاهلي ونطرحه ظهرياً . مع ان هذه المجازات من خصائص البيان العربي التي تكسبه روعة وجمالاً .

وأما ان الشعر الجاهلي لم يكن فناً يستقل الخبيرون به، فهذا خطأ بعيد . وهل تنسى رجال المعلقات ، والنابغة وحكومته بين الشعراء في سوق عكاظ ، وهؤلاء الشعراء الذين خلد ذكرهم على مر العصور ؟. ولقد كان الناشىء في الجاهلية يتتلمذ على شاعر مشهور يروي شعره ويأخذ عنه فنه الأدبي . وكان الشعراء يعرضون قصائدهم على غيرهم من الخبيرين بفن الشعر وصناعته ، واستمر هذا الى ما بعد الاسلام . والدكتور طه حسين نفسه يقول: « اما مصر فكان لها في الجاهلية شعراء [1] يتخذون الشعر فناً يمثلون به نهضة فنية عقلية في هذا الاقليم من جزيرة العرب » .

إن من العقوق للعربية أن تذهب مذهب الأستاذ العقاد من الغلو فيما رمى به الشعر الجاهلي من التفكك وعدم اتساق الفكرة وارتباطها واتصال معانيها وما أظن ذلك وإن كان موجوداً فيه مما يؤاخذ عليه الشعر الجاهلي إلى هذا الحد البعيد ، وفيم الفرق إذاً بين الأسلوب الفني الجميل وبين الأسلوب العلمي وحقائقه المنطقية المرتبة ، إن الشعر فن قبل أن يكون فلسفة .

واخيراً فللعقاد رأيه في عدم اتخاذ الشعر الجاهلي مثالاً يحتذيه ، أما نحن فنقول : إنه لا داعي لأن يملأ شعراؤنا المعاصرون شعرهم بألفاظ العقنقل والسجنجل والجندل والحنظل كما فعل امرؤ القيس مثلا ، ولا بالأثمد والبرجد والمسرهد كما فعل طرفة ، وليس من المناسب أن نترسم خطاهم في بكاء الأطلال ، ووصف الدمن وذكر محاسن الخيل وكلاب الصيد ، فلنا — بدلاً

---

(١) (راجع ١٩٧ وما بعدها من الأدب الجاهلي) .

من ذلك كله – مجال فسيح لقول الشعر في عصر الكهرباء والذرة والأثير والطائرات . أما فيما عدا ذلك من الألفاظ والأغراض فالشعر الجاهلي أروع ما يحتذى في مذاهب النظم وجمال الصياغة وحسن الأداء .

وكتب الأستاذ أحمد أمين عدة مقالات في الثقافة بعنوان «جناية الشعر الجاهلي على الأدب العربي » رد عليها الأستاذ علي النجدي ناصف في صحيفة دار العلوم بمقالة عنوانها «هل جنى الشعر الجاهلي على الادب العربي ؟ » – ٢١–٤٠ مجلة دار العلوم عدد أكتوبر ١٩٣٩ – ولا داعي للإفاضة في ذكر ذلك كله فهو كلام معاد مكرور .

(٤)

وكانت ثورة النقد الكبرى بين الدكتور طه حسين وبعض النقاد الباحثين حول الشعر الجاهلي . ذات صدى بعيد في دراساته وفي منهج النقد الادبي . وآراء الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي . ترتكز على أساس واحد . هو انتحال الكثرة المطلقة من الشعر الجاهلي . ويؤكد الدكتور هذا الانتحال بأدلة كثيرة : منها أن المأثور منه لا يمثل حياة الجاهليين الدينية أو العقلية ، ولا يصور اتصال العرب السياسي بغيرهم من الامم المجاورة لهم ، فوق أنه لا يمثل اللغة الجاهلية نفسها لاختلاف اللغة الحميرية عن العدنانية جد الاختلاف، فالمأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروي باللغة العدنانية الفصحى ، مع انهم لم يكونوا يتكلمون بها ، ولم يتخذوها لغة ادبية لهم قبل الإسلام . مما يدل على انتحال هذا الشعر على القحطانيين فوق ان الشعر الجاهلي لا يصور اختلاف اللهجات العدنانية المتعددة، التي لاشك في اختلافها .ويشرح الدكتور أثر البواعث السياسية والدينية في الانتحال ، وعمل القصاص والرواة ، ويبني على ذلك كله رفضه الشعر المنسوب إلى شعراء اليمن لأن

لليمنيين لغة تخالف لغة قريش ، ولأن هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولاً ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانياً ، وشعراء المدينة ليسوا عنده يمنيين بل مضريين . ويرى أنه ليس لليمن في الجاهلية شعراء . أما ربيعة من عدنان وكانت تسكن في الشمال ، فيرى الدكتور ان شعرها دون شعر المضريين ، لأنها لم تكن تتكلم لغة قريش ، ويتردد في قبول الكثير منه ، واما مضر فكان لها شعراء ، يتخذون الشعر فناً ، وقد درس شعراء مضر دراسة نقد وتحليل ، كما درس غيرهم على ضوء نظريته في انتحال الشعر الجاهلي ، ووضع مقاييس لتمييز المنحول منه وجعل الشعر أصلاً في مضر ، ثم انتقل منها إلى ربيعة فاليمن فالموالي ، وبذلك يعكس نظرية القدماء في انتقال الشعر الجاهلي بين القبائل .

وقد حدثت ضجة إثر نشر كتاب (الشعر الجاهلي) الذي نشر الآن باسم (الادب الجاهلي) [1] بعد ان حذف منه ما يمس الشعور الديني ، فقد ذكر فيه أن قصة تعلم أبناء إسماعيل العربية من القحطانيين مصطنعة دعت إليها حاجة دينية أو سياسية أو نحوها ، وذكر أن ورود قصة إسماعيل في الكتب الدينية لا يكفي لإثبات صحتها التاريخية ، وهو يرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهودية من جهة القرآن والتوراة من جهة اخرى ، فالصلة بين القرآن والتوراة والانجيل واضحة ، ولكنها صلة معنوية عقلية تحتاج الى صلة مادية تؤيدها ؟ فما الذي يمنع ان تستغل هذه القصة . قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود . ويقول : ان هذه الفكرة يمكن ان تكون قد نشأت في العصر الذي اخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويستعمرونه ، فقد نشبت بينهم

---

(١) اقرأ من الردود على هذا الكتاب : الشهاب الراصد للأستاذ لطفي جمعة ، النقد التحليلي للغمراوي ، نقض مطاعن في القرآن للأستاذ محمد عرفة ، نقض كتاب الأدب الجاهلي للشيخ الخضر حسين .

وبين العرب حروب انتهت بالصلح ، فلا يبعد ان يكون من هذا الصلح منشأ تلك القصة التي تجعل العرب واليهود ابناء عم . . ويقول : وقد كانت قريش مستعدة لقبول هذه الاسطورة في القرن السابع لسيادتها التجارية والدينية إذ ذاك . . . الخ .

ويبدوا انه كان متأثراً برأي الدكتور مرجيلوث الذي يقول (وحقيقة الامر في قصة إسماعيل انها دسيسة لفقهـــاء قدماء اليهود تزلفاً الى العرب وتذرعا منهم الى دفع الروم عن بيت المقدس) .

ولا نجد بداً من التنويه بعناصر الرد على آراء الدكتور في إيجاز فنقول :

اولاً : ـ اما قصة انتحال الشعر الجاهلي ونفي وجود شعراء يمنيين والذهاب الى عكس ما يراه الباحثون حول نظرية تنقل الشعر في القبائل فهو لا يعتمد على الاكثر من الحدس ولا داعي للافاضة في نقده وتحليله [1] .

ثانياً : الشعر الجاهلي يمثل حياة الجاهليين، ويرسم الوان معيشتهم، ويروي عاداتهم ويتحدث عن اديانهم ويصف بيئتهم ولون ثقافتهم . وهل هناك ريب في ان الشعر الجاهلي يصف البيئة الجاهلية وصفاً دقيقاً : من حيوان ونبات وأرض وجبال ووديان وقرى ومن جو ورياح وامطار الخ ؟ وهل هناك شك في انه سجل لتاريخهم واخبارهم وايامهم ، يقول نيكلسون في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية : « ان الادب الجاهلي المنظوم منه والمنثور يمكننا من

---

(٢) راجع في ذلك ١٥٨ – ٢٧٣ من الشهاب الراصد ، وراجع آراء المستشرقين الذين يؤيدون صحـــة الشعر الجاهلي في الشهاب الراصد (٢٩٩ – ٣٠٤) – وراجع التفصيل في هذه القضية في كتابنا « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » ، ومن مصادر هذا البحث : الأدب الجاهلي لطه حسين ، ونظرية انتحال الشعر الجاهلي للدكتور عبد الحميد المسلوت .

تصوير حياة تلك الايام الجاهلية تصويراً اقرب ما يكون من الدقة في مظاهره الكبرى». ويقول ثوربيكة الالماني في كتابه «عنترة احد شعراء الجاهلية» : «لانملك مصادر موثوقاً منها لتدوين تاريخ تلك الغارات البدوية سوى القصائد والمقطوعات المحفوظة عن شعراء الجاهلية » وقال ايضاً : يمكن تعريف الشعر الجاهلي بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وافكارها .فقد صور العرب انفسهم في الشعر صورة منطبقة على الحقيقة بدون تزويق ولا تشويه . وقال نولديكه المستشرق الهولندي في كتابه عن الشعر العربي القديم : ان عادات عرب الجاهلية وأحوالهم معلومة لنا بالدقة نقلاً عن اشعارهم وفي الشعر الجاهلي ما يفتن القارىء من اوصاف الحياة والعادات في البادية » ويقول لطفي جمعة في كتاب الشهاب الراصد : « يدل الشعر الجاهلي في جملته على نفوس ناظميه وحياتهم » ثم قال : والشعر الجاهلي اشد مـا يكون اتصالاً بحياة القوم وتاريخهم واكثر ما يكون تمثيلا ووصفاً لبيئتهم بل إنه اصدق مثال لحياة العرب انفسهم. فأثر تلك البيئة الطبيعية والمحيط الاجتماعي ظاهر في شعرهم بجانب بلاغتهم النادرة » .

وهل هناك اكثر من الدلالة على الحياة الجاهلية اكثر من الشعر الجاهلي نفسه الذي هو ديوان العرب ومستودع تاريخهم ومرآة حياتهم وصناعاتهم وعاداتهم ؟

والشعر الديني الذي يمثل الحياة الدينية عند الجاهليين كثير مبثوث في المصادر والأصول القديمة ، وهو لا يتناهى معه .

أما الشعر الجاهلي ودلالته على اللهجات العربية اللغوية ، فمن منا يشك في ذلك ، ونحن نعرف عوامل تهذيب اللغة في العصر الجاهلي وأثرها في وحـدة اللهجات اللغوية العربية عند الجاهليين ، وأثر قريش من بينهـا خاصة ، وكل

النصوص التي تشير الى اختلاف هـذه اللهجات اختلافاً كبيراً جـوهرياً فهي نصوص متعلقة بالعصر الذي سبق عصر التوحيد اللغوي .

وبنزول القـرآن كذلك صـار للغـة القرشيـة السيـادة المطلقـة في اللغة العربية .

ولا نجد داعياً للافـاضة هنـا في ذلك فقد فصلت الحديث فيه في كتابنا « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي »

وبالله التوفيق . . . . .

خاتمة الكتاب

هذا هو نهاية تلك البحوث الطويلة في الشعر الجاهلي ، التي تضمنها هـذا الكتاب ، الذي نقدمه للقارىء العربي في كل مكان .

وهي بحوث أخذت جهـداً كبيراً ، ووقتـاً طويلاً ؛ ولا نملك إلا أن نقدمها ، معتزين بها ، الى كل محب لتراثنا الشعري ، ولغتنا الجميلة ، ولماضينا الخالد ، الحافل بأروع صور العبقرية الفنية .

وأرجو أن تكون هذه البحوث مقـدمة لنشر الطبعة الثالثة من كتـابنا الآخر « الحياة الأدبية في العصر الجاهلي » . . .

هذا ونحن في هذا الكتاب لم نترجم لأحد من الشعراء الجاهلين، إذ سوف تظهر الطبعة الثانية من كتابي « الشعراء الجاهليون » في القريب إن شاء الله.. وهي حافلة بالتراجم لشتى الشعراء الجاهليين .

وبالله التوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، وما توفيقي إلا بالله .

دكتور محمد عبد المنعم خفاجي

الرياض في : ربيع الأول ١٣٩١ — مـايو ١٩٧١

فهارس الكتاب

الموضوع	الصفحة

المراجع

مراجع الأدب الجاهلي:

١ – كتب التاريخ القديمة التي تناولت العصر الجاهلي من مثل: الطبري وابن الأثير، ومروج الذهب للمسعودي، وسواهما.

٢ – كتب التاريخ الحديثة القاصرة على العصر الجاهلي مثل تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٩ أجزاء.

٣ – دوائر معارف الأدب العامة مثل البيان والتبيين، والعقد الفريد، والحيوان، والكامل للمبرد، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والمستطرف للأبشيهي، والكشكول والمخلاة للعاملي، الخ.

٤ – كتب الشعر الجاهلي وتراجم الشعراء الجاهليين وهي لا تتناهى كثرة.

٥ – كتب تاريخ الأدب العربي وهي كثيرة لا تتناهى سعة، ومن أهمها:

٨ – تاريخ العرب وآدابهم – فانديك – بولاق ١٣١٠ هـ
٩ – تاريخ آداب اللغة العربية – محمد دياب بك – جزءان ١٣١٧ هـ
١٠ – أدبيات اللغة العربية – محمد عاطف بركات وآخرين – جزءان – ١٩٠٦ م .
١١ – أدب الاسلام صالح حمدي حماد ١٩٠٧
١٢ – تاريخ الادب – حفني ناصف – جزءان ١٩١٠ .
١٣ – تاريخ آداب اللغة العربية – محمد علي المنياوي – ٩١١ .
١٤ – المنتخب في تاريخ آداب العرب – محمد عطية الدمشقي ١٩١٣ .
١٥ – تاريخ الآداب العربية – الاسكندرية – ١٩١٤ .
١٦ – دراسات في الادب الاسلامي – محمود المقدة – ١٩٦٠
١٧ – الخلاصة الادبية – حمدان مصطفى القاهرة – ١٩٢٤ .
١٨ – المذكرات الحامدية في تاريخ آداب اللغة العربية – علي حامد – ١٩٢٥ .
١٩ – المنتخب في تاريخ آداب العرب – مصطفى بدر زيد ١٩٢٥ .
٢٠ – المجمل في تاريخ الادب العربي – محمد بهجة الأثري – ١٩٢٩ .
٢١ – فجر الاسلام و ضحى الاسلام و ظهر الاسلام ، وكلها لأحمد أمين .
٢٢ – دروس في تاريخ آداب اللغة العربية – الرصافي – بغداد ١٩٢٨ .

١ – تاريخ أدب العرب لمصطفى صادق الرافعي – ٣ أجزاء .

٢ – تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان – ٤ أجزاء

٣ – الأدب الجاهلي لطه حسين .

٤ – الأدب العربي وتاريخه لمحمود مصطفى – ٣ أجزاء .

٥ – تاريخ الأدب العربي للزيات .

٦ – الأدب العربي – للسباعي بيومي – ٣ أجزاء .

٧ – الحياة الأدبية في العصر الجاهلي – طبعة أولى ١٩٤٩ – طبعة ثانية ١٩٥٨ في أكثر من ٦٠٠ صفحة – تأليف محمد عبد المنعم خفاجي . والمؤلف مجموعة أخرى في تاريخ العصور الأدبية من أهمها :

(ا) الحياة الأدبية بعد ظهور الاسلام– تأليف محمد عبد المنعم خفاجي.

(ب) الحياة الأدبية في عصر بني أمية–الحياة الأدبية في العصر العباسي .

(جـ) الآداب العربية في العصر العباسي الأول .

(د) الحياة الادبية في الاندلس والعصر العباسي الثاني .

(هـ) الحياة الادبية بعد سقوط بغداد .

(و) الادب العربي بين الجاهلية والاسلام .

(ز) الادب العربي في ظلال الامويين والعباسيين .

(ح) قصة الادب في مصر (٥ أجزاء) .

(ط) قصة الادب في الاندلس (طبعة أولى في خمسة أجزاء ؛ وطبعة ثانية) .

(ى) قصة الادب المهجري (في جزأين) .

وكلها من تأليف محمد عبد المنعم خفاجي .

٢٣ ـ المجمل ، والمفصل لطه حسين وآخرين .

٢٤ — الآداب العربية وتاريخها ـ جرجس كنعان .

٢٥ — كتب الشيخ ابراهيم أبو الخشب في تاريخ الأدب العربي .

ومن الجدير بالذكر أن أغلب هذه الكتب يتناول العصر الجاهلي .